
د. سعد جرامون
بتوقيت الموتى
ساحر الكتب

إهداء

إلى أختي الغالية وأُمي الثانية

«سامية جرامون»

(١)

اشتياق، حنين للحظات طالما نلهث بحثًا عنها، لا ندري لماذا هذا البحث الدائم دون مللٍ أو تعب، وكأنَّ هذا التعبَ دواءٌ لراحتنا، أتكونُ الراحةُ في البحثِ المُستمر أم في الوصول للحقيقة؟! لستُ أدري!.

ليلةٌ جديدة مُمطرة وقد اقترب منتصف الليل، اجتاحت عاصفةٌ عاتية قرية «بسنتواي» التابعة لـ «مركز أبو حمص، محافظة البحيرة» وكأنها تعلن عن لعنةٍ أو غضبٍ ما قادم هذه الليلة، الأمطار تتساقط بغزارة، صوتُ الرعد يسيطر على المشهد، البرق يلون السماء بأكملها، ثم توارى للحظات، سادت عتمةُ الظلام ولكن سرعان ما ظهر البرق وراح يُشعل السماء من جديد وكأنه يتحدى شيئًا ما، ظل المشهد تباعا هكذا، برق، رعد ثم مطرٌ غزير، توارى صريرُ الرياح مع صوت الرعد والمطر، وظهر ضوءٌ أبيض في السماء مع ضوء البرق المُشتعل، شرع يختلط بضوءٍ أخضر آخر.

وهنا ظهر (إسلام) يركض سريعا في شارع القرية الرئيسي، مرتجفًا من البرد، يرتدي قميصًا وسروالًا وعليهما معطفا أسود اللون من الجلد، يقع ويسقط في الطين على وجهه ثم يعاود الوقوف مرةً أخرى ويستمر في الركض من جديد كالمجنون المخبول، تعمق في منتصف القرية ووقف يحدق

للسماء، والتي مازالت على تلك الحالة وكأنها تحذره من شيءٍ ما، نعم؛ فالمشهد مُخيفٌ وغيرُ مسبوقٍ بالمرة، ثم خرج من القرية مُتجهًا نحو حقول الجوافة، وقف للحظاتٍ ينظر علي مرمى بصره في الحقول، ولكن سرعان ما أكمل الركض في الطريق الصغير بين الحقول المؤدي للمقابر.

وصل سور المقابر ووقف خارجه وبوابة المقابر مُغلقة تماما من الخارج بقفل حديدي كبير الحجم، وبين كل هذه الأهوال التي تحيطه من هذا الطقس الغريب، ظهر رجلٌ مُسن، يبدو أنه ليس من سكان القرية، مُريبٌ وغريبُ الشكل ذو ملامح مُخيفة، أصلع تماما، يرتدي جلبابًا أبيضًا فضفاضًا، يتطاير حوله في جميع الاتجاهات، رآهُ (إسلام) يقتربُ نحوه بجانب سور المقابر من خارجها، وكأنه خرج من الحقول وليس من داخل المقابر، دنا أكثر من (إسلام) وبجسده المتناسق لطوله، ليس بالبدين ولا بالرفيع، فهو فارغُ الطول، تعدى طوله المترين، وقف بجواره وبيده حزمة من المفاتيح، لكنها ليست في حجم مفاتيحنا العادية، فهي أطول وأعرض بكثير، كاد يتعدى طول كل مفتاح منها الثلاثين سنتيمتر، وأخذ يلف حزمة المفاتيح بحركة دائرية في وجه (إسلام) دون أن يتفوه بأية كلمةٍ حتى الآن، ماءُ المطرِ يتساقط على جلبابه لكنه لا يمسك به ولم يبلله البتة، رغم أنه أغرق ثياب (إسلام)، السماء مازالت تصبُ غضبها، بحدقتين متسعتين

مرتجفًا، نظر (إسلام) لهذا الرجل، اقشعر جسده وارتكز على سور المقابر ولم ينطق بأي كلمة مطلقا، إلا أنه تمنى أن تنشق الأرض وتبتلعه حتى ينتهي خوفه والذي أوشك على أن يتسبب في خروج روحه.

دنا هذا الرجل منه، وبصوتٍ قويٍّ أجشّ تعدت قوته صوت الرعد والذي راح يتردد في سماء القرية بأكملها قال:

ـ هل تعرفُ دجّالًا في هذه القرية يا بُنيّ، أحتاجه بشكلٍ ضروريٍّ الآن؟!

حدق له بخوف وترقُّب وجسده مازال يرتعش، جثا على ركبتيه بعد أن فقد القدرة على الوقوف مقطّبًا جبينه في استهجان؛ وقال متلعثمًا:

ـ دجال؟! لا أعرف أية دجالين.

راح الرجل يلوح بحزمة المفاتيح في وجهه، وحدق له بنظرةٍ غريبةٍ وغير مفهومة بعد أن تجعد جلد وجهه بطريقة مريبة، وشرعت عيناه تطلقان شراراتٍ من النار في وجهه، صرخ (إسلام) صرخةً راحت تدوي في سماء القرية، ولكن هيهات هيهات أن يسمعه أحد الآن بين هذا المطر والرعد. أغمض عينيه حتى لا يرى هذا الرجل أكثر من ذلك، والذي صار مُخيفا بعد خروج شرارات النار من عينيه، ظل يصرخ

لدقائقَ حتى أفاق على انتهاء المطر وصوت الرعد وعادت ظلمة السماء مرةً أخرى بعد اختفاء البرق، فتح عينيه ولم يجد هذا الرجل أمامه، راح ينظر حوله في كل الاتجاهات بحثا عنه، لا يعرف إلى أين ذهب؟! فلم يجد له أيَّ أثر. تسمر وتجمد جسده مكانه شاردًا خائفًا، وقد عمَّ الهدوء والسكون القرية بأكملها مرةً أخرى بعد انتهاء تلك العاصفة العاتية. نهض وبدون أن يشعر وجد نفسه يدخل من بوابة المقابر والتي فُتحت جزئيًا ببطءٍ وحدها وكأنّ هناك شخصا ما فتح مزلاجها من الداخل بعد أن فتح قفلها الخارجي، دلف منها وراح يسير ببطءٍ يشعر بتقييده في الجزء السفلي من جسده، السكون والهدوء عم المقابر في تلك اللحظات من الليل بعد العاصفة دون صفير الرياح الخفيف والذي يصدر صوتًا متناغمًا مع السكون الآن، شرع يسير بين المقابر الكثيرة يسقط وينهض فتلطخ جسده أكثر بالطين الذي بات يوجد في كل جزء من المقابر. وصل لمقبرةٍ تبدو الأكبر بين جميع المقابر، وقف أمامها ينظر لها بلهفةٍ وشوق، بابها الحديديّ مُحكمُ الغلق. ظل واقفًا لدقائق، ثم دنا من باب هذه المقبرة وراح يطرقه بدقات خفيفة وكأنه ينتظر أحدًا أن يفتح له من الداخل، مكث على هذه الحال لدقائق، حتى أنه فقد الأمل أن يفتح له أحد وظهر ذلك على ملامح وجهه المُتجهمة، أسند ظهره على جدار المقبرة من الخارج

وأخذ يهز رأسه مُتمتمًا. ساد الصمت والسكونُ المكانَ في هذا الظلام المعتم، وفجأةً ظهر هذا الرجل الذي قابله خارج المقابر وراح يقترب نحوه من بعيد يشق المقابر، حتى دنا منه أكثر وأكثر و(إسلام) مازال مُغمَض العينين لم يره بعد، فتح عينيه ورآه أمامه، فأراد أن يصرخ، ولكن حدق له هذا الرجل؛ وقال باسمًا:

ـ لا تخف يا بُنيّ، أنا هنا لـأساعدك.

لم يصرخ بعد أن سمع تلك الكلمات واطمئن قليلا ولكنه مازال خائفًا، وغمغم بهدوء، ثم قال متذمرًا:

ـ من أنت، وماذا تريد مني، وكيف ستساعدني؟!

نظر له غاضبًا، وبنبرةٍ مرتفعة ترددت في السماء، أردف مغتاظًا:

ـ لا تشغل بالك بمن أكون، «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ» عليك تنفيذ الأوامر دون أن تسأل أيّ سؤال.

شعر بالخوف كأن روحه تُسحب منه ولم يتفوه مجددًا، وظل يحدق له بصمت كاد أن يسقط مغشيًا عليه، اقترب (حامل المفاتيح) من باب المقبرة المُغلق بقفل نحاسي كبير وراح يبحث في حزمة المفاتيح التي يحملها بيده للحظات،

حتى أخرج مفتاحًا من بين تلك الحزمة الكبيرة، والتي تبدو ثقيلة للغاية، دنا من قفل المقبرة وفتحه بهذا المفتاح، و(إسلام) يُحدق بذهول صامتًا. فُتِح الباب وظهرت المقبرة مُظلمة تماما من الداخل تخرج منها رائحة نتنة لا يستطيع أن يتحملها أحد، ظهر هذا على (إسلام) عندما وضع يده على أنفه في محاولةٍ ألا يشم تلك الرائحة الكريهة، ولكن سرعان ما رفع يده بعد أن كاد أن يختنق، نظر لـ(حامل المفاتيح) وبذعرٍ قال متلعثمًا:

ـ ما تلك الرائحة النتنة الكريهة؟!

ضحك (حامل المفاتيح) وقهقه بضحكاتٍ كادت أن تهز المقابر من مكانها، وأجاب:

ـ رائحة الموتى لا تقلق، لحظات وستختفي لأنهم يريدون هذا.

وما هي إلا لحظات وتوارت تلك الرائحة، نظر له (إسلام) بترقبٍ، وسأله:

ـ من هؤلاء؟!

صاح غاضبا:

ـ قُلت لك، لا تسأل عن أي شيءٍ آخر، لماذا لا تسمع الكلام؟!

طيلة عمرك وأنت مُتعب، حتى من صغرك وأنت تصنع المشاكل لكل من حولك، كف عن اختلاق المشاكل واسمع الكلام ونفذ كل ما يُطلب منك ولا تتعبني معك أيها الأحمق، وهذا آخر تحذيرٍ لك.

حدق له مُندهشًا من كل هذه الكلمات غير المفهومة ولم يرد مجددًا وغمغم:

ـ من صغري وأنا مُتعب وأصنع المشاكل لكل من حولي! ما هذا الكلام الغريب ومن هذا الرجل الغريب؟! صرتُ لا أفهم أي شيء ولكني سأصمت حتى لا يفعل بي أيّ مكروه.

دنا منه (حامل المفاتيح) وقال باسمًا:

ـ لماذا صمت يا مُتعب؟!

نظر له خائفًا وأردف مقتضبا:

ـ ألم تأمرني أن أصمت؟!

اقترب منه (حامل المفاتيح) أكثر، انحنى قليلًا و(إسلام) يقف بجواره كقزم، نظرًا لضخامة جسده، وهمس في أذنه باسمًا:

ـ ادخل المقبرة.

بوجهٍ ممتقعٍ نظر له مفزوعًا وقد زاد خوفه، وتابع:

ـ لماذا أدخل المقبرة؟!

أردف غاضبا:

ـ لأنك جئت هنا الآن لتدخلها، كما أنني تركتُ، كل مشاغلي وجئت لـأساعدك أن تدخلها، لأنك طيلة عمرك لا تستطع أن تفعل أي شيء وحدك.

ارتعش وانتصب شعر رأسه وراح جبينه يتصبب عرقا رغم برودة الطقس، وقال:

ـ أنا خائف، ولن أدخلها.

بصوت مرتفع أجش وكأنه أراد أن يغير صوته ليخيفه أكثر، تابع:

ـ ستدخلها، ولا تتعبني معك.

تملك منه الخوف وراح يتصبب عرقًا أكثر وأكثر وتغيرت ملامح وجهه، كاد أن يتبول على نفسه، ورد مُتمتمًا:

ـ بالله عليك لا أريد أن أدخلها، أنا خائف، أرجوك اتركني أرحل من هنا، وأعدك لن أرجع هنا مرةً أخري.

ضحك (حامل المفاتيح) وراح يُقهقه بأعلى صوته بغير اكتراثٍ، وأكمل:

ـ يا بُنيّ، لن تستطيع الهرب من دخول المقبرة، هيا ادخل، أريد أن أرحل من هنا الآن، فلا تضيع الوقت.

ـ ادخل معي لـأطمئن بوجودك.

ضحك ساخرًا، وأردف متذمرًا:

ـ للأسف لن أدخل معك الآن، كل مهمتي أن أساعدك أن تدخلها فقط، وأعتقد أني أنجزت هذه المهمة بسلام، وفتحتُ لك بابها.

خائفًا مرتجفًا فاغرًا فاه رد:

ـ المقبرة مُظلمة ولن أرى أي شيء ولن أستطيع أن أتحرك بداخلها.

وهنا استدار (حامل المفاتيح) وصار ظهره له، فحجب عنه الرؤية تمامًا نظرًا لضخامته، ثم التفت له مرة أخرى يحمل بيده اليمنى شعلةً صغيرةً من النار وحزمة المفاتيح بيده اليسرى، وبعنفٍ قال غاضبا:

ـ امسك هذه الشعلة، ستنير لك المقبرة.

أخذ الشعلة بيده اليمني وتحرك ببطء، قدم للأمام وقدم للخلف نحو باب المقبرة المفتوح وقد اختفت الرائحة الكريهة تماما، نظر له (حامل المفاتيح) وتابع باسمًا:

ـ تقدم للأمام وادخل، لا تخف.

خلع معطفه بعد أن شعر بسخونة جسده رغم برودة الجو ورماه أمام المقبرة، ثم تقدم أكثر نحو الباب، وحدق بخوف وترقب ووصل للباب استدار للخلف ينظر لـ(حامل المفاتيح) لكنه لم يجده في المكان البتة؛ فصاح عاليا مُتعجبا:

ـ أين اختفيت؟ أرجوك لا تتركني وحدي، أنا خائف.

ظل يردد تلك الكلمات، وهو يدمدم صارخًا بقوة وظهره لباب المقبرة، إلى أن شعر بيدين تمتد من داخل المقبرة، قبضت على جذعه وسحبته بسرعة البرق للداخل، وأُغلق بابها وحده بقوة، نظر حوله في كل مكان وهو يحمل تلك الشعلة الصغيرة بيده في محاولة أن يرى أحدا، فلم يجد، صمت وراح يفكر في كل ما حدث له، ويسأل نفسه، من سحبه هكذا داخل المقبرة، ومن أغلق بابها بتلك القوة والتي كادت أن تفقده سمعه؟!

العتمة تُعم هذه المقبرة المُمتدة لـأمتار كثيرة، ارتفاعها تعدى المترين، وهناك سراديب بداخلها متفرعة في أماكن كثيرة منها، جِدرانها من الداخل مبطنة بالرخام، يبدو أنه من أجود أنواع الرخام الفاخر، أرضها أيضا رخام دون أماكن دفن الجثث، ظهر بها التراب وقليلًا من قوالب الطوب اللبن والذي كُسر وقُسم إلى أجزاء صغيرة، وهناك أيضا قوالب

من القرميد كُسر إلى أنصاصٍ وأرباعٍ وقطعٍ صغيرة، وتحول للون الأسود، ليس هناك أيُّ صوتٍ داخل المقبرة، منعزلة تمامًا عن الجو الخارجي وكأنها مكان من العالم الآخر، حتى صرير الرياح توارى تمامًا وعم الهدوء والصمت والسكون. ظهرت بعضُ الجماجم تتحركُ ببطءٍ مثل السلاحف، تقترب نحو (إسلام) لكنه لم يرها بعد؛ فهو مازال ينظر لسقف المقبرة وكأن شيء ما يجذبه، وراحت تزداد في العدد. وقف يحدق لباب المقبرة من الداخل حاملا الشعلة التي تُنير المكان من حوله، بعد تمعنه في سقفها، ربما هذا هو سبب أنه لم يرى الجماجم المُتحركة نحوه حتى الآن! يحاول أن يفتح الباب من الداخل بكل قوته لكنه مُحكم الغلق، صار كأنه جزء من جدار المقبرة بُني من الخرسانة المُسلحة. وهنا ظهرت همهمات من حركة الجماجم وكأنها تتحدث مع نفسها بصوتٍ غير مفهوم، وراح يزداد هذا الصوت الغريب تدريجيا ليُثير فضوله أن يلتفت بسرعة بحثا عن مصدره، يا للهول، لقد رأى عددًا كبيرًا من الجماجم تقترب من قدميه مُسرعةٍ وقد بدأت تملأُ كل جزءٍ في أرضية المقبرة، حتى أنه وقف عليها نظرًا لعدم وجود مكانٍ فارغ يضع به قدميه، شعر بالدوار لكنه ظهر ثابتا دون خوف بعض الشيء ولم يتفوه مطلقا، زادت أعداد الجماجم تدريجيا وملأت المقبرة حتى وصلت لمنتصف جسده وغطت الجزء السفلي منه وهو مازال يقف

حاملا الشعلة بيده لأعلي خوفا أن تنطفئ منه ويعم الظلام في المكان فيصبح الموقف أكثر صعوبة، لا يحاول أن يبعد كل هذه الجماجم عنه، أعداد الجماجم في الزيادة حتى غطت كل جسده ماعدا رأسه، التي ظهرت أعلى الجماجم، والتي ملأت المقبرة تماما، رافعا ذراعه الأيمن لأعلى حاملا الشعلة بيده اليمنى، وما هي إلا لحظات وغطت الجماجم جسده كاملا، لا تظهر إلا عينيه تلمعان والشعلة كادت أن تنطفئ. أتكون هذه هي النهاية ليتوارى داخل المقبرة ويصبح من الأموات حقا؟!

وبين كل تلك الأهوال والرعب والمشهد المُخيف والذي تشعر أنك تشاهده داخل قاعة سينما في أحد أفلام الرعب العالمية، هناك صوت هادئ راح يتردد مرتجفا خائفا مُتمتمًا من نهاية المقبرة...

(٢)

يا لها من «مقبرة ملعونة» مُثيرة ومُخيفة، وأغرب ما فيها تلك العيون في جُدْرَانها؛ فهناك ثلاث عيون في جُدْرَان المقبرة من الداخل، كل عين ربع متر في ربع متر، لذا فهي ضيقة نوعا ما، عين في الجِدَار الشرقي، والثانية في الجِدَار الغربي، والثالثة في نهاية المقبرة في الجِدَار الشمالي، على كل عين باب حديدي مُحكم الغلق بقفل كبير الحجم، ذهبي في العينان الشرقية والغربية، وحديدي في الشمالية، كل قفل منهم يلمع بشدة عاكسا أضاءته في عينيّ (إسلام).

وبنبرات خائفة متلعثمة في نهاية المقبرة، يبدو أنه صوت فتاة، قالت بلهفة:

ـ (إسلام)

رددت اسمه ثلاث مرات ثم توارى الصوت، وبعد أن كان يقف مُحاطا بالجماجم من كل اتجاه كاد أن يختنق، ما هي إلا لحظات وانسحبت كل الجماجم بسرعة البرق ودفنت نفسها في أرضية المقبرة كما خرجت زحفا منها وتوارت بهدوء، وكأنها أسرابُ نملٍ تدخل جحورها مُسرعة عندما تشعر بخوف أو خطر، ما هذا الصوت الذي فُزعت منه كل تلك الجماجم المُخيفة واختفت في ثوانٍ، يا له من صوت

حرر (إسلام) وجعلهُ يشعرُ بالغبطة والسرور، تردد الصوت مرةً أخرى ولكن أعلى تلك المرة وراح يقترب منه وهو مازال واقفًا مكانه لا يُحرك ساكنا، فتاة تقترب نحوه تحمل شعلة صغيرة من النار بيدها اليمني، عارية الجسد تماما دون ما يستره، كل جزء عاري في جسدها ملطخ بالدم وقليلا من الطين، ناظرة للأرض وشعرها الأسود الطويل يغطي وجهها، فلم يستطع تحديد ملامحها بعد، ثم صمتت وساد الهدوء، اقتربت ووقفت أمامه ومازالت ناظرة للأرض، ثم رفعت رأسها لأعلى، انسدل شعرها خلفها وغطى ظهرها حتى خصرها، وصار وجهها في وجه (إسلام) ودمدمت باكية بحرقة، دموع مختلطة بشرارات من النار، والتي تسببت في تسييح جلد وجهها أسفل عينيها، وقالت:

ـ (إسلام).

وهنا ركن ظهره على جِدَار المقبرة خلفه في محاولة للهروب من هول المشهد ولكن وجد نفسه حبيسا بين الجِدَار وبينها، ازدرد ريقه وحُبس صوته ولم يستطع أن ينطق بأية كلمة لدقائق، صار خائفا منتفض الجسد وقلبه يخفقُ داخل صدره، وقال:

ـ (كندا)؟!

بحدقتين متسعتين متقدتين بالشرار نظرت له بصموت

ولم ترد البتة.

***

يوم «شم النسيم» أو «عيد الربيع» كما يُطلق عليه المصريين، يوم ذو طابع خاص في الريف المصري، يخرج جميع الأطفال للحقول يلعبون ويمرحون طوال النهار سعداء، بعد أن لونوا البيض بالألوان المُختلفة ليأكلوه في الهواء الطلق مُستمتعين بنسمات الربيع الجميلة ورائحة الزهور، وكان لـ «بسنتواي» نصيب من هذا اليوم المُميز.

طفلان أحدهما يسبق الآخر سنا بعامين أو ثلاثة تقريبا، الأكبر يبدو أنه في الثالثة عشر من عمره، فارع الطول ونحيل الجسد، راحا يسبحان في ترعة القرية وقت القيلولة بعد اللعب والمرح احتفالا بـ«شم النسيم»، بجوار هذا الحقل من البرسيم، وهناك جاموسة مُستلقية أرضا ممتدة الأرجل وكأنها تستمتع بشمس الربيع وسط النهار، ظهرت رأسهما وباقي جسدهما في الماء، يتواريان أحيانا تحت سطح الماء ثم يعاودان للوثب لأعلى مرة أخرى، ليظهر الجزء الأعلى فقط من جسدهما، لا أعلم هل تلك عادة سيئة لـأطفال تلك القرية أن يسبحوا في الترعة، أم أنه جهل منهم وعدم وعي أن ماء الترعة قد يكون سبب في العدوى بالبلهارسيا. ظلا هكذا لوقت لا أعلمه ولكن أعلم جيدا ما يسيطر عليهما من

سرور وغبطة، اقترب منهما فرسان، يبدو أنهما من الخيول العربية لما يظهراه من مواصفات الخيل العربي، أحدهما رمادي اللون، والآخر أبيض. يمتطي الأخير فوق سرجه الأسود، فتى في بداية سن المراهقة، لم ينبت شاربه بعد، يبدو أنه أمير من هيبته فوق فرسه، ظهر كفارس يرتدي زي الفروسية، ويعلو الفرس الرمادي فوق سرجه الأحمر طفلة جميلة، يبدو أنها في العاشرة من عمرها، ظهرت كأميرة أو ملكة صغيرة متوجة فوق فرسها، ترتدي أيضا زي الفروسية. اقتربا أكثر من الترعة، واصطفا بجوارها وراحا ينظران لهذان الطفلان وهما يسبحان، وقال هذا الفتى مُتغطرسا ضاحكا ساخرا:

ـ الفلاحون الصعاليك يسبحون في ماء الترعة! همجيين متخلفين، لا ينفع معهم غير الكرباج السوداني كما يقول جدي دائما.

قوست الطفلة حاجبها لأعلى غيظا، ونظرت له غاضبة، وقالت:

ـ أرجو أن تتخلى عن هذا التفكير، وتدرك جيدا أننا كلنا بشر مخلوقين من طين وتتخلي عن هذا التكبر والغرور.

مقطبا جبينه في استهجان، أردف ضاحكا:

ـ دائما قلبكِ طيب وتحبين الفلاحين لذلك يقتربوا منك، لم تصنعي لنفسك هيبة مثلي، تشبهين أبي، الله يولع فيه في قبره، طالما كان يعشق الفلاحين الجرابيع، أنا سعيد جدا أنه مات، لأنه كان يشجع هؤلاء الصعاليك بالجُرأةَ علينا.

صمتت هنيهة ونظرت له مُنزعجة، ثم تابعت خائفة:

ـ تعالَ نتحرك من هنا.

بحدقتين مُتسعتين متقدتين بالشرار والغل، تابع ضاحكا ساخرا:

ـ تعالِ نستهزئ ونضحك قليلا على هذان الفلاحان.

وراح يهز قدمه اليمني في إشارة لفرسه أن يقترب من جسر الترعة، والطفلة مازالت مكانها، كل هذا والطفلان في ماء الترعة يحدقان لهما بصمت، نظر الطفل الأصغر لهما مُتعجبا، وقال بترقب:

ـ من يكونان يا (سليمان)؟!

بصوت قوي يحمل كثيرا من الثقة محدقا لهما غاضبا، أجاب:

ـ معقول لا تعرفهما يا (إسلام)! إنه حفيد الباشا وأخته الأصغر منه.

وفي تلك اللحظات، صوب هذا الفتي بندقية الرش التي يحملها بيده لـاصطياد العصافير نحوهما، يبدو أنه أراد أن يطلق عليهما طلقات الرش الصغيرة ساخرا منهما، بعينيها السمراوان داكنة السواد حدقت له أخته غاضبة بعد أن اقتربت بفرسها نحوه، وبصوتها العذب صاحت:

ـ ماذا ستفعل، أتريد أن تصيب أحدهما في عينه؟!

لم يكترث لكلماتها وضحك عاليا ساخرا، وأطلق طلقات الرش الصغيرة نحوهما في الماء ولكن سرعان ما تواريا تحت سطح الماء ولم تصبهما، مرت لحظات وهو مازال يضحك، وقال:

ـ فلاحون جبناء.

أخرجا رأسهما من الماء ودنا (سليمان) من الجسر، ليخرج من الماء ولكن سرعان ما نظر للجزء السفلي من جسده واكتشف أنه لا يرتدي سترته الداخلية وأنه يسبح في الماء عاريا تماما، عاد لداخل الترعة مرة أخري، وصاح غاضبا:

ـ والله لو كنت لابس سروالي لخرجت من الماء وأنزلتك من أعلى فرسك وأغرقتك في الترعة.

بصق الفتي عليه وأردف مُقهقها:

ـ متخلف، وهمجي ومخبول مثل كل الفلاحين، يسبح بدون مايوه.

اقترب (إسلام) من (سليمان) وربّت على كتفه في محاولة لتهدئته، وقال بهدوء:

ـ أرجوك يا أخي، لا ترد عليه، كن أنت العاقل.

بوجه احتقن بالدم وشرار ظهر بعينيه، رد متذمرا:

ـ كان ممكن أن يرشق هذا الرش بعيني أو عينك.

قال باسما:

ـ الحمد لله لم يصبنا، لا داعي أن تفتعل مشكلة.

وهنا قالت الطفلة لـأخيها باكترات:

- Please, Let's go from here now.

ـ لو سمحت، دعنا نغادر من هنا الآن.

ضحك بأعلى صوته وأردف:

ـ Ok، لأني أعلم أنك يمكن أن تبكي كالعادة في كل مرة أضايقك.

أومأت برأسها غاضبة، واستدارا بعيدا عن الترعة وتحركا بفرسيهما، تاركين (سليمان) و(إسلام) مازالا في الماء، فخرج

عاريان تماما واقتربا من الجاموسة وراحا يرتديا ملابسهما ونظر له (إسلام) وقال مغتاظا:

ـ قُلت لك لا داعي لنزول الترعة، ونزلنا عاريين.

بوجه أسمر، وشعر أسود مبلل بالماء، ضحك (سليمان) وأردف:

ـ لا سلطة لأحد علينا وانت أخي حبيبي، أيمكن أن تخجل مني؟!

ضحك (إسلام) وقد احمر وجهه وراح ينظر للأرض خجلا، ورد:

ـ أنت تعلم أني خجول ولكن لا عليك، أنت أخي حبيبي.

ظلا يتبادلان الحديث معا والسعادة تظهر على وجههما إلى أن غلبهما النعاس وناما بجوار الجاموسة وقت القيلولة.

عاد الفتى وأخته للقصر بعد رحلة نزهة في القرية، يحمل كيسًا أسودًا صغيرًا مليئًا باليمام والعصافير، ودلفا من بوابة القصر الرئيسية، وهنا أسرع شخص في بداية العقد الرابع من عمره، قمحي البشرة، يرتدي جلباب فلاحي مُقطع من بعض أجزائه، يبدو أنه يعمل خادما في القصر، اقترب منهما وأمسك لجام الفرسان، وبرأس منحنية وملامح أنهكها التعب

قال بصوت خافت:

ـ حمد الله على السلامة يا بيه، حمد الله على السلامة يا هانم.

وتحرك بالفرسان نحو الإسطبل في نهاية حديقة القصر. دلف الفتى وأخته إلى بهو القصر، ليجدا سيدة في نهاية العقد الثالث من عمرها، ترتدي جلباب النساء الفلاحي للقرية، خرجت من ناحية المطبخ، وهي تمسح يديها في جلبابها تبدو أنها تعمل خادمة في القصر أيضا، بوجه قمحي فاتح وعينين بنيتين استقبلتهما باسمة وقالت نفس الشيء الذي قاله هذا الخادم من لحظات، أعطاها الفتى الكيس الذي بداخله كل ما اصطاده هذا اليوم، واقتربت الطفلة نحوها وقبلتها باسمة سعيدة برؤيتها، قالت وهي تنظر لأخيها غاضبة:

ـ لقد قتل العصافير الجميلة يا طنط.

حدقت للفتى خائفة وأردفت مرتجفة:

ـ البيه يفعل كل ما يريده يا هانم.

ضحك ساخرا من كلمات أخته وتابع:

ـ كم أستمتع وأتلذذ بأكل هذه العصافير، شيء جميل أن

تقتل روحًا وتأكلها، رغم أن جدي لم يحرمنا يوما من لحم الغزال، لكن في الحقيقة لحم هذه العصافير أطعم من لحم الغزال لأني أنا من قتلها.

نظرت له السيدة وصمتت وملامح وجهها تعبر عن خوفها الشديد، ثم أردفت الطفلة:

ـ طيلة عمرك قلبك قاسي، طالما أردت أن أعرف لمن تشبه؟

قهقه ساخرا وتابع:

ـ أشبه أمي الله يرحمها، كانت نفس طباعي وكانت تكره الفلاحين مثلي، كنت اتمنى أن تظل معنا في الدنيا أكثر من ذلك.

لم ترد الطفلة بأية كلمة مجددا، واكتفت بتلك النظرات والتي تحمل كثيرا من الغضب والكره ليكمل حديثه وهو ينظر لهذه السيدة غاضبا:

ـ اليوم كنت سأضرب أولادك بطلقات الرش ولكن خفت أن تبكي هي بسببي مثل كل مرة.

ونظر لأخته ضاحكا ساخرا، خفق قلب هذه السيدة بصدرها، وقالت بلهفة وخوف وأطرافها ترتجف:

ـ وما السبب يا بيه؟ نحن طيلة عمرنا في خدمتكم.

بغير اكتراث رد باسما، وهو ينظر لـأخته:

ـ عظيمة كلمة في خدمتنا هذه، كرريها مرة أخري لتسمعها الهانم وتعرفها جيدا.

فكررتها مرة أخري وقلبها يتقطع علي ولديها، وهنا اقتربت منها الطفلة وربّتت علي كتفها، وقالت آسفة:

ـ لا تخافي يا طنط، لم يحدث لهما أي مكروه، أنتِ تعلمين أنه يحب دائما المزاح ولكن للأسف مزاحه ثقيل مثله.

ترقرقت عينيها بالدموع، وهي مازالت تُحدق له، وأردفت متلعثمة:

ـ ربنا يطمئن قلبك يا هانم.

وبصوت مرتفع عنيف تابع الفتى متغطرسًا منزعجا:

ـ (سليمان) ابنك قل من أدبه وأنا تركته هذه المرة من أجلكِ أنتِ وزوجك، قولي له أن يبتعد عن طريقي لأني لن أرحمه مرة أخرى، أتفهمين؟

بصوت مرتجف وقشعريرة تملكت جسدها ردت منحنية:

ـ السمع والطاعة يا بيه.

وغادرت مُتجهه لمطبخ القصر، والطفلة مازالت تنظر له

غاضبة، وهنا دلف الباشا من باب القصر للبهو، أسرعت نحوه الطفلة وقبلته من رأسه بعد أن انحنى لها قليلا وقبلها هو مُسبقا وقالت:

ـ جدي حبيبي، عرفت ما كان سيفعله لـ(إسلام) وأخيه اليوم؟

بعينيه الزرقاوين نظر لها بترقب وتابع وهو ينظر لـأخيها باسما:

ـ ماذا كان سيفعل يا (كندا)؟

بوجه ممتقع نظرت لـأخيها والدموع تملأ عينيها وأردفت:

ـ أطلق عليهما طلقات الرش الذي يصطاد بها العصافير.

قهقه الباشا بعد أن اقترب من الفتى والذي وقف يتمايل بجسده يمينا ويسارا بغير اكتراث وقال:

ـ هذا أمر عادي يا حبيبتي، ما أكثر الفلاحين في هذه القرية الملعونة، يموت فلاح ويولد مائة فلاح غيره، ما أكثر هؤلاء الحمقى.

بنبرة حزينة أردفت:

ـ حتى أنت يا جدي تؤيد أفعاله!

رد وهو يقبل الفتي باسما:

ـ (تيمور) هو حفيدي الوحيد يا (كندا) ومن حقه أن يفعل أي شيء، وانتِ أيضا حفيدتي الوحيدة ومن حقكِ أن تفعلي أي شيء، ولكن سبحان الله أنتِ مثل أبيكِ الله يرحمه، تحبين الفلاحين وتعطفين عليهم، و(تيمور) مثل أمه الله يرحمها، يكره الفلاحين مثلي تماما، أبغضهم بشدة، أرجو أن تدركي جيدا أن الفلاحين في هذه القرية يعيشون فقط من أجل خدمتنا، ومن حقك أنتِ وأخيكِ أن تفعلوا بهم أي شيء.

شعرت (كندا) بخيبة الأمل في شكواها لجدها من أخيها ولم تتفوه مجددا، وتحركت ببطء في طريقها لصعود سلم القصر لغرفتها في الطابق العلوي، ولكن أوقفها (تيمور) وهي على أول درجات السلم، وصاح:

ـ (كندا) كيف عرفتي اسم هذا الصعلوك (إسلام)؟!

تسمرت مكانها وكأن سؤاله نزل كالصاعقة فوق رأسها وصمتت للحظات وهي تنظر لجدها خائفة، ثم أجابت متمتمه:

ـ من طنط (فوزية) دائما تتحدث عنه وعرفت منها أن ابنها الأكبر اسمه (سليمان) والأصغر اسمه (إسلام).

بعينين تطلق شرارات من النار حدق لها وتابع:

ـ هل رأيتِه من قبل أو تحدثتِ معه؟

بنبرة خافتة ردت:

- No.

تنفست الصعداء وصعدت السلم متنهدة بقوة، تشعر بالخوف والحزن معا.

اقترب الباشا من (تيمور) وقال باسما:

ـ لا تعاملها بقسوة يا حبيبي، إنها رقيقة مثل النسمة.

ظل ينظر لها وهي تصعد السلم وأردف مغتاظا:

ـ لا أريدها أن تتعاطف مع هؤلاء الصعاليك.

ظلا يتحدثان إلى أن خرجت هذه السيدة من المطبخ واقتربت نحو الباشا منحنيه الرأس وتنحنحت وبصوت خافت قالت:

ـ تؤمرني بشيء يا باشا.

بصوته الأجش رد:

ـ لا يا (فوزية) أنهي أمور المطبخ واذهبي لبيتك وتعالِي غدا في الصباح الباكر.

ـ حاضر يا باشا، كلامك أوامر.

وانصرفت ناحية المطبخ مرة أخرى، ليُنادي عليها (تيمور) غاضبا:

ـ (فوزية) أحذركِ أن يأتي أحد أولادكِ للقصر في أي يوم لأي سبب من الأسباب.

ردت مُسرعة بتوجس:

ـ حاضر يا بيه.

وفي غروب هذا اليوم، بعد يوم ممتع وقضاء «شم النسيم» بين الزهور في الحقول، غادر (سليمان) و(إسلام) الحقل، (سليمان) يمسك بحبل الجاموسة بيده، تسير خلفه، و(إسلام) بحبل نعجة، يركض خلفها اثنين من خلفتها، يقتربان منها ويرضعان فتقف النعجة في منتصف الطريق، صاح (إسلام):

ـ (سليمان) النعجة لا تمشي.

ضحك (سليمان) ورد:

ـ طالما لا تستطع أن تفعل شيء وحدك، لا بد أن أكون معك، حتى النعجة لست بقادر علي سحبها وحدك.

ودنا منه وضربه على كتفه ضربة خفيفة تعلن عن مزاحه

معه.

ـ أنت أخي حبيبي يا (سليمان) لا بد أن تتحملني خاصة أنك تعرف جيدا أني أكره الأرض والحقل (الغيط) وأحب المدرسة والدراسة، وتعلم جيدا أني آتي للأرض معك حتى لا يضربني أبي.

قهقه (سليمان) وأردف:

ـ انت لا تتحمل أعمال الأرض من الأساس ولا تفعل معي إلا القليل، وأنا أخفي ذلك عن أبي حتى لا يبرحك ضربا صباحا ومساءا.

اقترب منه وراح يحتضنه بشدة وتابع باسما:

ـ أحبك كثيرا يا (سليمان).

ضمه (سليمان) أكثر، وقد طوقه بذراعيه وحمله وقال:

ـ وأنا أيضا أحبك يا (إسلام).

ظلا يتبادلان الحديث في طريق القرية المؤدي لبنايتهما إلى أن مرا بجوار سور القصر من الخارج، فنظر (إسلام) للقصر وغمغم:

ـ ما شكل هؤلاء الناس الذين يعيشون داخل هذا القصر؟! كم أتمنى أن أدخله ولو مرة واحدة وأرى شكله من الداخل،

لماذا ترفض أمي دائمًا زيارتنا أنا و(سليمان) هذا القصر؟!

ظل يردد تلك الكلمات مع نفسه وهو ينظر للقصر تلك النظرات الغريبة والتي تعبر عن حبه الشديد له إلى أن وصلا بنايتهما المجاورة للقصر. دلفا إلى الحظيرة وأدخلا الجاموسة، والنعجة وأولادها، ثم دلفا للردهة واستلقيا على ظهرهما فوق هذه الحصيرة البلاستيكية على الأرض، وقد ظهر عليهما الإرهاق من اللعب طوال اليوم، دخلت عليهما أمهما تحمل بيدها طعاما أتت به من القصر ووضعته أمامهما، اقتربا منه وشرعا يأكلان بنهم، وأمهما تجلس بجوارهما لا تأكل، بعينيه البُنية المائلة للعسلي حدق لها (إسلام) وبنبرة حانية قال:

ـ لماذا لا تأكلين معنا يا أمي؟!

فتحت عينيها، يبدو أن النعاس غلبها من شدة التعب في القصر طوال النهار، وقالت:

ـ لقد أكلت في القصر يا حبيبي.

بنظرة حب تابع:

ـ هل سيبيت أبي تلك الليلة أيضا في القصر يا أمي كالعادة كما يفعل كل ليلة؟

بصوت غلبه التعب والنعاس، وهي تركن ظهرها على جدار الردهة، أجابت:

ـ نعم يا حبيبي.

***

اقتربت الساعة من الثانية بعد منتصف الليل، السماء صافية هذه الليلة وقد عم الهدوء والسكون القرية بأكملها، وسكون خاص عم المقابر دون صرير نسمات هواء الربيع، هناك نخلة وسط المقابر تتحرك يمينا ويسارا بسبب الرياح الهادئة، وكان أعلاها...

(٣)

يا لها من نخلة عجيبة، راحت تُطولَ وتُعانق السماء للحظات، ثم تقصرُ في الحال وتعود كما كانت، اشتدت الرياح بعد أن كانت نسمات هادئة! راحت النخلة تتمايل بقوة الرياح وتلامس سطح المقابر يمينا ويسارا إلى أن ثبتت على وضعها الطبيعي وظهر (حامل المفاتيح) يجلس أعلاها يُحدق للمقابر بعينيه الواسعة المرسومة بالكحل، وأشار بسبابته في كل ناحية من المقابر ناظرا للسماء، شرع يصدر همهمات غير مفهومة، ثم نظر أسفل للمقابر ورأى طفلان يسيران بسرعة خلف بعضهما ويدوران حول «المقبرة الملعونة» يحاولان أن يدخلاها من باباها المُحكم الغلق ولكن فشلت تلك المحاولة، فجلسا بجوار بابها الحديدي يبكيان بصوت مرتفع، كاد أن يسمعه جميع سكان أهل القرية في تلك اللحظات من الليل لولا أنهم غارقون في سبات عميق الآن، وظلا يبكيان بحرقة دون أن يتحدثا مع بعضهما بأي كلمة، و(حامل المفاتيح) يحدق لهما من أعلى النخلة باسما بهدوء دون أن يصدر صوتا، إلى أن راح يضحك ويقهقه بأعلى صوته والذي تردد في السماء وكأنه يعلن عن شيء ما سيحدث، حدق الطفلان له وأخذا يتحدثان مع بعضهما بكلمات غير مفهومة بعد أن كفًا عن البكاء وكأن ضحكاته

كانت إشارة لهما أن يمنعا البكاء. وركض الطفلان نحو النخلة بسرعة ووقفا أسفلها رافعين رأسهما لأعلى وأخذا يتحدثان معه بكلمات غير مفهومة، يبدو أنه يفهم ما يقولا له لأنه أخذ يتجاوب معهما بإشارات يديه وأصابعه الطويلة والتي لا تشبه أصابع البشر، فطولها يتعدى الخمسون سنتيمتر وفي نهايتها أظافر مقوسة، وهنا صرخ (حامل المفاتيح) وهو يلوح بالمفاتيح بيده اليمنى، صرخة هزت المقابر، وتوارى في التو واللحظة، دمدم الطفلان صارخان وتواريا بين المقابر!

***

«يا فتاح يا عليم، يا رزاق يا كريم».

ما أجمل هذا الصباح الجميل، وكأن الربيع يتحدى العالم أجمع بجماله، نسمات الهواء النقي، رائحة الزهور تعمُ القرية تأتي من الحقول في كل مكان، تشعرُ وكأنك في عالم آخر لما تعكسه تلك القرية من جمال الطبيعة الساحرة، عندما تستنشق هذا الهواء المُحمل بعطر الزهور، يسري بجسدك نوعا آخر من البهجة والتي سرعان ما تشعرك بالغبطة والسرور دون أن تجد لها أي تفسير، حقول الجوافة منتشرة في كل مكان، وبينها حقل صغير من البرسيم على رأسه جاموسة تتناول البرسيم وبجوارها اثنين من الأغنام الصغيرة مستلقيان بجانب أمهما والتي راحت أيضا تتناول

البرسيم. وبجوارهم الطفل (إسلام) بعد أن افترش القش فوق التراب وجلس فوقه، يتناول الفول الأخضر وأمامه فحم مشتعل وأعلاه براد الشاي، يُدندن بكلمات بعض الأغاني إلى أن استوى الشاي وصبه في كوب نحاسي صغير وأخذ رشفة منه بعد أن انتهى من تناول الفول الأخضر والذي ملأ معدته وسد جوعه، نظر على مرمى بصره، ورأى فرسا يقترب منه لا يستطع أن يحدد من يمتطيه، اقترب الفرس أكثر وأكثر وأمعن النظر لمن يجلس فوق سرجه، وقال بهدوء مدهوشا باسما:

ـ أيعقل أن تكون هي؟!

نظرت له باسمة، وبصوت حنون قالت:

- Hi, how are you?ـ

تورد وجهه بالابتسامة وملأت السعادة قلبه، وأجاب:

-I am fine, and you?

ضحكت الطفلة وراحت تدور حوله بفرسها، وأردفت:

ـ Wow، أتستطيع أن تنطق الإنجليزية؟!

غمز بطرف عينه، وبصوت هادئ رد باسما:

ـ بالطبع، أنا تلميذ في المدرسة وأعرف الإنجليزية جيدا،

وإن شاء الله سأصبح طبيبًا بارعًا في المستقبل.

بابتسامة انارت وجهها حدقت له، وتابعت:

ـ رائع، موفق إن شاء الله.

وصمتت هنيهة، ثم قالت:

ـ أنا (كندا) حفيدة (نُعمان باشا) وأنت (إسلام) ابن طنط (فوزية) وعمي (عبدهُ) أليس كذلك؟

وضع كوب الشاي من يده أرضا، ونظر لها مندهشا، دنا منها ووقف بجوار فرسها ورد بلهفة:

ـ وكيف عرفتِني؟!

ـ من كلام طنط (فوزية) عنك أنت وأخيكَ (سليمان) ولكن لم أكن أعرف أنك بكل هذه الطيبة والهدوء والجمال.

احمر وجهه خجلا وشعر وكأنه يُعانق السماء فرحا، وتابع باسما:

ـ أين هذا الجمال يا (كندا) أتسخرين مني؟!

شعرت بالأسف، واعترت الدهشة وجهها وقالت:

ـ بالطبع لا أسخر منك، أنت حقا جميل، جميل الروح، وجميل الملامح.

شعر بالخجل أكثر وظلت تحدق بعينيه وأردفت:

ـ لكن من الغريب أنك تناديني من غير كلمة هانم، أول مرة أسمع فيها اسمي بدون كلمة هانم.

ـ ولماذا أناديكِ بالهانم؟! أنتِ قُلتِ (إسلام) وأنا قُلتُ (كندا).

بحدقتين واسعتين ضحكت وردت:

ـ لم أغضب، رائع جدا أن لديك الجرأة والشجاعة أن تناديني بدون كلمة هانم مثل الفلاحين في هذه القرية الغريبة.

غضب بشدة واستدار بعيدا عنها وصمت للحظات، دارت حوله بفرسها، وقالت باسمة:

ـ أنا بمزح معك ولم أقصد أي شيء يغضبك.

أحمر وجهه ورد بعنف:

ـ حتى انتِ تتكلمين مثل أخيكِ.

شعرت بالأسف وقالت نادمة:

ـ لا، أنا أختلف عن (تيمور) ومع الأيام ستعرف ذلك، ولكي أثبت لك، سأجلس معك على هذه الأرض الجميلة وتلك

السجادة الرائعة وأشرب معك الشاي.

قهقه عاليا وأكمل:

ـ إنها ليست سجادة، هذا قش الأرز، نفترشه على الأرض ونجلس عليه.

ـ ماذا؟!

ـ أتعرفين نبات الأرز؟ القش هو عوده الطويل بنهايته السنبلة.

نظرت له مندهشة، يبدو أنها لا تفهم ما يقوله، وتابعت:

ـ لا أفهم أي شيء، تعالَ نجلس على القش ونشرب الشاي معا.

هبطت من أعلى فرسها وتحركت نحوه وهي تمسك لجام الفرس بيدها اليمنى، فأسرع نحوها ومسك اللجام وربطه بجوار الجاموسة، وقال باسما:

ـ فرس جميل يا (كندا).

ـ إنها فرسة «واحدة بنت ليست ولد» (تيمور) عنده فرس وانا فرسة.

هز رأسه باسما وهو مازال يربط لجام الفرسة وأردف:

ـ أردت أن أخبرك فقط أن الفرسة جميلة.

اقتربت من فرستها ومسحت بيدها على جانبها، وقالت:

ـ إنها من أفضل أنواع الخيل العربي، غالية الثمن.

جلسا معا بجوار بعضهما على القش وراح يصب كوبا من الشاي لها وتابع:

ـ أتمنى ركوبها يا (كندا).

احمرت وجنتيها خجلا، وبصوت خافت ردت باسمة:

ـ يجب أن تتعلم ركوب الخيل أولا، حتى تتمكن منها، ولا تُسقطك أرضا.

راح تارة ينظر لها وتارة أخرى للفرسة وأردف:

ـ أريدكِ أن تُعلميني ركوبها.

بصوتٍ مرتفع قهقهت وأكملت:

ـ Ok.

وظلا يتبادلان الحديث والسعادة تغمرهما في هذا الجو الربيعي الساحر إلى أن اقترب منهما (عبده) ووقف بجانبهما وقال:

ـ أنتِ هنا يا (كندا هانم) لقد بحثت عنكِ في كل مكان في

القرية.

أجفلت، وبنظرة حائرة رمقته وقالت:

ـ so sorry، كنت أبحث عن وردة بلدي في الجنينة وحضرتك تركتني على الطريق، ولكن الفرسة جريت بي حتى وصلت هنا.

حدق لـ(إسلام) بغضب وتابع:

ـ وماذا تفعل أيها المعتوه، أجلست الهانم على القش، «الله يخرب بيتك على بيت أمك، هتودينا كلنا في داهية يا ابن الكلب».

شعر بالخوف، ورد مرتجفا:

ـ آسف يا أبي، (كندا) طلبت تجلس جنبي على الأرض وتشرب الشاي معي والله.

دنا منه ومسكه من أذنه اليمنى وراح يفركها بقوة وقال:

ـ أنا أعلم أنك ستكون سبب كل الخراب الذي سيلحق بنا، لا أعلم لماذا حَبلت بك أمك؟! كان أخوكَ كافيا لنا.

ظل يفرك أذنه فتألم بشدة وقال:

ـ آسف يا أبي، توبت والله.

وهنا تملك (عبده) من كل قوته وصفعه على وجهه، فسقط أرضا وسالت الدموع من عينيه و(كندا) تُحدق له، ترقرقت عينيها بالدموع، وبنبرة غاضبة صاحت:

ـ هذا يكفي يا عمي أنا من طلبت منه أن أشرب الشاي معه.

حملها (عبدهُ) ووضعها على سرج فرستها ومسك لجامها وغادرا المكان، و(إسلام) مازال مُستلقيا أرضا والدموع تسيل من عينيه، استدارت (كندا) وظلت تنظر له، وفرت دموعها إلى وجنيتها، حتى توارت من أمامه.

وفي مساء هذا اليوم، عاد (إسلام) و(سليمان) من الحقل كالعادة ليجدا والديهما يجلسان في الردهة الصغيرة فوق تلك الحصيرة البلاستيكية المقطعة من بعض أجزائها، تظهر أرضية الردهة الطينية، فدلفا نحوهما، ووقف (إسلام) بعيدا ينظر للأرض وكأنه خائفا من شيء ما، وقال (سليمان) مدهوشا:

ـ لماذا أتيت الآن من القصر يا أبي؟!

حدق لـ(إسلام) وبصوت مرتفع أجاب غاضبا متذمرا:

ـ جئت الآن لـأدب أخيك الكلب.

نظر (سليمان) لـ(إسلام) بترقب وأردف:

ـ ماذا فعل؟!

قالت (فوزية) مغتاظة:

ـ كفى ما فعلته به يا (عبده) ولن يقترب من الهانم مرة أخرى.

اقترب منها وقبض على يدها بقوة، فتألمت بشدة وصاح:

ـ عليّ الطلاق لو سمعت صوتك يا امرأة سأقتلك يا بنت الكلب.

صمتت ودنا من (إسلام) ولطمه على وجهه، فسقط أرضا وسال الدم من فمه وتابع:

ـ أحضر الحبل يا (سليمان) كي أكتف هذا الكلب وأعلقه في السقف حتى الصباح.

أخذ (إسلام) يبكي بشدة وقال:

ـ آسف يا أبي توبت والله، لن أكررها مرة أخرى.

اقترب (سليمان) منه في محاولة أن يحميه من صفعات أبيه المتتالية وقال:

ـ قُل لي ماذا فعل يا أبي لكل هذا؟!

راح يحكي له كل ما راه بينه وبين (كندا) في الحقل اليوم

وأردف:

ـ لو الباشا ولا (تيمور بيه) عرفوا سيكون الجلد مصيرنا جميعا أمام جميع أهل «بسنتواي».

حدق (سليمان) لـ(إسلام) وغمره حُبا بنظراته وأردف:

ـ لن يكررها مرة أخرى يا أبي.

وهنا كفَّ (عبده) عن ضربه المبرح له بعد أن سمع تلك الكلمات من (سليمان) وكأنها كانت طوق النجاة لـ(إسلام) اقترب (سليمان) من (إسلام) وراح يحتضنه ويمسح دموعه والدم الذي سال من فمه بيديه وتابع:

ـ لا تغضب من أبيك، أنت تعلم جيدا ما سيفعله (الباشا) و(تيمور بيه) إذا عرفوا أنك قابلت (كندا هانم).

نظر له والدموع مازالت تتساقط من عينيه وصمت و(سليمان) يحاول أن يوقفه من الأرض بعد كل هذا الضرب، كل هذا وأمهما تجلس بعد أن انزوت في نهاية الردهة لا تحرك ساكنا خوفا من زوجها ساد الصمت المكان وخرج (عبده) من باب المنزل وقال لزوجته:

ـ سأذهب للقصر الآن قبل أن يلاحظ (الباشا) اختفائي، «اتعشي أنتِ و(سليمان) وتكوني على ذمة نفسك لو الكلب

أكل الليلة، فاهمة ولا لا؟!»

نظرت له والدموع تسيل من عينيها وقلبها يتقطع على فلذة كبدها وأومأت برأسها في إشارة لتنفيذ كلامه.

صعد (إسلام) السلم ودلف لغرفته الصغيرة في الطابق العلوي من البناية وجلس على طرف سريره وراح يبكي بحرقة و(سليمان) مازال يجلس مع أمه في الطابق الأرضي.
ظل (إسلام) هكذا إلى أن اقترب منتصف الليل وقد غطى الليل القرية بأكملها وعم السكون فتحرك نحو نافذة غرفته وفتحها وراح ينظر للقصر وهو يستنشق نسمات هواء الربيع العطرة وغمغم:

ـ (كندا) معقول كل هذا الجمال، لم أكن أتخيل يوما ما أن داخل سور هذا القصر كل هذا الجمال، هي حقيقة أم خيال، من المؤكد أنها خيال، لا يوجد على سطح الأرض كل هذا الجمال، وكأنها حورية من السماء هبطت الأرض لسبب ما، ظل يردد هكذا مع نفسه إلى أن أفاق وقال:

ـ ما كل هذا التفكير وما كل هذا الكلام الغريب، هناك فرق كبير بيننا، هي في السماء وأنا على الأرض.

وصمت للحظات وضحك ساخرا ثم تابع:

ـ اليوم كان سيقتلني أبي عندما رأيتها صدفة ماذا سيفعل

بي إذا فكرت أن أرها مرة أخرى، حتما سيكون القتل مصيري.

وهنا دخل (سليمان),وقال:

ـ تعالَ ننام الآن كي تستيقظ مبكرا للمدرسة يا (إسلام).

صعدا لسريرهما واستلقى (إسلام) على ظهره ويده على بطنه يتألم جوعا، وقال:

ـ أنا جائع يا (سليمان) لن أستطيع النوم من ألم الجوع «عصافير بطني بتصوصو».

ـ تحمل يا حبيبي هذه الليلة، حتى لا يكون طلاق أمك ثمن عشاءك، ما هي إلا ساعات قليلة ويأذن الفجر.

ـ حاضر يا (سليمان).

مرت تلك الليلة على (إسلام) وهو يتقلب في فراشه لم يذق طعم النوم، يُحدق النظر في سقف غرفته وظهرت على ملامح وجهه السعادة وغمغم:

ـ رغم كل ما حدث لي اليوم من أبي إلا أني سعيدا جدا برؤية (كندا) وبالكلام معها، حقا أنها ملكة من السماء، أخذت قلبي وعقلي معها.

وفي الصباح، خرج من منزله بعد أن تناول وجبة الإفطار

المكونة من سندويتش جبنة قريش متوجها لمدرسته الابتدائية في القرية، ومر في طريقه على القصر، فوقف أمام بوابته الرئيسية ونظر له بتعجب مدهوشا وكأنه ينتظر شيئا ما، وراح يفكر في كل ما حدث له مع (كندا). وهنا خرجت (كندا) من بوابة القصر ووقفت بجانبه، وبابتسامة رقيقة حدقت في عينيه وقالت:

ـ Hi, I miss you so much.

حدق لها ورد باسما بخجل:

ـ I miss you too.

ظل يحدق لها بصمت لتُكمل:

ـ Sorry، إذا كنت سبب ما حدث لك بالأمس.

ـ لا داعي للأسف، بالرغم أن أبي ضربني كثيرا، لكن أنا سعيد جدا يا (كندا) أتعرفين لماذا؟

نظرت له بترقب وسألته:

ـ لماذا؟!

أجاب بلهفة محدقا في عينيها باكترات:

ـ لأني رأيتك وجلست معكِ وحدنا وهذا يمثل لي الدنيا

وما فيها.

احمرت وجنتيها خجلا وراحت تُحدق له بحب ولم ترد مجددا، لتفيق على صوت قوي يُنادي عليها من خلف بوابة القصر...

(٤)

زحف الليل رويدا رويدا وغطى الظلام القرية، وبعد منتصف الليل بات الهدوء والسكون والآن على المقابر، شرع صوت صرير الرياح العاتية، وبدأ الرعد والبرق وتحول السكون والهدوء إلى عاصفة قوية كادت أن تقتلع هذه النخلة وسط المقابر والأشجار التي تدور حول المقابر داخل سورها المرتفع والذي يفصلها عن الحقول حولها، راحت الأمطار تتساقط ثلجية، ويتفتت الثلج لقطع صغيرة تلألأت مع ضوء القمر الخافت من خلف السحب المنتشرة في السماء، والتي سرعان ما ذابت إلى ماء امتصه تراب المقابر.

ما هذا بحق السماء! ليس من عادة هذه القرية سقوط الجليد! أيكون هذا مؤشرا لشيء ما؟! معذرة، دعونا من كل هذه التخمينات ولنكمل القصة في هدوء.

تحول التراب بين المقابر إلى طين وانتهت العاصفة تماما، وظهر من يأتي من الجانب الشمالي للمقابر وكأنه قد عبر الحقول وصعدها، يا للهول! إنه (حامل المفاتيح) يشق المقابر حاملا عصبة المفاتيح بيده اليمنى وشعلة صغيرة من النار بيده اليسرى، مُحدقا للأرض دون أن يرفع رأسه لأعلى البتة، اقترب أكثر حتى وصل باب «المقبرة الملعونة». وقف أمامها يُحملق حوله في كل الاتجاهات وكأنه يبحث عن شخص

ما يراقبه، ولكن من يستطيع أن يصعد المقابر في تلك اللحظات، وقعت عينيه على المعطف أمام المقبرة، فحدق له باسما ظل يلتفت كثيرا واستدار عدة مرات إلى أن دقق النظر لباب المقبرة ورفع رأسه لأعلى يستنشق الهواء المُحمل برائحة المطر، ثم خفض رأسه نحو الباب مرة أخرى ومسح بيده على قفلها الحديدي عدة مرات مُغمغما للحظات، حتى سمع همهمات تقترب نحوه وشعر أن الهواء الذي يحيطه أصبح أكثر برودة، وهنا تحرر من عصبة المفاتيح والشعلة الصغيرة بعد أن وضعهم على مقبرة صغيرة بجانب «المقبرة الملعونة» وراح يطوق جسده العملاق بذراعيه، يبدو أنه أراد أن يشعر بالدفء، وصرخ صرخة قوية كاد أن يسمعها جميع سكان أهل القرية إلا أنهم نائمون الآن.

***

داخل «المقبرة الملعونة» وبعد أن دُفنت كل هذه الجماجم والتي كادت أن تطوق (إسلام) وتخنقه تحرر وأسند ظهره على باب المقبرة من الداخل يحمل شعلته الصغيرة بيده اليمني وهذه الفتاة مازالت تقف أمامه تحدق له بصمت دون أن تحرك ساكنا، استدارت الفتاة ونظرت لعين المقبرة الشرقية ذات القفل الذهبي مرتجفة من الخوف، وفرت الدموع من عينيها ليست بدموع عادية، لكنها دم نعم سال

الدم من عينيها وتساقط على جسدها وعلى أرضية المقبرة، وراحت تارة تنظر لقفل هذه العين وتارة أخرى تستدير بوجهها وتنظر لـ(إسلام) إلى أن اقتربت للقفل وراحت تلمسه بحذر وكأن شيئا ما يدور برأسها، و(إسلام) يحدق لها مرتجفا أراد أن يتكلم ولكن حُبس صوته وانتابته القشعريرة كاد أن يقف قلبه، وبصوت متحشرج خافت قال:

ـ (كندا) أريد أن أعرف أين نحن الآن وماذا نفعل هنا؟! فقط أتذكر آخر مرة رأيتك «أنتِ وأمي، وأبي، وأم الشعور، ونُعمان باشا وتيمور» عندما...

قاطعته وحدقت له بتمعن ثم نظرت للأرض وقالت متلعثمة:

ـ (تيمور) (نُعمان باشا).

ظلت تردد هذان الاسمان عدة مرات وتحرك رأسها حركة دائرية وتحك خصلات شعرها بسبابتها اليمنى وكأنها تحاول أن تتذكر شيئا ما، وهو ينظر لها مدهوشا لا يفهم أي شيء إلى أن صرخت صرخات لم يسمعها في حياته مُسبقا كادت أن تفقده سمعه وتهدم المقبرة على رأسه، سد أذنيه بيديه حتى كفت عن الصراخ وساد الهدوء المقبرة مرة أخرى. وهنا ظهرت همهمات تقترب نحوهما ببطء شديدة من نهاية المقبرة، وكلا منهما مازال يقف مكانه لا يحرك ساكنا، الفتاة

تنظر للأرض وشعرها مُنسدل على وجهها و(إسلام) ينظر لها كادت روحه أن تخرج اختفي صوت الهمهمات وظهر (حامل المفاتيح) يقترب منهما بهدوء دون أن يصدر صوتا، شعر (إسلام) أن الهواء حوله تحول لهواء بارد بعد أن كان دافئا. دنا (حامل المفاتيح) من الفتاة ووقف أمامها، فرفعت رأسها لأعلى وسدلت شعرها خلفها ونظرت له باسمة وكأنها سعدت برؤيته وغمغم (إسلام) للحظات محدقا لهذا الرجل الغريب والمثير، ثم قال مقتضبا:

_ كيف دخلت هنا الآن؟!

بعينيه الحمراوين حدق له كاد أن يحرقه بنظراته، وبصوته الأجش رد غاضبا:

_ ألم أطلب منك سابقا ألا تسأل عن أي شيء؟

قاطعه (إسلام) بشيء من الحدة وتابع:

_ لا أريد منك شيء إلا أن تفتح لي باب المقبرة أو تخبرني كيف دخلت هنا كي أخرج من هذه «المقبرة الملعونة» أرجوك لا أريد أكثر من ذلك.

قوست الفتاة حاجبها لأعلى، ونظرت لـ(إسلام) باسمة بغير اكترات وكأنها تسخر من كلماته واقترب (حامل المفاتيح) منها وهمس في أذنها بكلمات لم يستطع (إسلام) أن يفهمها

مطلقا ولكن يبدو أن الفتاة سعيدة بحديثها معه، فغمغم (إسلام) خائفا:

ـ أين أنا الآن، ومن هؤلاء وماذا يريدون مني؟ صرت لا أفهم أي شيء، أريد فقط أن أخرج من هنا.

نظر له (حامل المفاتيح) وأردف مغتاظا:

ـ لا تتعجل كل شيء بأوان.

وراح (حامل المفاتيح) يلوح بالمفاتيح بيده وينظر لها ويحملق إلى أن وقع نظره على مفتاح ذهبي كبير الحجم، فأخرجه من وسط المفاتيح واقترب من القفل الذهبي للعين الشرقية وفتحه بهدوء، وراح يفتح بابها الحديدي، بنظرة شكر رمقته الفتاة باسمة، واقتربت من هذه العين في محاولة أن تدخلها ولكن أغلق بابها بالقفل مرة أخرى قبل أن تدخلها وراح يضحك ويقهقه بأعلى صوته واستدار بعيدا عنها وعن (إسلام) متحركا لنهاية المقبرة من حيث أتى وهو مازال يقهقه، نظرت له الفتاة في انكسار وصرخت وراحت تركض خلفه في نهاية المقبرة و(إسلام) يرى كل ذلك في حالة من الصدمة والذهول وجثا على ركبتيه وصرخ بأعلى صوته مستنجدا، علَ يسمعه أحدا ولكن هيهات هيهات.

***

ـ (كندا) لماذا تقفين خارج البوابة الآن؟!

نزلت تلك الكلمات كالصاعقة على أذنها وهي تقف في صباح هذا اليوم مع (إسلام) خارج سور القصر، والذي ركض وتواري خلف عمود خرساني كبير، التفتت (كندا) ناحية البوابة تسمرت مكانها وازدرت ريقها وتنفست الصعداء وبنظرة مرتجفة حدقت، وقالت:

ـ أرى الفلاحين وهم ذاهبون للحقول والحيوانات في أياديهم، لأني أعشق الحيوانات.

بنبرة عنيفة والشرار يخرج من عينيه رد:

ـ ادخلي القصر الآن، جدي ينتظرنا لنتناول الإفطار معه.

أومأت برأسها في إشارة بالموافقة ودلفت سريعا، وغادر (إسلام) مُسرعا لمدرسته.

دخلت (كندا) من باب القصر ومرت بالبهو تركض كالفراشة، تتراقص يمينا ويسارا وشعرها يتطاير خلفها، ترتدي فستانا فوق ركبتها والذي ظهر كدائرة حول جسدها مع رقصاتها الجميلة، وفي نهاية البهو (نُعمان باشا) يجلس على رأس المنضدة، اقتربت منه وقبلت وجنتيه وظهر على ملامحها الغبطة والسرور وقالت:

ـ جدي حبيبي، وحشتني يا جدي.

بادلها بقبلاته على وجنتيها الحمراوين، وأردف باسما:

ـ وأنا أيضا اشتقت إليكِ كثيرا يا صغيرتي الجميلة.

جلست على يساره على مقعدها، وجلس (تيمور) على يمينه وقال مغتاظا:

ـ أتمنى أن تكف عن تدليلها كثيرا يا جدي.

رمقه باسما وراح يكمل طعامه وتابع:

ـ اتركها تعش حياتها يا صغيري، لا نعلم ماذا يخبئ لنا الزمن.

بنظرة كره وغضب حدقت (كندا) لـ(تيمور) وأكملت طعامها بصمت وأردف (الباشا):

ـ لم يتبقَ إلا يومان وستغادران القرية لـ«الإسكندرية» لاستكمال الدراسة، أتمنى أن تكونا استمتعتما بقضاء الأجازة في هذه القرية الملعونة.

وهنا رجعت (كندا) للخلف وأسندت ظهرها بعد أن تركت الطعام من يدها وغمغمت ناظرة لقدميها واعترى التوتر والقلق وجهها، فنظر لها جدها مندهشا، وقال:

ـ ماذا أصابك يا صغيرتي، لماذا لم تكملي طعامك؟!

رفعت رأسها ونظرت له ولم تجب بأي كلمة، نظر لها (تيمور) غاضبا وقال ضاحكا:

ـ يبدو أنها غاضبة لأنها ستغادر هذه القرية الملعونة.

ضحك (الباشا) وتابع:

ـ سيمر الأسبوع سريعا وستأتون مرة أخري في نهاية الأسبوع القادم.

نظرت له والحزن مازال يسيطر على ملامحها وقالت:

ـ أرجو أن نظل هنا يومين آخرين يا جدي، كم أعشق هذه القرية الجميلة.

ـ للأسف، يجب أن تسافروا يا صغيرتي الجميلة المُطيعة.

وهنا وثبت من مكانها وراحت تتمتم وتحركت بسرعة ناحية المطبخ، واقتربت من (فوزية) والتي تقوم بمسح أرضية المطبخ الآن، ونظرت لها بحزن وقالت:

ـ لماذا لا يأتي (إسلام) إلى القصر؟

صُدمت (فوزية) من سؤالها عنه، ونهضت مسرعة من الأرض وردت:

ـ أتقصدين (إسلام) ابني يا هانم؟!

تورد وجهها بالابتسامة وبنبرة حانية أردفت:

ـ نعم.

صمتت (فوزية) للحظات وراحت تتجول حولها، تحك رأسها بإصبعها وقالت:

ـ أرجوكِ يا هانم، لا تتسببِ في أذية ابني، يكفي أن أبيه ضربه بسببك.

نظرت لها بحزن وشرعت الدموع تظهر في عينيها، وغادرت المطبخ شاردة.

وفي صباح اليوم الموالي، يوم الجمعة السابق لسفرهما، دلف (إسلام) من بوابة القصر الرئيسية حاملا بين يديه إناءً، وراح يسير في الحديقة في ممر صغير بين أشجار الزينة، والتي تتراقص مع نسمات الهواء، يبدو أنها سعيدة بجو الربيع في القرية، ظهرت (كندا) تأتي من نهاية الحديقة ناحية الإسطبل، فرأته يسير ببطء وخجل ورأسه في الأرض نحو باب القصر، ركضت نحوه ووقفت أمامه وحدقت النظر بعينيه، وبنبرة حانية قالت:

ـ نورت القصر.

بخجل حدق النظر بعينيها، وكأن هناك سحر ما ينبعث منهما، والتي لمعت مع أشعة الشمس، وغمغم باسما:

ـ مستحيل يكون هذا الجمال على الأرض.

ظل يغمغم إلى أن كررت كلماتها، ليفيق على ابتسامتها الجميلة والتي تظهر أسنانها متراصة كاللؤلؤ تلمع مع الشمس، وقال:

ـ كنـ... (كندا).

بحدقتين متسعتين، وكأنها تغمره بنظراتها، أردفت:

- Yup, I'm Kinda.

ابتسم بهدوء وهو لا يصدق أنه يقف أمامها الآن، وتابع:

ـ أنا سعيد جدا برؤيتك، وأيضا سعيد أني في هذا القصر الجميل، والذي طالما وقفت في نافذة غرفتي أشاهده، وتمنيت أن أدخله، حلم حياتي أراه من الداخل.

ـ أريد أن أعرف سبب سعادتك، رؤيتك لي أم أنك سترى القصر من الداخل؟

سألته ضاحكة، واحمر وجهه خجلا، وأردف:

ـ بالطبع من رؤيتك أكثر، وأيضا من دخول القصر.

راحت تدور حوله، وهي تنظر له بحب وحنان، وتابعت:

ـ لماذا أتيت للقصر الآن، وما هذا الذي تحمله بين يديك؟

دنا منها وهمس لها وكأنه أراد ألا يسمعه أحدا رغم أنه لا يوجد أحد غيرهما في الحديقة وأجاب:

ـ طالما طلبت من أمي أن أحضر معها للقصر ولكنها ترفض دائما، حتى وافقت اليوم وطلبت مني أن أحضر اللبن وأدخله في مطبخ القصر.

ـ وهذا أجمل شيء فعلته (طنط فوزية) تمنيت كثيرا رؤيتك قبل سفري لـ«الإسكندرية» الليلة.

نظر لها منزعجا وتغيرت ملامح وجهه وراح قلبه يخفق وصمت، وبنبرة حزينة تابعت:

ـ يجب أن أسافر مع (تيمور) لنتابع دراستنا هناك، ولكن لا تقلق سنأتي الأجازة القادم.

استدار وراح ينظر على مرمى بصره في الحديقة، وغمغم:

ـ أسبوع كامل لا أركِ.

اقتربت منه وراحت تحدق النظر بعينيه، وبنبرة حانية أردفت:

ـ ماذا تقول؟

ـ لا شيء، لكني منزعج كثيرا لأنكِ ستغادرين القرية.

ظلا يتبادلان الحديث والسعادة تُغمرهما وكأنهما عصفوران يمرحان بين زهور حديقة القصر، إلى أن سمعا صوتا قويا من داخل القصر...

(٥)

السماء مُلبدة بالغيوم بعد منتصف الليل، سوداء تُخفي القمر خلف سحبها، هناك شعاع لضوء القمر يظهر ويتوارى منعكسا على «المقبرة الملعونة» وكأنه يبعث لها رسالة ما صفير نسمات الهواء يغازل هذه النخلة وسط المقابر، هدوء وسكون، واربت باب غرفتها الحديدي ببطء، والتي تشبه المقبرة وكأنه لا يريد أن يُفتح ليُصدر صريره، وخرجت منحنية، شعرها الأبيض متناثر إلى أقصاه خلف ظهرها كما أنه يغطي وجهها. بدأت تسير ببطء بين المقابر، تحمل شعلة صغيرة من النار بيدها تنير لها الممرات، دافنة رأسها في الأرض وكأنها تبحث عن شيء ما، وأخذ شعرها يتطاير خلفها بسبب نسمات الهواء كالعلم الذي يرفرف على عصاه، وظلت تتجول المقابر بصمت حتى وصلت «المقبرة الملعونة» وجلست على صخرة كبيرة أمامها والشعلة مازالت بيدها، وبنظرة ثاقبة من بين شعرها المُنسدل على وجهها حدقت للمعطف المرمي في الطين أمام المقبرة وراحت تبكي بحرقة وعلا نحيبها وعم المقابر، وهنا ظهر (حامل المفاتيح) يجلس أعلى النخلة، يرتدي زيه المعتاد، يلوح بالمفاتيح بيده، تارة ينظر للسماء وتارة أخرى لها باسما ساخرا، ثم هبط من أعلى النخلة، يحمل شعلة صغيرة من النار بيده وراح يشق المقابر

ودنا منها بصمت ووقف أمامها وحدق لها وهي مازالت تدفن رأسها أرضا، وصاح مُنزعجا يعنفها بغضب:

ـ ألم أحذرك من قبل أن تبتعدي عن هذه المقبرة ولا تقتربي منها أبدا؟ يبدو أنك لن تبتعدي عنها إلا عندما أؤذيكِ.

رفعت رأسها وحدقت له، ومازالت تبكي، إنها (أم الشعور) السيدة المُسنة، ظهرت تجلس على باب «المقبرة الملعونة» ترتدي جلبابها الأسود، بصوت مبحوح متحشرج من البكاء قالت خائفة:

ـ لماذا فعلتم كل هذا بابني، ولي من قبله؟!

صمت للحظات، وهو يحملق لها مندهشا مُتعجبا من كلماتها وراح يلوح بالمفاتيح بيده، وأردف بعد أن هدأ قليلا:

ـ لا تقلقي أيتها المخبولة، هو الآن في سكون، ولا تقتربي من هنا مرة أخرى وإلا ستلقين جزائك وسيكون شديدا.

بوجهها المجعد، حدقت له غاضبة ووثبت من مكانها فوق الصخرة وأسدلت شعرها خلفها وصرخت في وجهه بقوة، صرخة هزت المقابر، بعد أن انبعث من عينيها شرارات النار، وركضت سريعا بين الممرات، ودلفت غرفتها وأغلقت الباب وعم السكون والهدوء من جديد، و(حامل المفاتيح) مازال يقف مكانه يراقبها مُتعجبا، وغمغم ضاحكا:

ـ يا لها من تصرفات حمقاء من هذه العجوز الشمطاء البلهاء!

***

ـ (كندا) ماذا تفعلين مع هذا الحيوان؟

نادى (تيمور) غاضبا منزعجا وهو يقف على باب القصر، ينظر لـ(إسلام) و(كندا) وهما مازالا يقفان في حديقة القصر معا. استدارت (كندا) وحدقت له بخوف وقد بدأت أطرافها ترتجف ولم تجب بأي كلمة، و(إسلام) يقف بجوارها تارة ينظر لها وتارة أخرى للأرض حاملا إناء اللبن بيده. تحرك (تيمور) في ممر صغير بين أشجار حديقة القصر واقترب نحوهما متمتما بكلمات تعلن عن غضبه إلى أن وصل، وبيديه قبض على ذراعيّ (كندا)، وراح يهز جسدها بقوة، وصاح مغتاظا:

ـ لماذا تقفين مع هذا الكلب الفلاح؟

سالت دموعها وسقطت على يديه، ثم ابتعد عنها ودنا من (إسلام) وتملك من كل قوته وصفعه صفعات متتالية، فسقط إناء اللبن من يديه أرضا وتحولت الأرض للون الأبيض، ثم سقط أرضا دون أن يتفوه بأية كلمة، وهو ينظر له بغضب وكره. وهنا دلفت (فوزية) و(سليمان) من بوابة القصر

الرئيسية يحملان بعض الأغراض للقصر، وقد رأى (سليمان) هذا المشهد، فاقترب نحوهم مُسرعا بعد أن رمى ما يحمله، وأوقف (إسلام) من الأرض، وقال غاضبا:

ـ لا تغضب يا أخي، سأخذ لك حقك والآن.

بعينين تحمل شر جَمٍّ، حدق له (تيمور) بغرور وتكبر، وراح يضحك ويقهقه بأعلى صوته لتسود ضحكاته الحديقة، وبغل وغطرسة تابع:

ـ وكيف ستأخذ حقه يا حيوان يا فلاح؟

قالها وهو يقترب من (سليمان) في محاولة أن يصفعه كما فعل مع أخيه، ولكن قبض (سليمان) على يده قبل أن تقع على وجهه ونظر له بكره وغل، وصاح غاضبا:

ـ منك، مثل ما ضربته، وأياك أن ترفع يدك عليه مرة أخرى، وإلا سأقطعها لك، أيها المغرور المتعجرف.

قالها بكل شجاعة من دون خوف من هيبة (تيمور بيه)، وظل قابضا على يده للحظات، فاقتربت (فوزية) وراحت تقبل يد (تيمور)، وقالت متلعثمة:

ـ أحب على يديك يا بيه، هو لا يدرك ما يفعله.

وخلصت يده من يد (سليمان) وبكل قوتها راحت تضرب

(سليمان) على صدره ضربات متتالية، وأردفت:

ـ الله يلعنك ويلعن اليوم الذي جئت فيه الدنيا هتودينا في داهية يا كلب.

بنظرة شر نظر له (تيمور) غضبان كالثور الهائج، وتابع:

ـ لازم تتربى من جديد لتتعلم الحديث مع أسيادك، سأخبر جدي بكل شيء وسيكون الجلد مصيرك يا فلاح.

شرعت (فوزية) تترجاه، و(إسلام) يقف صامتا، و(كندا) تحدق له غاضبة ودموعها تسيل، وهنا خرج (نُعمان باشا) من القصر، وصاح غاضبا:

ـ (تيمور) هذا يكفي.

نظر لجده غاضبا، ورد مغتاظا:

ـ ألم ترى ما فعله هذا الصعلوك وما قاله يا جدي، سيكون الجلد مصيره أمام أهل القرية جميعا، حتى يكون عبرة لكل من تسول له نفسه التطاول على أسياده.

اقترب (الباشا) أكثر، ووقف وجها لوجه مع (تيمور)، وأردف:

ـ أنا قُلت لك هذا يكفي، أدخل القصر أنت وأختك الآن.

ـ لكن يا جـ...

قاطعه (الباشا) بشيء من الحدة، وصاح:

ـ قُلت لك ادخل أنت وأختك القصر.

أومأ برأسه في إشارة للموافقة وتحرك نحو باب القصر و(كندا) تسير خلفه دون أن ينطق بأي كلمة مجددا. ودنا (الباشا) من (سليمان) وربّت على كتفه مُحدقا له بحب وحنان وترقرقت عينيه بالدموع دون أن يتفوه بأي كلمة، ثم حدق في عينيَ (فوزية) وراحت هي الأخرى تحدق له بصمت، تلك النظرات الغير مُسبقة والغير مفهومة وكأنهما يتبادلان الحديث بلغة وإشارات العيون، غادر (الباشا) المكان متجها للقصر، و(فوزية) تراقبه حتى دخل القصر، ثم اقتربت من (سليمان) وراحت تعنفه، وتابعت غاضبة:

ـ ألم ترجع عن كل هذه العصبية، كنت هتودينا كلنا في داهية لولا (الباشا)، الله يعمر بيته ويستره.

كل ذلك و(إسلام) ينظر لـ(سليمان) مُتعجبا من موقف (الباشا) معه، وراح (سليمان) يبادله نفس النظرات، ونظر (سليمان) لـأمه وقال:

ـ ما هذا الموقف الغريب لـ(الباشا) وكيف عاملني بكل هذا اللين والعطف؟! توقعت أن يجلدني كما قال (تيمور) وأن

الطرد خارج القصر والقرية سيكون مصيرنا للأبد.

حدقت له أمه مُرتبكة، وازدردت ريقها وقالت متذمرة:

ـ الحمد لله الموقف فات على خير، يا رب تتعلم تتحكم في أعصابك.

رمقها (إسلام) بنظرة شاردة وقال:

ـ إنه لتصرف غريب ومثير للدهشة من (الباشا) لم أتوقع أن يعامل (سليمان) هكذا بعد ما فعله لقد أوشك (سليمان) أن يلطم (تيمور) على وجهه.

بحدقتين متسعتين ونظرة مشتعلة حدقت له أمه وتابعت:

ـ اسكت أنت يا وجه المصائب، كله بسببك، غلطتي أني سمحت لك أن تأتي للقصر، أخرجوا من القصر ولا تأتوا هنا أبدا.

غادرا القصر بصمت، مازالا ينظران لبعضهما مدهوشان من موقف (الباشا). وهنا نظرت (فوزية) على مرمى بصرها، هناك من يقف على بوابة القصر الرئيسية، يتلصص ويختلس النظرات ويراقب كل ما حدث بصمت.

إنها (أم الشعور) تقف متكئة على عكازها، ترتدي زيها المعتاد للتسول، وعمامتها على رأسها تُخفي شعرها الأبيض

تماما، وظهر عليها علامات التعب والشيخوخة، اقتربت منها (فوزية)، ونظرت لها بغضب، كادت أن تحرقها بنظراتها المشتعلة واقتربت من أذنها وهمست بهدوء وكأنها تريد ألا يسمعها أحد:

ـ ماذا تفعلين هنا الآن يا ملعونة؟

بعينيها المخيفة نظرت لها غاضبة والغل يتملكها، ولم ترد بأي كلمة، واستدارت وراحت تتلكأ في مشيتها أمام القصر، وقالت متلعثمة بهدوء:

ـ مرة فاجرة ونجسة وملعونة.

ثم راحت تنادي:

ـ لله يا محسنين لله، حسنة قليلة تمنع بلاوي كتيرة.

حتى توارت من أمام (فوزية) ودلفت (فوزية) للقصر، مغمغمة بكلمات غير مفهومة، يبدو أنها تذكرت شيء ما!

دلف (الباشا) من الباب ناحية البهو، (تيمور) و(كندا) يقفان ينظران له بتعجب من تعامله مع (سليمان) بهذه الطريقة الغير متوقعة، ساد الصمت للحظات دون نظراتهم المُتبادلة لبعضهم البعض والتي تحمل كثيرا من الأسئلة، أخذ (تيمور) شهيقا طويلا وقال بعنف:

ـ ما الذي قمت به يا جدي، ولماذا لم تطرد هؤلاء الصعاليك من القصر؟! لا ليس من القصر فقط، ولكن من القرية كلها، بعدما رفع يده عليَّ.

أستدار (الباشا) وغمغم بهدوء دون أن ينطق، فكرر (تيمور) نفس الكلمات، وهنا أدار وجهه نحوه مرة أخرى وحدق له غاضبا وقال:

ـ كيف تتحدث معي هكذا وتعلي صوتك، أنسيت أني جدك؟! إياك أن ترفع صوتك عليَّ مرة أخرى، أتريد أن تحاسبني على تصرفاتي؟!

نظر له مندهشا، فتلك هي المرة الأول التي يعامله جده هكذا، طالما كان يعامله بحنية ودلال، وبصوت خافت أردف:

ـ لم اقصد أن أحاسبك يا جدي، لكني مندهش من تصرفك مع هذا الولد المختل!

أدار وجهه بعيدا عنه مرة أخرى، وراح ينظر من أحد نوافذ القصر، فوقعت عينيه على بناية (عبده) المجاورة للقصر وتابع:

ـ ابعد عن (سليمان) يا (تيمور) وهذا آخر إنذار لك، وهيا جهزوا حقائبكم كي يوصلكم السائق «الإسكندرية» قبل الليل.

صمت (تيمور) وتحرك نحو سلم القصر وراح يصعده بهدوء وبطء، تارة ينظر لجده والذي مازال يقف في البهو وتارة ينظر أمامه. كل هذا و(كندا) مازالت تقف صامته ولكنها أيضا تنظر لجدها بدهشة وتعجب، واقتربت من السلم وراحت تصعده.

وفي مساء هذا اليوم، وداخل بناية (عبده)، جلسوا جميعا يتناولون العشاء على الطبلية في الردهة المفترشة بحصيرة من البلاستيك، وقالت (فوزية) وهي تتناول طعامها، لقمة تلو الأخرى:

ـ الحمد لله أنهم سافروا، اتمني ألا يأتوا للقرية مرة أخرى.

نظر لها (إسلام) وراح قلبه يخفق في صدره بعد أن وضع اللقمة من يده على الطبلية أمامه، وبنبرة حزنيه قال:

ـ (كندا) سافرت يا أمي؟

أجابت باسمة وهي تأكل بنهم:

ـ غارت في داهية هي و(تيمور بيه).

ظهر الحزن على وجهه ورجع للخلف بعيدا عن الطبلية، وانزوى في ركن الردهة وصمت، فنظرت له أمه مندهشة وتابعت:

ـ لماذا لم تكمل طعامك يا حبيبي؟!

ـ الحمد لله يا أمي، أكلت كثيرا.

نظر له (سليمان) وغمغم باسما:

ـ يبدو أنه يحب (كندا).

وساد الصمت المكان دون صوت حركات أياديهم مع الأطباق، ثم نظر (سليمان) لـأمه وقال بترقب:

ـ هل أخبرتِ أبي بما حدث اليوم داخل القصر يا أمي؟

ـ بالطبع.

وهنا نظر له أبيه بغضب وهو مازال يتناول طعامه، وقال:

ـ لا يصح ما فعلته، وابعد عن (تيمور بيه) ولا تذهب أنت واخيك للقصر مرة أخرى.

نظر له (سليمان) وقد انتهى من طعامه وأسند ظهره على جِدَار الردهة بجانب (إسلام) وقال:

ـ كل ذلك ليس مهما الآن، كل ما يشغل بالي هو موقف (الباشا) لماذا لم يتخذ أي رد فعل تجاهنا رغم أني اوشكت على ضرب (تيمور بيه)، توقعت أننا سنُجلد جميعا ونطرد من القرية للأبد، قطعا هناك سر وراء موقفه، ما هذا السر؟!

توقف (عبده) عن طعامه وحدق لزوجته بصمت، وراحت هي الأخرى تحدق له بعد أن توقفت عن طعامها، ظلت نظراتهم الغير مفهومة للحظات، والتي ربما تعبر عن إخفائهما لسر ما، فكرر (سليمان) سؤاله مرة أخرى، مغتاظا أردف أبيه:

ـ ليس هناك أية أسرار، أكيد موقف (الباشا) متعلق بأننا لم نقصر في خدمتهم يوما ما.

غضب (سليمان)، وتابع بشيء من الحده:

ـ لا تقل خدمتهم مرة أخرى، نحن نعمل مقابل الأجر، لسنا خادمين لـأحد.

ـ كل هذا ليس مهم الآن يا بني، المهم ابعد عن (تيمور بيه).

نظرت (فوزية) لـ(سليمان) وقالت:

ـ حبيبي...

قاطعها (عبده) بسرعة، وصاح غاضبا:

ـ اخرسي يا امرأة، لا أريد سماع كلمة أخرى.

فصمتت وساد الصمت، و(إسلام) صامتا ينظر لهم منصتا جيدا لحديثهم بدهشة من تلك النظرات الغير مفهومة بين والديه.

مر أسبوع، (تيمور) و(كندا) في «الإسكندرية» يدرسان في المدرسة الأمريكية للغات، والحياة تسير في القرية هادئة، (إسلام) بين دراسته في المدرسة ومساعدة (سليمان) في أعمال الحقل، والديهما يعملان في القصر طوال النهار ويعودان منزلهما ليلا، وفي معظم الليالي يبيت (عبده) بالقصر، ليأتي يوم الخميس نهاية هذا الأسبوع، وعاد (تيمور) و(كندا) القصر في القرية مرة أخرى، وذات ليلة جلس (سليمان) بجانب (إسلام) على سريرهما، وهو يذاكر دروسه ونظر له، وقال:

ـ أتمنى أن تصبح دكتور أو مهندس يا (إسلام) ليعرف (تيمور) أننا لسنا بصعاليك.

تورد وجهه باسما وقال:

ـ دكتور أو مهندس مرة واحدة، أريد أن أحصل فقط على دبلوم.

ـ إن شاء الله تصبح دكتور ومن أكبر دكاترة مصر يا حبيبي، بس انت قول يا رب.

رد باسما وهو يغمره بحبه:

ـ يا رب.

وهنا تحرك (سليمان) من مكانه نحو نافذة الغرفة وفتحها ونظر للقصر بصمت، وراحت طراوة نسمات هواء الربيع ترطب وجهه وسرح وظهر شاردا، يبدو أنه يفكر في شيء ما، لاحظ (إسلام) ذلك وتحرك من مكانه ووقف بجانبه وحدق له، وقال:

ـ ماذا بك يا أخي؟! أراك شاردا بعض الشيء.

استدار نحوه واتسعت عينيه قليلا، وأخذ شهيقا طويلا وكأنه يشعر بالخنقة بصدره وقال:

ـ أشعر أني مخنوق وهناك شيء ما سيحدث.

ـ لن يحدث شيء يا حبيبي، نحن نعيش في هدوء رغم قسوة حياتنا.

أجفل وراح ينظر للقصر مرة أخرى، وأردف:

ـ أشعر بشيء ما سيحدث له علاقة بالقصر، رغم أن كل الناس تعشق هذا القصر وتراه جميلا إلا إني في كل مرة انظر له فيها اشعر بالخوف، ولا اعلم سبب هذا الشعور.

دنا منه (إسلام) وربّت على كتفه وقال:

ـ كلامك يبدو غريب هذه الليلة، أول مرة أسمع منك هذا الكلام، ولا أفهم منه شيئا!

اقترب منه (سليمان) وراح يحتضنه وضمه بين ذراعيه وانهمر في البكاء بصوت مرتفع، لتسقط دموعه علي كتفيً (إسلام)، والذي تعجب من هذا الموقف فتلك هي المرة الأولي التي يرى فيها (سليمان) يبكي، حيث أن شخصيته قوية لا يبكي البتة، ظل يبكي لدقائق في حضن أخيه، وكأنه طالما كان يبحث عن هذا الحضن ووجده أخيرا، ثم ابتعد عنه وكف عن البكاء، وبصوت متحشرج غلبه البكاء أردف:

ـ لا تقلق يا أخي، صرت بخير بعد البكاء في حضنك.

حدق له (إسلام) بتوجس، وقد ترقرقت عينيه بالدموع، وأردف:

ـ ماذا بك يا أخي، بالله طمني عليك، وقُل لي لماذا بكيت؟

ربّت علي كتفيه بيديه، وتابع باسما:

ـ لا تقلق يا حبيبي، صرت بخير، ولكن اوعدني أنك تظل تتذكرني دائما وتحبني كما أحبك.

اعترى الترقب واللهفة وجهه وتابع:

ـ بالطبع أحبك، أنت السند لي في هذه الدنيا، لأنك قوي ولا تخاف من أحد، لا أستطيع أن أنام، ولا اطمئن غير وانت بجانبي يا (سليمان).

دنا منه وحضنه مرة أخرى، ومازالت الدموع في عينيه وقال باسما:

ـ وأنا أيضا أحبك أكتر من نفسي يا (إسلام) ربنا يخلينا لبعض.

ـ يا رب يا حبيبي.

وهنا تحركا نحو سريرهما وخلدا (سليمان) للنوم، وظل (إسلام) قلقا طوال تلك الليلة، وغمغم بصمت:

ـ ما هذا الكلام الغريب الذي قاله (سليمان)، وماذا يقصد به؟!

وظل يحدق لـ(سليمان) وهو نائم بجانبه إلى أن سمع آذان الفجر، فنهض من فراشه وتوضأ وصلي الفجر وخلد للنوم بعد ذلك.

***

اقتربت الساعة من الواحدة بعد منتصف الليل، استيقظ (إسلام) في فراشه مفزوعا وشرع يصرخ بأعلى صوته، ليتسبب صراخه في دخول والديه، رغم أنهما كانا غارقان في سبات عميق بغرفتهما في الطابق الأرضي، وراح يصرخ بقوة وقال...

(٦)

انتصف الليل واشتدت برودة الطقس هذه الليلة الممطرة، وتساقطت قطرات المطر رويدا رويدا على المقابر مع الظلام الداكن، ساد الهدوء والسكون كأننا في العالم الآخر، نعم فالجميع نائمون في مقابرهم الآن، لا أحد يعلم ما بهم، نسمات الهواء تسببت في تصارع أوراق أشجار الجوافة بالحقول المجاورة للمقابر، لتصدر صوتا مُخيفا. ظهر (حامل المفاتيح) يجلس فوق النخلة، يلوح بالمفاتيح بيده، ونظر لـ«المقبرة الملعونة» وراح يضحك ويقهقه لتدوي ضحكاته سماء القرية بأكملها، وتسببت تلك الضحكات في خروج (أم الشعور) من غرفتها، وقفت على بابها وشعرها الأبيض يغطي وجهها وبيدها اليمنى شعلة النار الصغيرة المعتادة، تختلس النظرات من بين شعرها، وراحت تنظر له وتبعث شرارات نار من عينيها، والتي وصلت إليه أعلى النخلة، وهي تلوح بيدها اليسرى وكأنها ترسل له إشارات أن يكف عن تلك الضحكات الصاخبة، وصاحت:

ـ كف عن الضحك يا ملعون حتى لا تزعجهم الآن.

قهقه أكثر، وبصوت أجش تسبب في خوفها ودخولها غرفتها بسرعة وأغلقت بابها خلفها بقوة قال:

ـ ادخلي أيتها الفاجرة العاهرة الملعونة وإلا أحرقتك الآن.

***

داخل «المقبرة الملعونة» (إسلام) يقف خلف بابها الحديدي المُحكم الغلق، وقد باتت المقبرة مظلمة تماما بعد أن أطفأت شعلة النار، راح يطرق الباب بقوة، وصاح:

ـ بموت، بالله عليكم أخرجوني من هنا.

ظل يردد تلك الكلمات، عله يسمعه أحد ولكن هيهات هيهات، فهو الآن داخل مقبرة الموتى والمنعزلة تماما عن العالم الخارجي.

لحظة من فضلكم...

لقد توقعت ألا يسمعه أحد، ولكن هناك أحدهم وصل صوته له وتردد في أذنه وضحك وقهقه في السماء ساخرا من صراخاته. (حامل المفاتيح) سمعه وهو يجلس أعلى النخلة دون أن يقترب نحو المقبرة ليساعده وكأنه يستمتع بكل ما يحدث له، ولكن كيف سمع صوته رغم أن المقبرة منعزلة تماما عن العالم الخارجي، يا له من رجل غريب ومثير، لا أعرف من يكون وما دوره في القصة حتى الآن؟!

ظل (إسلام) يستنجد حتى تحشرج صوته وحُبس في

حلقة، وظهرت الجماجم تخرج من الأرض مرة أخرى في ظلمة المقبرة تسير ببطء في سراب نحوه، وسمع صوتا غريبا وغير مفهوم خلفه، لم يستطع أن يحدده حتى الآن!. استدار ونظر على مرمى بصره داخل المقبرة، في ضوء خافت ظهر الآن لا يعرف مصدره، رأى الجماجم تتحرك نحوه حتى لامست جسده، بتعرق زائد حدق لها وشعر بالقشعريرة وصمت للحظات، إلى أن شم رائحة نتنة سادت المقبرة ورأى نوعا من الدود لم يره من قبل، يبدو أنه دود المقابر، يخرج من التربة ويتحرك نحوه في هدوء ولكن تزداد الرائحة النتنة تدريجيا حتى كادت أن تخنقه مع قلة الأكسجين. اقتربت الجماجم والدود نحوه أكثر حتى التصقوا بجسده وغطت الجزء السفلي منه وهو صامت، يبدو أنه استسلم لما سوف يحدث له ولم يحرك ساكنا. وهنا ظهر شعاع نور من أقصى الجانب الشمالي للمقبرة مع صوت همهمات غير مفهومة، فحدق للنور وكأنه يستنجد به، ينصت جيدا لتلك الهمهمات التي تقترب منه دون ظهور أي شخص. وما هي إلا لحظات، وظهر شخص غريب، يبدو أنه فتى في سن الشباب، فارع الطول، قوي البنية وكأنه أحد لاعبي كمال الأجسام، عريض المنكبين، لا يرتدي أي شيء على جسده إلا سترة صغيرة من الجلد تغطي عورته بين فخذيه، أصلع تماما، يحمل بيده شعله صغيرة، يسير ببطء شديد نحوه، وفي التو واللحظة،

ابتعدت الجماجم والدود عن جسده، واختفت تلك الرائحة النتنة، ودنا هذا الفتى منه أكثر، وهو مازال يدفن رأسه في الأرض ووقف وجها لوجه معه، ورفع رأسه من الأرض وحدق في عينيه بحزن وترقرقت عينيه بالدموع دون أن يتفوه بأي كلمة، تارة ينظر للأرض وتارة يحدق في عينيّ (إسلام). ظل هكذا للحظات و(إسلام) ينظر له مندهشا، ولكن قد اطمئن الآن يبدو أنه يعرفه، فهناك ابتسامة قد رسمت على وجهه، وبصوت واهن مبحوح متحشرج قال:

ـ (سليمان)!

حدق له مُتعجبًا ولم يتفوه بأي كلمة البتة، بتعرق أكثر ولعثمة ملحوظة تابع (إسلام):

ـ أنت (سليمان)؟! أنك تشبهه تماما، نفس الملامح ونفس الوجه مع اختلاف الجسم والعضلات، انا متأكد أنه انت، وجئت الآن لتنقذني وتخرجني من هنا، طيلة عمرك في ظهري يا حبيبي، منذ طفولتنا، طالما كنت اطمئن وأنت معي ولا أشعر بالخوف أبدا، الحمد لله أنك جئت الآن لتخرجني يا (سليمان) كنت سأموت من الخنقة ونقص الهواء، والجماجم الغريبة التي تخرج من التربة والدود، أوشكوا أن ينهشوا لحم جسدي وحتى شعلة النار التي كانت معي انطفأت وحدها.

وبسبابته أشار لشعلة النار المطفأة على الأرض، وازدرد ريقه بصعوبة، وأردف:

ـ لقد اطمئن قلبي الآن، لأنك الوحيد الذي ستخرجني من هنا يا حبيبي، خاصة أن جسمك صار قويا.

كل ذلك والفتى مازال يحدق له مندهشا، وكأنه لا يفهم ما يقوله ولم يتفوه حتى الآن، نظر (إسلام) لباب المقبرة، وتابع:

ـ افتح الباب، وتعالَ نخرج معا، من المؤكد أن أبوانا يبحثان عنا في كل مكان ينتظران عودتنا.

بغير اكتراث حدق له، ورأى (إسلام) نظرة من خيبة الأمل في نظراته وكأنه يريد أن يخبره، أنه لن يستطع أنه يساعده، شعر (إسلام) بالخوف وبدأ قلبه يخفق بشدة وراح يتنفس بسرعة، وقال لاهثا:

ـ لا، أرجوك اخرجني من هنا، الحمد لله أنك ظهرت في الوقت المناسب، أرجوك لا تتركني وحدي يا حبيبي.

واقترب منه في محاولة أن يحضنه ويضمه بين ذراعيه كما كان يضمه (سليمان) مرات عديدة قبل ذلك ويشعره بالأمان، ولكن سرعان ما ابتعد عنه الفتى قبيل أن يلمس جسده ونظر له غاصبا منزعجًا، ابتعد (إسلام) سريعا عنه وركن ظهره علي باب المقبرة، وغمغم مرتجفا:

ـ لماذا يتصرف معي هكذا؟! يبدو أنه سيخذلني.

وهنا أعطاها الفتى الشعلة دون أن يلمس جسده، وراح يبتعد عنه ببطء، وهو مازال يحدق في عينيه بنظرات حزينة وعينيٍّ ممتلئة بالدموع، إلى أن وصل لمنتصف المسافة في المقبرة واستدار وأسرع من خطواته حتى وصل أقصى الجانب الشمالي ودلف في سرداب صغير وتوارى في الحال، دمدم (إسلام) صارخا بقوة، وبصوت مبحوح صاح:

ـ لا يا (سليمان) لا تتركني وحدي في هذا المكان المرعب، لا تخذلني يا حبيبي، أنتَ لم تخذلني من قبل، معقول تتخلى عني في هذا الموقف الصعب؟! وجثا على ركبتيه، يحمل شعلة النار الجديدة بيده، وراح ينشج بقوة.

***

ـ (سليمان) أين اختفيت يا أخي؟! لم أنسك ولم أنسى كل لحظة عشناها معا يا حبيبي، ارجع يا (سليمان)، وخذني في حضنك من جديد.

هكذا قال (إسلام) بعد أن استيقظ من نومه تلك الليلة بعد منتصف الليل، ودخل والديه عليه، واقتربت منه أمه وراحت تحتضنه بشدة باكية، وقالت:

ـ كفي يا (إسلام) مر أكثر من عشر سنوات على اختفاء أخيك وأنت لم تنسه أبدا ولم تنسى يوم اختفائه، وكل مرة تصرخ بالليل وتذكر نفس الكلام، لقد اختفى (سليمان) ومستحيل أن يعود مرة أخرى، ركز في دراستك، أنت في ثانوية عامة وتتمنى أن تحصل على درجات مرتفعة وتدخل كلية الطب كما كان يريد منك (سليمان) إذا كنت باقيا على ذكرياته، ذاكر جيدا وحقق له أمنيته وادخل كلية الطب.

بنبرة باكية حزينة قالت أمه تلك الكلمات، وهي مازالت تحتضنه بين ذراعيها، وهو متشبثا برقبتها كالطفل، وراح يبكي بشدة وقال:

ـ لم أستطع نسيانه يا أمي، وكيف وهو جزء مني، جزء من قلبي، كان نصفي الآخر المُتحرك على الأرض، وكيف أنساه ونحن لا نعرف أين اختفي حتى الآن؟! مات أم مازال حي يرزق أم هج وترك القرية، لا أريد إلا أن أعرف أين هو الآن؟ حتى لو كان ميتا.

ابتعدت عنه قليلا وحدقت له والدموع مازالت تتساقط من عينيها وأردفت:

ـ أنت تعلم جيدا أننا بحثنا عنه كثيرا وحتى (نُعمان باشا) وصى الحكومة ومركز الشرطة وبحثوا عنه في كل الأقسام والمستشفيات، ليس له أي آثر، لقد استعوضنا ربنا وحمدناه

أن عندنا طفل جميل مثلك، انسى مثلنا، نحاول ننسي، وركز في حياتك ومستقبلك يا حبيبي.

بعينين باكية رمقها، وبصوت مبحوح تابع:

ـ أنساه! هل تعتقدين أني من الممكن أن أنساه؟!

تابعت بهدوء، وهي تحاول أن تطمئنه:

ـ من المؤكد لن يستطيع أحد منا أن ينساه، لا أنا ولا أنت ولا أبيك، ولكن يجب أن نكمل الحياة من أجلك يا حبيبي، حتى لا تختفي أنت أيضا كما اختفى أخيك.

أومأ برأسه إيجابا زامًا شفتيه وابتعد عنها قليلا، وأخذ وضع القرفصاء، ودفن رأسه بين ركبتيه وصمت. كل هذا و(عبدهُ) مازال يقف بجوارهما يرتدي منامته، يحدق لهما بطرف عينيه ولم يجسر أن يتفوه بكلمه، تحركت (فوزية) بعيدا عن (إسلام) ونظرت لزوجها بخبث، وبصوت خافت أردفت:

ـ تعالَ نذهب لغرفتنا.

تحرك أمامها وراح يهبط السلم، وهي خلفه دون أن ينطق.

ظل (إسلام) مستيقظا في فراشه طوال هذه الليلة، يفكر في (سليمان) وكل ذكرياته معه مسترجعا بالزمن والدموع

تسيل من عينيه، إلى أن آذن الفجر فتوضأ وصلى، ثم استلقى على ظهره فوق سريره ينظر لسقف غرفته في محاولة أن يخلد للنوم. وفي الصباح، ذهبت (فوزية) للقصر كالعادة وذهب (عبده) للحقل بصحبة جاموسته، ومكث (إسلام) في غرفته، متأثرًا بكل ما حدث ليلة البارحة، متحسرا على أخيه والحزن يسيطر عليه، بجسده المائل للنحافة، وطوله الفارع نوعًا ما، راح ينظر من نافذة غرفته بصموت، هناك شخصا عند رؤيته يذهب بخياله للعالم الآخر نظرا لما يسيطر عليه من غبطة وسرور وكأنه يُحلق في السماء يحتضن الدنيا بذراعيه. ظل واقفا يحدق لهذه الفتاة في حديقة القصر، والتي ترتدي فستانا أبيضا به بعض الخطوط الحمراء، يتطاير حولها يظهرها كالفراشة تتراقص بين الزهور في فصل الربيع، شعرها متناثر خلفها حتى خصرها، يتطاير مع نسمات هواء الربيع في تلك الأوقات من العام، راحت تمرح في الحديقة بين أشجار الزينة والزهور من جميع الأنواع والألوان وهي تدندن، يبدو أنها تردد بعض الكلمات لإحدى أغنياتها المفضلة.

إنها (كندا) وهنا تورد وجهه بالابتسامة، وخرج من غرفته مسرعًا وهبط سلم منزله وراح يركض نحو القصر حتى وصله ودلف من بوابته واقترب منها، وهي مازالت تتراقص بين الزهور في الحديقة، ووقف أمامها باسما، وبهدوء

وخجل قال:

ـ وحشتيني يا (كندا).

بعينيها الساحرة حدقت له باسمة، وردت:

ـ I miss you too عُدت من «الإسكندرية» ليلة البارحة وكنت مشتاقة جدا لرؤيتك من آخر مرة رأيتك منذ بداية هذا الترم، وسألت طنط (فوزية) عنك، وقالت لي أنك لم تذهب للمدرسة اليوم.

بعينيه العسلي مع أشعة الشمس حدق في عينيها، كاد أن يحتضنها بنظراته وأردف باسما:

ـ وأنا أيضا اشتقت إليكِ كثيرا.

بنظرة حب وحنان رمقته، وراحت تدور حوله وفستانها يتطاير حولها في جميع الاتجاهات، وتابعت باسمة سعيدة:

ـ لا تقلق، سأقضي إجازة نصف العام في هذه القرية الجميلة:

ـ رائع يا (كندا).

ظلا يتبادلان الحديث والسعادة تغمرهما، إلى أن سمعا شخصا يقف في شرفة القصر المُطلة على الحديقة ينادي بأعلى صوته غاضبا...

(٧)

برائحة الزهور هبت نسمات هواء الربيع من حقول القرية، رائحة الليمون والجوافة، وتذكر كلما ذهب بعد صلاة العصر وجلس داخل الحقل، يتناول ثمرات الجوافة من على أفرعها الصغيرة، مُستمتعا بمذاقها الشهي، ويظل يمرح حتى يأتي الغروب، ويقف ناظرا للسماء، هذا المنظر الساحر والذي طالما يعبر عن بعض الألغاز المتعلقة بالغروب، والتي سنعيش ونموت ولن نكتشفها بعد، إلى أن يزحف الليل ويغطي سماء البلدة، وتتوارى الحقول في الظلام، يعود مرة أخرى لمنزله بعد رحلة من الصفاء النفسي لروحه، والتي لا تحدث إلا مع هذا المشهد الرائع بين الحقول.

في هذا الصباح، تذكر كل ذلك بسبب هذه الرائحة العطرة مع نسمات الهواء وهو يقف بجوارها يحدق في عينيها وكأنه في عالم آخر، لا أعلم أيّ سحر هذا الذي يذهب به بعيدا عن كل سخافات ومضايقات الحياة عندما ينظر في عينيها، وكأنها خُلقت من أجل أن تزيح عن صدره كل الهموم من آنٍ لآخر، يا الله! إنها فقط من تجعله ينسى العالم ويذهب لعالمٍ آخر، شاعرا بالغبطة والسرور.

ـ ماذا تفعلين عندك يا (كندا)؟!

أتى هذا الصوت بقوة وعنف من شرفة القصر، و(إسلام) مازال يقف بجوارها مستمتعًا بتلك اللحظات والتي طالما ينتظرها من شهور، التفتا ونظرا ناحية القصر، وهم مازالا يقفان في الحديقة، وبنبرة هادئة سيطر عليها الذعر، ردت (كندا) متمتمة:

ـ إنه (إسلام) تكلم معه لأني لم أره منذ فترة كبيرة.

بنبرة هادئة قال (إسلام) مقتضبا:

ـ كيف حالك يا (باشا)؟

لم يرد البتة، وبنبرة أكثر غضبا تابع:

ـ ادخلي القصر بسرعة يا (كندا).

أسرعت ودلفت لبهو القصر، لتجد (نُعمان باشا) ينتظرها، متكئا على عكازه، وقال مغتاظا:

ـ ألم أطلب منك ألا تقفِ مع هذا الولد مرة أخرى؟! يبدو أنك انتهزتِ الفرصة بسفر (تيمور) «لندن» ليكمل دراسته وتريدين أن تفعلي ما تشائين، دائما كنت أمنع (تيمور) عنكِ، لكن لن أسمح لكِ أن تتمادي في شيء مما يدور بخيالك.

حدقت له وهي تنصت جيدا حتى انتهي من حديثه، وقالت:

ـ خيالي! حضرتك فاهم الموضوع...

قاطعها بأعلى صوته، وتابع متذمرا بحدة:

ـ الكلام انتهى وأنا أحذرك، ابتعدي عن هذا الولد، واذهبي لغرفتك الآن.

غادرت المكان وراحت تصعد السلم متجهه لغرفتها، كل ذلك وهناك شخص يقف يراقب كل هذا بصمت، إنها (فوزية) راقبت (كندا) و(إسلام) في الحديقة ثم راقبت (الباشا) و(كندا) داخل القصر من خلف ستارة المطبخ دون أن تحرك ساكنا، وغمغمت يبدو أنها منزعجة من تصرفات ابنها.

خرج (إسلام) من القصر متجها لبنايته، وقد شعر بخيبة أمل وحسرة من تصرفات (الباشا) معه، ناظرًا للأرض يفكر في كل ما حدث حتى وصل ودلف للردهة، ووقعت عينيه على صورة معلقة على الحائط، فترقرقت عينيه بالدموع، وغمغم بحزن:

ـ وحشتني.

إنها صورته في العاشرة من عمره بجانب (سليمان)، والذي ظهر فيها باسما لينيرها، و(إسلام) حزينا لا أعرف لماذا ظهر حزينا رغم أنه كان مازال طفلا؟! وكأن الحزن قد رسم طريقه له منذ صغره!

يا الله، ماذا أقول؟! علَ الدنيا تضحك له بعد ذلك ويعيش حياة أفضل، حقا يبدو أنني أريد أن أثرثر دون جدوى وكأني أعلم الغيب وما سيحدث في هذه القصة، كم أنا شخص غريبٌ ومثيرا للسخرية.

مر هذا اليوم، و(كندا) بغرفتها وحدها، تلك الغرفة المثيرة للجدل بما فيها من تحف وأنتيكات، والتي أُحضرت جميعها من الخارج تبدو كغرفة الملكات، أو ربما غرفة من العالم الآخر لست أدري!. راحت تتجول بها بهدوء وتدور حول سريرها والذي يوجد في المنتصف، تحك سبابتها اليمني بشعرها بين الحين والأخرى، وقالت حائرة شاردة:

ـ ماذا يقصد جدي بالكلام الذي قاله لي اليوم؟! معقول يكون لاحظ المشاعر والأحاسيس الغريبة مني تجاه (إسلام) والتي لا أستطيع تفسيرها حتى الآن.

واقتربت من نافذة غرفتها وفتحتها، ورأت منظر الغروب يعم القرية، يبعث فيها الحزن مع اختفاء الشمس وزحف الظلام بهدوء، فأردفت:

ـ حقا إنه المشهد المناسب لحالتي الآن، وكأن الشمس تشاركني حزني والحالة الغريبة التي أشعر بها.

وظلت تنظر للسماء إلى أن صعدت الشمس لـأقصاها

وتوارت تماما وغطى الظلام القرية، ثم راحت تنظر في كل الاتجاهات إلى أن وقعت عينيها على بناية (إسلام) فحدقت وكأنها تبحث عن شيء ما، وبجسدها الرشيق وثبت قليلا لـأعلي في محاولة أن تشاهد البناية أكثر، وهنا ظهرت ابتسامتها الساحرة فجأة، رأت (إسلام) يقف في نافذة غرفته هو الآخر ينظر لها بصمتٍ وهدوء، ويراقبها دون أن تشعر، راحت تلوح له بيدها صامتة وراح هو الآخر يلوح لها بيده، سعيدا برؤيتها ولكن لم يتكلم أحد منهما بكلمة واحدة خوفا أن يراهما أحدٌ في القصر أو على الطريق بين القصر والبناية، ظلا هكذا ما يقرب من النصف ساعة، إلى أن دلفت (فوزية) على (كندا) غرفتها، وقالت:

ـ أتريدين أي شيء مني قبل أن أغادر القصر يا هانم؟

أغلقت النافذة سريعا وبصوت متوتر متلعثمة ردت:

ـ.No

غادرت (فوزية) وهبطت السلم، ووصلت لـ(نُعمان باشا) والذي يجلس على مقعدٍ في بهو القصر يشاهد التلفاز ويرتشف قهوته، وقالت وهي تنظر للأرض:

ـ أتريد أي شيء مني قبل أن اغادر القصر يا (باشا)؟

بنظرة غاضبة منزعجا رمقها وراح يرتشف قهوته وقال:

ـ ألم ينوي ابنك أن يبتعد عن (كندا) بعد؟ يبدو أن سفر (تيمور) جعله يقترب منها.

رفعت رأسها ونظرت له وقالت متمتمة:

ـ (إسلام) طيب يا (باشا) لا خوف منه، من كنتم تخافونه اختفى، لكن (إسلام) طيب وحضرتك تعلم هذا جيدا، اتركهم هو و(كندا هانم) يتقابلوا ويتكلموا، أنهما في نفس العمر، والهانم لا تعرف أحدًا هنا، اتركه يسلي وحدتها، حتى لا تنزعج وتغادر القرية دون رجعة.

وقف من مكانه، ودنا منها وحدق لها منزعجا، وبصوت مرتفع قليلا تابع:

ـ أسلوبكِ في الكلام لم يرحني هذه المرة يا (فوزية) يبدو أنكِ تهدديني بطريقة غير مباشرة، كيف تتكلمين معي بهذه الطريقة؟!

بابتسامة صفراء، وبغير اكتراث هزت رأسها وتابعت:

ـ أنا أهدد حضرتك يا (باشا)! لا عشت ولا كنت لـأهدد معاليك لكن حضرتك تعلم جيدا أني أكثر واحدة تعرف أسرارك وحافظت عليها وساعدتك في أشياء كثيرة قبل ذلك، لو الناس عرفته، لن تصبح (الباشا) بعد اليوم، لم أهدد

معاليك، فقط أذكرك بالحقيقة، ربما تكون نسيتها مع مرور الوقت والسنوات.

اقترب منها بسرعة وقبض على ذراعها الأيمن بقوة، فتألمت بشدة وهمس في أذنها:

ـ اخرجي من القصر الآن، وإلا قسما بالله أُحضر البندقية وأقتلكِ.

حدقت له باسمة ساخرة بعد أن ترك ذراعها وأردفت:

ـ حاضر يا (باشا) أنت تؤمر، وكلام معاليك أوامر.

***

اقتربت الساعة على الواحدة بعد منتصف الليل، وقد عم الهدوء والسكون القرية بأكملها والقصر خاصة، ظهر القمر على استحياء، لظلام داكن وعتمة الظلام غطت القصر حتى أنه توارى خلف أشجار الزينة، والتي ظهرت تُعانق السماء حوله في الحديقة و(إسلام) يذاكر دروسه بغرفته ليلا والصمت والهدوء سيد المشهد، راح يحرك يده اليسرى علي لحيته القصيرة وشاربه القصير نوعًا ما ونظر للنافذة باسما، وهو يجلس وسط سريره، وقال:

ـ (كندا).

ثم نهض من مكانه واقترب للنافذة وفتحها، يبدو أنه يريد أن يراها الآن، وبعينيه التي ظهرت باللون البُني ليلا، ظل ينظر من النافذة لنافذة غرفتها المُغلقة، وهناك نور خافت خلف ستارتها، ما يقرب من النصف ساعة، إلى أن رأى في نهاية الحديقة بالقرب من الإسطبل، ما جعله يثب لأعلى عدة مرات ليتحقق منه، إنها (أم الشعور) تدور حول الإسطبل وشعرها الابيض يتطاير خلفها مع هواء الليل، وشعلة صغيرة من النار بيدها, تنير لها المكان في العتمة، ثم جلست على صخرة كبيرة بجانب جِدَاره من الخارج وركنت ظهرها للخلف، ورفعت رأسها للسماء وانهمرت في البكاء بشدة حتى أنه سمع بكائها ونحيبها وهي تردد كلمات لم يفهمها البتة ظل ينظر لها مندهشًا وغمغم:

ـ (أم الشعور)؟! إنها حقا ولكن لماذا دخلت القصر الآن وكيف دخلت وهو مُغلق تماما، ولماذا تبكي هكذا؟!

نظر لبوابة القصر وتأكد أنها مُحكمة الغلق من الداخل، زادت حيرته وراح يفكر شاردا لما يراه ولكنه لم يجد أي تفسير لكل تلك الأسئلة أخذه الفضول وظل واقفا في النافذة لا يحرك ساكنا، ينظر لها وهي مازالت تبكي بشدة وبحرقة لدقائق حتى تحركت من مكانها فوق الصخرة وراحت تزيحها من على الأرض وكأنها تبحث عن شيء ما

تحتها ومازالت تبكي، ولكن لم تستطع أن تحركها من مكانها لثقلها، وهنا راحت تدقُ الأرض بقدميها وتتفوه بكلمات غير مفهومة، ثم نظرت للسماء وصرخت صرخة قوية كاد أن يسمعها جميع سكان أهل القرية، وضع (إسلام) كفيه على أذنه حتى لا يفقد سمعه من قوة هذه الصرخة، مازال ينظر لها مندهشا، ثم كفت عن البكاء وراحت تنظر حولها في كل الاتجاهات وكأنها تنتظر شخصا ما سيظهر.

يا للهول! هناك شخصٌ ظهر قادمًا من خلف الإسطبل يحمل شعلة صغيرة من النار بيده، يشق الأرض بخطواته ناحية (أم الشعور) ظل (إسلام) يحدق له مُتعجبا، حتى تحقق من صفاته وملامحه، فتنفس الصعداء وغمغم:

ـ (سليمان)؟!

حقا إنه هذا الفتى الذي ظهر في «المقبرة الملعونة» دنا لـ(أم الشعور) في صمت صُدم (إسلام) كاد أن يتبول على نفسه وتابع:

ـ معقول يكون (سليمان)!.

وصاح يُنادي:

ـ (سليمان).

ظل ينادي دون أن يلتفت له أحدا منهما، وهنا أغلق النافذة وخرج من غرفته ومن بنايته سريعا، وراح يركض متجها للقصر، وصله ووقف أمامه ينظر لبوابته، وغمغم:

ـ كيف سأدخل الآن؟! البوابة مُغلقة من الداخل، وأيضا السور مرتفع لا أستطيعُ أن أقفزه.

وهنا نظر للبوابة، فوجدها تُفتح وحدها من الداخل ببطء، مع صريرها المختلط بصوت الهواء، تقدم نحوها ودلف منها بعد أن فُتحت ما يقرب من النصف متر وكأنها فُتحت مناسبة لحجم جسده فقط، نظر حوله خلف البوابة ليرى من فتح له، ولكنه لم يجد أحدا البتة، شعر بالخوف واقشعر جسده وتصبب عرقا وانتصب شعر رأسه، وقال:

ـ من الذي فتح البوابة، وأين اختفى؟!

لم يفكر كثيرا وتذكر سبب مجيئه للقصر الآن، نظر ناحية الإسطبل ليجد (أم الشعور) تجلس على هذه الصخرة، وهذا الفتي يقف أمامها يحدثها بكلمات غير مفهومة وكلا منهما يحمل شعلته الصغيرة بيده، أسرع وراح يقترب نحوهما والخوف يسيطر عليه، إلى أن وصل ووقف على بعد أمتار منهما وحدق للفتى والذي مازال يتحدث مع (أم الشعور) بتلك الكلمات، وقال متلعثما:

ـ (سليمان).

بابتسامة ساخرة حدقت له (أم الشعور) ولم تتفوه بأية كلمة، ولكن الفتى لم ينظر له البتة ولم يرد بأي كلمة واستمر يتحدث مع (أم الشعور) بتلك الطريقة الغريبة، ودنا من (أم الشعور) وقبل يدها وتحرك ببطء من مكانه ناحية الإسطبل متجها للمكان الذي أتى منه، غضب (إسلام) وراح ينادي عليه وسار خلفه، ولكن لم يلتفت له ولم يرد مطلقا. وفي تلك اللحظات، ضحكت (أم الشعور) وراحت تقهقه عاليا ناظرة للسماء، تلك الضحكات التي كادت أن تقفد (إسلام) سمعه من شدتها وقوتها، فاستدار نحوها مُتعجبا وقال:

ـ لماذا تضحكين أيتها المجنونة؟!

لم ترد، ثم التفت ونظر للفتى، ولكن لم يجده أمامه، راح يدور حول الإسطبل وينادي عليه (سليمان) ولكن لم يعثر عليه أبدا، حتى وصل الصخرة مرة أخرى ونظر لها، فلم يجد (أم الشعور) أيضا. لقد توارى الفتى و(أم الشعور).

مرت هذه الليلة، وفي الصباح الباكر، استيقظت (كندا) من نومها، وتحركت من فراشها، ترتدي قميص نومها والذي يظهر جسدها الأبيض وفتحت النافذة، تنظر للحديقة، تستنشق هواء الريف النقي، رافعة رأسها لـأعلى وكأنها تريد المزيد من هذا الهواء، شعرها يتطاير خلفها بسبب نسمات الهواء، والتي

راحت تغازل وجنتيها الحمراوين. ظلت تتجول بنظراتها في كل اتجاهات الحديقة، إلى أن صاحت بأعلى صوتها...

(٨)

السماء صافية تلك الليلة، القمر ظهر خلف السحب بعد تلك العاصفة العاتية الممطرة، يعكس نوره فوق «المقبرة الملعونة» وكأنه يريد أن يحرر من بداخلها الآن، أو ينيرها له وهو مازال وحده يواجه كل تلك الأهوال والرعب الذي كاد أن يذهب به للعالم الآخر.

(إسلام) يجلس أرضا يركن ظهره داخل المقبرة بعد ظهور واختفاء هذا الفتى الغريب، هدأت المقبرة تماما وراح في غفوة من النوم وهو مازال يقبض بيده على هذه الشعلة الصغيرة، والتي أعطاها له هذا الفتى، ظل في غفوته وكأنه يريد أن يستريح بذهنه من كل ما حدث له مؤخرًا إلى أن فاق مفزوعًا على صوت همهمات قادمة من أقصى نهاية المقبرة، نظر حوله في كل الاتجاهات ليحدد مصدرها والذي راح يقترب منه ببطء، الفتاة ظهرت مرة أخرى تقترب منه، تدفن رأسها في الأرض بنفس الأوصاف السابقة، نظر لها بصمت وكأنه قد اطمئن بظهورها هذه المرة ولم يتفوه، اقتربت نحوه وجلست بجانبه دون أن تنظر له تلك المرة كما فعلت في المرة السابقة، وراحت تنظر على مرمى بصرها في نهاية المقبرة، وأمسكت أطراف شعرها وأدخلته في فمها وبدأت تمضغه في هدوء وصمت، حدق لها مندهشا وقال:

ـ (كندا)! لماذا تظهرين هكذا ولماذا ترتدين هذه الملابس القذرة المقطعة، وما هذا الدم الذي يلطخ جسدكِ؟!

ضحكت عاليا، وترددت ضحكاتها داخل المقبرة بصدى الصوت ولم تجب البتة، تابع مغتاظا:

ـ الحمد لله إنك رجعتِ يا (كندا) «كنت سأموت من غيركِ يا حبيبتي، هيا نخرج من هنا ونرجع القصر وتستحمي وتنظفي جسدكِ وترتدي ملابسك الجميلة التي تجعلك مثل الملكات، أرجوكِ افتح الباب وتعالِ نخرج من هنا، أنا لا أعرف كيف ولماذا جئت إلى هنا، ولماذا جئتِ أنتِ أيضا إلى هنا؟! هيا نخرج بسرعة قبل ظهور الدود والجماجم مرة أخرى».

وراح يقرب يده اليمني من يدها في محاولة أن يلمسها ولكنها ابتعدت سريعا قبل أن يلمسها ووثبت من مكانها، ولفت ذراعيها حول جسدها ثم اسدلت شعرها على وجهها، وصرخت صرخة قوية كادت أن تهدم المقبرة، وركضت بسرعة إلى أقصى شمال المقبرة ودلفت في أحد سراديبها الصغيرة وصرختها مازالت تدوي في المقبرة، لم يتوارى صوتها بعد، نظر لها بهدوء وهي تفعل كل هذه التصرفات الغريبة دون أن تنطق بأي كلمة، وأردف باسما بغير اكترات، يبدو أنه تعود على الجلوس داخل هذه المقبرة:

ـ لقد اختفت من جديد، كنت أعلم هذا.

***

أشجار كثيفة تُعانق السماء متشابكة من أعلى تحجب ضوء القمر عن الأرض في تلك اللحظات من الليل وكأننا في غابات الأمازون، وهناك صوت مخيف لا أستطيع أن أحدد مصدره مع صوت ذئاب تعوي من بعيد، ليعم عوائها المكان للحظات تلو الأخرى، و(إسلام) يركض مُسرعًا، وكأن وحشًا من وحوش الغابةِ يلحقه، إلى أن سقط في بئرٍ عميق أمامه لم يره، ظل يسقط بطريقة دائرية تشبه دوامة البحر إلى أن أفاق على نبرة صوتها الحنون:

ـ (إسلام).

صاحت (كندا) عدة مرات متتالية، وهي تقف في نافذة غرفتها في القصر، وسرعان ما خرجت منها وهبطت سلم القصر، متجهةً للحديقة لتجده مُستلقي أرضًا على جنبه، ببشرتهِ المائلة للقمحي نظر لها في صدمةٍ، وبصوتٍ متحشرج قال:

ـ كيف جئث إلى هنا؟!

بابتسامة ساحرة حدقت لوجهه الشاحب وعينيه البارزتين وكأنه مريض، وردت:

ـ أنا من أريد أن أعرف، ماذا تفعل هنا الآن، وكيف دخلت القصر باكرًا وبوابته مازالت مغلقة؟!

اعتدل وجلس ثم نظر لها بصمتٍ دون أن يرد، لتكرر نفس الأسئلة، راح ينظر للمكان الذي رأى به (أم الشعور) ليلة البارحة، ووقعت عينيه على هذه الصخرة التي جلست عليها، ونظر للبوابة فوجدها مُغلقةً من الداخل، أجفل وحدق لها، وقال شاردًا تائهًا:

ـ لا أعرف كيف جئت إلى هنا!

ظلا يتبادلان الحديث وهم مازالا يجلسان أرضًا على حشائش الحديقة، و(كندا) مدهوشة من أمره، إلى أن وقعت نظراتهما على قدم تقف بجوارهما، فرفعا رأسهما.

ـ ألم ترجع عما تفعله، ماذا تريد أن تفعل بنا؟!

بنظرة تائهة حدق لها، وبصوتٍ واهن أردف:

ـ وماذا فعلت يا أمي؟!

بنبرة عالية عنيفة ردت:

ـ لماذا أتيت إلى هنا الآن؟

صمت للحظات تائها، ثم نظر لهما وقال مقتضبا:

ـ يجب أن أغادر الآن كي أذهب للمدرسة.

حدقت (كندا) لـ(فوزية) وقالت:

ـ اتركيه يذهب الآن يا طنط، وإن شاء الله نتكلم وقت لاحق.

أومأت إيجابًا وبحدقتين مُتقدتين شرارًا نظرت له غاضبة، وتابعت بشيءٍ من الحدة:

ـ اعلم جيدا أن نهايتنا ستكون على يديك، وطالما أخبرت أبيك بهذا.

حدق لها بوجوم ولم يتفوه بأية كلمة مجددا، وغادر القصر بهدوء، و(كندا) وأمه يراقبانه بصمت حتى خرج من البوابة.

***

«مدرسة شاكر فرج الثانوية في أبو حمص» داخل الفصل الدراسي جلس (إسلام) بجوار صديقه (أحمد) فارع الطول ونحيل الجسد ذو الشعر الأسود الطويل، في المقعد الأخير، وراح معلم اللغة العربية، متناسق الطول والوزن، أشعث اللحية وشاربه الكث، يشرح الدرس والكل ينصت له جيدا، و(إسلام) شاردا، مازال يفكر في كل ما حدث معه ليلة البارحة دون أن يكترث بما يقوله المعلم، لاحظ المعلم أنه

شاردًا، بعينين سمراوان حدق له، وقال:

ـ قف يا (إسلام) ماذا كنت أقول الآن؟!

نظر (إسلام) لـ(أحمد) والذي راح يبتسم كاتمًا ضحكاته، وغمغم:

ـ جالك الموت يا تارك الصلاة.

ثم بوجهٍ ممتقعٍ نظر للمعلم وقال أسفًا:

ـ أنا آسف، لم أركز فيما كنت تشرحه يا أستاذ.

دنا منه المعلم، وربّت على كتفه وأردف:

ـ لقد شعرت بشرودك اليوم وعدم تركيزك، وأنت من الطلاب المجتهدين، لذا حاول التركيز في الشرح والمذاكرة لأن الامتحانات تقترب، وأنتَ تتمنى أن تلتحق بكلية الطب مثل ما قُلت لي قبل ذلك.

بنظرةٍ تحمل كثيرًا من الخجل والأسف حدق له وتابع:

ـ حاضر يا أستاذ، أوعد حضرتك أركز في كل كلمة بعد الآن.

ـ اتفضل اجلس يا (إسلام).

كل ذلك و(أحمد) مازال يبتسم، إلى أن رآه المعلم وقال:

ـ كف عن الضحك يا (أحمد) وركز أنت أيضا في الشرح.

ـ حاضر يا أستاذ.

وهنا نظر (إسلام) لـ(أحمد) غاضبًا، مُنزعجًا من ضحكاته المكتومة.

انتهى اليوم الدراسي، وخرج (إسلام) بصحبة (أحمد) من بوابة المدرسة، وراحا يسيران على الطريق المجاور لترعة المحمودية أمام المدرسة في اتجاه «مدينة أبو حمص» ليكملا بقية اليوم في الدروس الخصوصية، بوجهه المائل للبياض، نظر له (أحمد) ضاحكًا وراح يقهقه عاليًا، وقال:

ـ ماذا كان يشغلك اليوم أثناء الشرح، حب جديد أم ماذا؟!

اقترب منه وضربه على كتفه ضربات متتالية، وقال غاضبا:

ـ يبدو أنك تظن أن الجميع مثلك يلهث وراء البنات يا فاشل.

قهقه (أحمد) مرة أخرى وقال:

ـ البنات هم أجمل شيء في الحياة يا صديقي، يكفي أنهم يخرجونا من كبت المذاكرة.

بنظرة غاضبة رمقه (إسلام) وأردف:

ـ ولد فاشل.

دنا منه (أحمد) وحضنه ورفعه لـأعلى حيث أن جسده أقوى من جسد (إسلام) وراح يدور به في حركةٍ دائرية وهو مازال يضحك وتابع:

ـ أنا ممكن أرميك في ترعة المحمودية حالا وتغرق وتموت، ولكن لن أفعل هذا لأنك حبيبي.

ضحك (إسلام) وقال:

ـ نزلني يا مجنون.

أنزله أرضا، ونظر له (إسلام) نظرة تحمل كثيرًا من الحب والأخوة، وتابع:

ـ وأنت أيضا حبيبي والله يا (أحمد)، أنت الوحيد الذي قبل أن يكون صديقي، رغم بعد كل الطلاب عني وقالوا، أني ولد خنيق وانطوائي ودائما صامت ومع نفسي.

بادله (أحمد) بنفس نظرة الحب والأخوة وأردف باسما:

ـ لا تهتم بكلام أحد، وربنا أنت أفضل شخص قابلته في حياتي، ألم تكتفي بي؟

ـ بالطبع، أنت حبيبي يا (أحمد).

ظلا يتبادلان الحديث، إلى أن وصلا أمام بوابة «مدرسة أبو حمص الثانوية للبنات» راح أحمد ينظر لجميع البنات التي تخرج من البوابة الآن إلى أن وقعت عينيه على فتاة نحيلة الجسد، ممشوقة القوام، فارعة الطول، ترتدي زي المدرسة ذا اللون الكحلي ولكنه ضيق عليها، يظهر معالم جسدها جيدا، حدق لها بتمعن وغمز، وقال باسما:

ـ فتاة جميلة.

نظر (إسلام) لجسدها، ثم حدق في وجهها ونظر له، وبصوت خافت قال باسما:

ـ ليست جميلة مطلقا.

ضحك (أحمد) بصوت مرتفع، والذي تسبب أن تنظر الفتاة لهما، وقال:

ـ لا أهتم بالوجه ولكن أهتم بأشياء أخرى.

ضربه (إسلام) على كتفه مرة أخرى، وتابع:

ـ أسرع كي نذهب لدرس الإنجليزي يا فاشل.

راح (أحمد) ينظر للفتاة باسما، وقال:

ـ أريد أن أحصل على رقم هاتفها المحمول أولًا.

نظرت له غاضبة، يبدو أنها سمعت كلماته وغادرت المكان مسرعة دون أن تلتفت خلفها.

قهقه (إسلام) عاليًا، وتابع:

ـ أحلى كسفة، تستاهل لأنك متطفل.

قهقه (أحمد) ورد:

ـ سنقابل في طريقنا فتاة غيرها.

***

هذا الوقت بعد العصر مع بداية الربيع في القرية، جلس (إسلام) بين الحقول تحت شجرة التوت بجانب حقول الجوافة والليمون، وراح يذاكر دروسه بهدوء، طالما كان يعشق أن يذاكر كل يوم في هذا التوقيت بين الحقول، يستمتع بهواء الريف النقي وهذه الطبيعة الساحرة، ظل يذاكر حتى راحت الشمس تعلو أكثر وأكثر في السماء وتحتضر بدخول الغروب، ووقعت عينيه على شخص يأتي من بعيد فوق فرس، يشق الطريق الصغير بين الحقول، راح يحدق باكترات حتى رآه جيدا، فتورد وجهه فرحا، وغمغم:

ـ (كندا).

اقتربت ووقفت أمامه بفرستها، وهي مازالت تجلس

أعلاها، وحدقت له باسمة، تلك الابتسامة الساحرة والتي دوما تذهبه لعالمٍ آخر، وبنبرةٍ حانيةٍ قالت:

ـ (إسلام).

بنبرة هادئة رد وهو مازال يجلس أرضا وكتابه بيده يحدق بتمعن في عينيها وكأنه نسي نفسه:

ـ معقول (كندا) تقف أمامي الآن!

ـ طبعا أنا (كندا).

نهض من مكانه وراح يدور حول فرستها، وأردف باسما:

ـ وكيف عرفتِ مكاني الآن؟!

ـ يبدو أنك نسيت عندما كنا أطفال، كنتُ أهرب من القصر لهنا كي ألعب معك.

ـ كانت أجمل أيام يا (كندا).

وتنهد بقوةٍ وهو ينظر على مرمى بصره بين الحقول، وتابع:

ـ ليتنا مكثنا أطفالا.

ثم استدار نحوها، وأكمل:

ـ أنا سعيد جدًا برؤيتك الآن.

وهنا هبطت من أعلى فرستها، واقتربت منه وهي مازالت تحدق له، وكأنها طالما كانت تنتظر هذا اللقاء، وأردفت باسمة:

ـ جئت الآن لرؤيتك قبل عودتي لـ «الإسكندرية» لأن الترم الثاني بدأ أمس، أريد أن أركز وأذاكر جيدا كي ألتحق بكلية الطب معك.

اعترى السرور وجهه وقال مندهشًا:

ـ ومن أين عرفتِ أني سألتحق بكلية الطب؟!

اقتربت منه وربّتت على يديه بيديها، فشعر بقشعريرة تتملك جسده من مسكة يديها، لكنه استجاب لها ودنا منها أكثر وأكثر وتابعت بهدوء:

ـ أنا متأكدة، وطب «الإسكندرية» إن شاء الله، وأنا أيضًا سأكون معك في نفس الكلية، كي أبقى بجوارك دائما، لم يفرق معي أية كلية، ولكن سأدخل الطب لـأكون معك معظم الوقت.

شعر وكأنه يحلق في السماء، ورد باسما:

ـ ربنا يخليكِ لي ودائما نكون مع بعض.

ظلا يتبادلان الحديث إلى أن صعدت الشمس لـأقصى

السماء، وبات الغروب يرسم تلك الأشعة الساحرة لتغطي القرية والحقول، ونظرت (كندا) لفرستها، وقالت باسمة:

ـ ألم تتشجع بعد وتوافق أن أعلمك ركوب الخيل؟!

ضحك خجلا ونظر للفرسة ورد:

ـ أتمنى أتعلم ركوب الخيل، وأركب فرستك وأنتِ تركبي خلفي، لكن خائف الفرسة توقعني وتكسر رقبتي.

ـ جرب معها بهدوء، ومع الوقت ستتعود عليك وتركبها بسهولة، وقتها ستشعر أنك في عالم آخر، وأنها صارت ملكك وحدك.

وهنا راح يحدق في عينيها، ودنا منها وضمها لصدره ولف ذراعيه حولها، صارت في حضنه وتشبثت برقبته وعانقته بقوة، وتطارحا الحب حتى أفاقا على صوتٍ أجش قوي غاضب...

(٩)

مازالت الحياة تثبت لنا يومًا تلو الآخر، إنها ثمَّة غريبة ومثيرة، طالما نتمنى أشياء ولكن لا نجدها، قد يبدو ذلك عاديا، نعيش في هذه الحياة الدنيا، وهي حقا دنيا دنيئة، ليس لها أمان، ولكن ماذا لو راحت تصفعنا بقوة، وكانت تلك الصفعات من أقرب الناس إلينا، هل سنتحمل ذلك أم أننا سننكسر وتتغير نظرتنا للحياة البتة؟! فقدان الحب، والحنان، والدفء والاحتواء من أناس طالما انتظرنا هذا منهم سيعود علينا سلبا بطريقة أو بأخرى.

ـ ماذا تفعل يا كلب؟!

صاح (عبده) غاضبًا لابنه و(كندا) بين أحضانه، وقد توارت الشمس تمامًا وبدأ الليل يزحف رويدا رويدا عليهما بين الحقول، ابتعد (إسلام) سريعا عن حضنها وارتعش مرتجفا واصفر لون وجهه ونظر للأرض في خجل وصمت، دنا منه أبيه وتملك من كل قوته وراح يصفعه على وجهه صفعات متتالية، فسقط أرضا على جنبه، وأردف أبيه بأعلى صوته، كاد أن يسمعه جميع المارة في الحقول الآن:

ـ ماذا تريد أن تفعل بنا، ألم تتعلم مما حصل قبل ذلك؟! كل مصيبة أنت سببها، ولم تتعظ أو ترجع عما برأسك.

نظر لـأبيه مندهشا، مازال مُستلقي أرضا، وراح يفكر في كلماته، وترقرقت عينيه بالدموع، وحدق لـ(كندا)، لأنه لم يكن يريد أن يصفعه أبيه هكذا أمامها، ثم نظر للأرض وصمت، اقترب (عبده) من (كندا) ووقف بجانبها وهو ينظر أرضًا دون أن يجسر النظر في عينيها، وقال متمتمًا مرتجفًا:

ـ أرجوكِ يا هانم، ابعدِ عنه الله يسترك دنيا وآخرة، لسنا من مستواكم، وكفى الذي حصل من قبل.

بنظرة شاردة رمق (إسلام) أبيه، بعد أن نهض من الأرض واقترب منه وقال بصوت خافت:

ـ ماذا حصل يا أبي؟!

لم يجب البتة، واستدار وراح ينظر على مرمى بصره بين الحقول.

اقتربت نحوه (كندا) وبنبرةٍ حانية قالت:

ـ ماذا حصل يا عمي؟!

فلم يجب أيضًا، وظل صامتا للحظات، ثم تابع:

ـ لم يحصل شيئا، هيا نذهب للقصر قبل أن يلاحظ (الباشا) غيابك يا هانم، أو قبل أن يراكِ أحد مع هذا الكلب ويخبره، وتبقى مصيبة كبيرة.

حدقت (كندا) لـ(إسلام) مدهوشة، نظرات تحمل كثيرا من الأسئلة وراح هو الآخر يبادلها بنفس النظرات وكأنهما قد أدركا الآن أن (عبده) يعرف سرًا ما ويخفيه، وامتطت فرستها وسارت بين الحقول و(عبده) يسير بجوارها صامتا، و(إسلام) يراقبهما بعد أن أمسك كتابه بيده، وشرع يفكر في كلمات أبيه، وغمغم:

ـ ماذا يقصد أبي بكل هذا الكلام الغريب والغير مفهوم؟!

تواريا من أمامه، وهنا غادر المكان متجها لبنايته، وصلت (كندا) القصر وقد دخل الليل، ودلفت للبهو بعد أن أخذ (عبده) الفرسة ليدخلها الإسطبل، جدها يجلس على مقعدٍ يرتشف قهوة المساء كالمعتاد، اقتربت منه مسرعة وقبلته من رأسه، وقالت باسمة:

ـ I miss you so much.

نظر لها مدهوشا، بعد أن راحت تتراقص حوله كالفراشة في بستانها، وتناول رشفة جديدة من قهوته، واستدارت له وبدأت تلف ذراعيها حول جسدها، ورفعت رأسها لـأعلي وأغمضت عينيها، وأخذت شهيقا طويلا ثم أخرجته زفيرا ببطء، وأردفت:

ـ بصراحة أنا أشعر أني سعيدة جدا يا جدي، أشعرُ أن

العالم كله سعيد ويرقص حولي.

صمت للحظات، وهو يفكر في تلك الحالة التي تسيطر عليها، ثم تابع:

ـ ومن السبب في هذه الحالة من السعادة والسرور؟ يبدو أنكِ رأيتِ شخصًا تسبب في ذلك؟!

ارتبكت قليلا وتغيرت ملامح وجهها، وتابعت مسرعة بلهفة بعد أن توقفت عن الرقص وتجمدت مكانها:

ـ لم أرى أحدا، أعتقد أن السبب هو جو الريف، حضرتك تعلم جيدا كم أعشق جو القرية خاصة وقت الغروب.

ـ ربنا يفرحك ويسعدك دائمًا.

وصمت هنيهةً، وراح يكمل قهوته، ثم حدق لها بعد أن جلست على مقعدٍ بجانبه، وتابع:

ـ ستعيشين في القصر في «كفر عبده» بعد الانتهاء من هذه السنة الدراسية.

ارتجفت أطرافها وراحت تتنفس بسرعة، وبحدقتين متسعتين نظرت له، يبدو أنها شعرت بالخوف عندما ذكر اسم القصر في «الإسكندرية»، وتابعت متلعثمة:

ـ أرجوك يا جدي، لا أريد أن أعيش في هذا القصر، أريد أن

أسكن مع أصدقائي في السكن الجامعي.

حدق لها مدهوشا، ورد باسما:

ـ لا يا صغيرتي، لقد تركتكِ تسكني في سكن المدرسة مع أصدقائك حتى تنتهي من الثانوية العامة، ولكن شهور وستنتقلين للجامعة، وستعيشين في قصر جدك، أيصح أن يكون لدينا قصر عظيم ورائع هكذا، وأنتِ تتركيه وتسكني في السكن الجامعي؟!

رمقته بترقب، مازال الخوف يسيطر على ملامحها، وقالت بتوجس:

ـ لم أحب قصر «الإسكندرية» مطلقا، دائما أشعر بخوفٍ في كل مرة أدخله، إحساس غريب لا أفهمه حتى الآن، وكأن روحي تُسحب مني.

راح يقهقه عاليا، وقال:

ـ أتحبين قصر «بسنتواي» ولا تحبين قصر «الإسكندرية»؟! رغم أنهما نفس الشكل ونفس التصميم في كل شيء، نفس الحديقة والإسطبل، ونفس المهندسين الذين بنوا القصر هنا، هم الذين بنوا القصر هناك، كل شيء متشابه تمامًا.

ـ نعم يا جدي، أعشقُ القصر هنا وأكره القصر هناك.

حدق لها مدهوشا، وتابع باسمًا:

ـ كفِ عن هذا الهراء، لن تكوني وحدك، سأتحدث مع مكتب الخدم يحضر لكِ (دادة) تعيش معكِ هناك، و(حارس) للقصر أيضا.

صمتت للحظات تفكر ثم أردفت:

ـ ماذا لو أخذت (طنط فوزية) وعمي (عبده) يعيشان معي هناك؟

ـ مستحيل، (فوزية) هي المسئولة عن القصر هنا، و(عبده) هو الخادم المقرب لي، كما أن أرضه وعمله في القرية، وابنهما يعيش هنا معهما.

غمغمت بهدوء:

ـ ممكن أيضا (إسلام) يعيش معنا هناك.

بنظرة حادة رمقها، وقد انتهى من قهوته وتابع:

ـ أتقولين شيء؟

ـ No.

وهنا اقتربت نحوهما (فوزية) وقالت:

ـ تؤمرني بشيءٍ يا (باشا).

بنظرة غاضبة وعنف حدق لها، وبنبرة حادة أردف مغتاظا:

ـ لا.

غادرت (فوزية) القصر و(كندا) مازالت تجلس بجوار جدها بصمت شاردة وكأن حالها تبدل بعد الحديث عن القصر في «الإسكندرية».

***

بناية (عبده) الآن بعد المغرب، جلس (إسلام) ووالديه في الردهة، يتناولون وجبة العشاء فوق طبلية صغيرة، و(إسلام) يشعر بالخجل من رؤية أبيه له مع (كندا) اليوم ومن الغريب أن أبيه لم يخبر زوجته بكل ما رآه، ساد الصمت لدقائق نظر لـأبيه وقال متمتما:

ـ ماذا تقصد بالكلام الذي قُلته لي في الأرض اليوم يا أبي، وما معنى أني كنت السبب في الذي حصل قبل ذلك، وما الذي حصل من الأساس؟!

اعترت الدهشة وجه أمه وحدقت لزوجها بتمعن، لا تفهم أي شيء، وقالت:

ـ ماذا حصل يا (عبده)؟!

ـ لم يحصل شيء يا امرأة، وامنعي الكلام والرغى الكثير

وإلا سودت ليلتك.

زمجرت مُتعجبة وراحت تكمل طعامها بصمت، كرر (إسلام) سؤاله لـأبيه مرة أخرى، وهنا وقف (عبده) من مكانه وترك لقمة العيش من يده ووضعها على الطبلية، وأردف مُنزعجا:

ـ سأذهب للقصر الآن، ولن أعود إلا آخر الليل.

انزوت (فوزية) في ركن الردهة، ولم تكمل طعامها، وحدقت لـابنها وسألته بترقب:

ـ ماذا حصل يا (إسلام)؟!

قص عليها كل ما حدث بينه وبين (كندا) وما حدث من أبيه وصفعه له وأخبرها بما قال له أبوه أنه السبب في ما حدث قبل ذلك وسألها وهو ينظر لها مترقبا بعد أن ترك طعامه وركن ظهره علي جِدَار الردهة:

ـ ما الذي حصل يا أمي، وأنا كنت السبب فيه؟!

ارتبكت قليلا واستدارت بعيدا عنه وصمتت بعد أن تغيرت ملامح وجهها، ثم أردفت:

ـ لم يحصل شيء يا حبيبي، ولكن ما فعلته اليوم خطأ كبير، ابعد عن (كندا) الخطر كله في هذه البنت.

ـ أرجوكِ قولِ لي ماذا حصل؟!

نهضت من مكانها غاضبة، وصاحت متذمرة:

ـ قُلت لك لم يحصل شيء، ولابد أن تبتعد عن (كندا) أتفهم ؟

وغادرت الردهة، ودلفت لغرفتها وهو ينظر لها مدهوشا، وغمغم حائرا:

ـ أنا متأكد أن الموضوع فيه سر كبير، وأمي وأبي يعرفونه جيدا ويخفونه عني، ما هذا السر، ولماذا يخفونه؟!

صعد غرفته وظل يفكر طوال هذه الليلة، تارة في كلمات أبيه، وتارة أخرى في شعوره تجاه (كندا) والذي مازال لا يستطع أنه يفسره بعد، غير أنه يشعر كأنه يحلق في السماء عند رؤيتها. وفي صباح اليوم الموالي، استقل سيارة الأجرة واتجه للمدرسة في «أبو حمص» جلس مع (أحمد) في حوش المدرسة بجوار جِدَارها الشرقي أثناء حصة الألعاب، ولم يلعبا كبقية الطلاب، ظهر شاردا تائها صامتا، نظر له (أحمد) وقال باسما:

ـ لا أعلم، لماذا أتحمل شخص مثلك، طيلة الوقت ساكت.

رمقه باسما، ورد بهدوء:

ـ نصيبك يكون صديقك المقرب معقد نفسيا.

قهقه (أحمد) عاليا، وسمعه معظم الطلاب وتابع:

ـ فعلا، أنت معقد نفسيا، لكن للأسف أحبك كثيرًا.

تنهد وصمت للحظات، ثم حكى كل ما حدث بينه وبين (كندا) وما فعله أبيه.

نظر له (أحمد) مدهوشا، وأردف باسما:

ـ وتقول أني بحب البنات، وأنت مقطع السمكة وذيلها يا صاحبي.

بوجه ممتقع، نظر على مرمى بصره، وبصوتٍ غلبه الضعف والحزن تابع:

ـ بالله عليك قُل لي، الذي فعلته صح أم خطأ، وما هو السر الذي يخفونه عني؟!

صمت (أحمد) مُحدقا له، لا يصدق ما فعله مع (كندا) ثم قال:

ـ بالطبع ما فعلته خطأ كبير (كندا) لا تشبهنا، هي بنت باشوات أبا عن جد، وحسب كلامك الذي سمعته منك أن كل أرض «بسنتواي» ملك جدها والفلاحين يستأجرونها منه، اسمع كلام أبيك وأمك وابتعد عنها، لأن ما في رأسك

مستحيل أن يحصل.

تنهد بقوة وصمت هنيهة، وراح يفكر، ثم قال شاردا:

ـ وماذا تظن عن السر الذي يخفونه عني؟! انا متأكد أنه له علاقة بـ(الباشا) والقصر و(كندا).

نظر (أحمد) للطلاب، وهم يلعبون كرة القدم أمامهما وقال:

ـ وكيف لي أن أعرف هذا السر، ولكن واضح أنه شيء صعب، والدليل أنهم يحذرونك منها وأن تبتعد عنها في كل مرة.

صمت كلاهما وراحا ينظران للطلاب والذين يستمتعون باللعب، إلى أن دق الجرس وانتهت حصة الألعاب.

***

ظهيرة هذا اليوم، ساد الهدوء القصر، دلفت سيدة أربعينية من بوابة القصر الرئيسية، وسارت ببطء تقترب من باب القصر، وهنا نظرت (فوزية) من إحدى شرفات القصر وهي تقوم بتنظيفها، فلمحتها في الحديقة، ركضت سريعا وخرجت من القصر إلى أن وصلت إليها ولحقت بها قبل أن تدخل من الباب، وحدقت لها غاضبة، وبنبرةٍ حادة وعنيفة قالت مغتاظة:

ـ لماذا أتيتِ إلى هنا الآن يا (باتعة)، ألم تكفِ عن المجيء للقصر منذ زمن بعيد؟!

ضحكت وراحت تتمايل بجسدها المنحوت، وحدقت لها ساخرة، وبنبرةٍ باردة ردت:

ـ ابتعدي عن طريقي يا (فوزية) أريد أن أقابل (الباشا).

اقتربت منها (فوزية) وهمست في أذنها:

ـ اخرجي من القصر يا امرأة، وكفِ عن شغل الغوازي الذي كنتِ تفعلينه مع البيه الله يرحمه، أم تريدين أن (الباشا) يقطع جسمك بالكرباج كما كان يفعل زمان.

بفستانها ذو الالوان الكثيرة، ما بين الأحمر، والأصفر، والأبيض، والأخضر والأسود، قهقهت عاليا ونظرت لها غاضبة، وأردفت:

ـ أتعرفين يا (فوزية) أنا عشت في هذه الدنيا وعرفت أن الستات القذرة نوعين، النوع الأول ست فاجرة والنوع الثاني ست فاجرة وقادرة، وأنتِ من النوع الثاني، طيلة عمرك فاجرة وقادرة، وهذا هو سبب وجودك في القصر حتى الآن، الله يرحم البيه، كان دائما يقول لي، لم استرح أبدًا لـ(فوزية) كان محقًا لأنكِ فاجرة وقادرة.

اقتربت منها (فوزية) ورفعت يدها اليمني لـأعلي في محاولة أن تصفعها على وجهها إلا أنها مسكت يدها بقوة قبل أن تصفعها، وقالت (فوزية) بغضب:

ـ من الفاجرة يا زانية، أنتِ كل ليلة في حضن رجل جديد، أنسيتِ ما تفعلينه يا مرة، ألم تعرفي سيرتك في القرية وأجوارها؟! رجال القرية كلها لحست جسمك يا زانية.

ابتعدت (باتعة) عنها قليلا، وبشعرها المُغطى بقطعة صغيرة من القماش، والظاهر معظمه من الأمام ومن الخلف وصل خصرها ذو السواد الداكن، يلمع مع أشعة الشمس في هذه الساعات وسط النهار، هزت رأسها، ونظرت لباب القصر، وقالت باسمة، وهي تتراقص بجسدها:

ـ أنا معروفة للناس كلها، لكن أنتِ تظهرين شريفة وطاهرة، لكن أنا الوحيدة التي تعرف حقيقتك يا فاجرة، أتريدين أن تعرفي كيف عرفت كل أسرارك؟!

حدقت لها بترقب وصمت؛ فأردفت (باتعة) باسمة ساخرة:

ـ من البيه الله يرحمه، كان يعرف كل أسرارك وقذارتك وكان يحكي لي عندما يأتي لعندي، من الأفضل لكِ أن تخرسي يا فاجرة وتبتعدي عن طريقي لأن أسرارك كلها معي.

صمتت (فوزية) في وجوم، وساد الصمت المكان للحظات، إلى أن خرجت (كندا) من القصر ترتدي قميصا وسروالا من القماش، شعرها يتطاير خلف ظهرها يلمع مع أشعة الشمس، واقتربت منهما ونظرت لـ(باتعة)، وقالت:

ـ من هذه يا (طنط فوزية)؟

ـ (باتعة الغزية) يا (كندا هانم).

بابتسامة أنارت وجهها، ظهرت (كندا) كحورية من السماء، وليست بشر من الأرض حدقت لـ(باتعة) وقالت:

ـ جميلة جدا يا طنط، هل في القرية بنات بهذا الجمال؟!

حدقت لها (باتعة) بهدوء وقالت باسمة:

ـ أنتِ (كندا) ابنة البيه الله يرحمه.

ردت (فوزية) مسرعة:

ـ اسمها (كندا هانم) يا غزية.

وهنا اقتربت (كندا) من (باتعة) وبصوتها الساحر أجابت:

ـ نعم، أنا (كندا) حضرتك تعرفيني؟

تنهدت (باتعة) بقوة، وراحت تنظر لها بحب وتابعت:

ـ بالطبع أعرفك يا (كندا هانم) البيه كلمني عنكِ كثيرا كان

يعشقك، أنتِ نسخة منه، نفس الجمال والحلاوة الله يرحمه ويسكنه الفردوس الأعلى من الجنة.

نظرت لها (كندا) مدهوشة وقالت:

ـ حضرتك كنتِ تعرفي بابي؟

ـ نعم، كنت...

قاطعتها (فوزية) وقالت:

ـ كفي كلام يا (كندا هانم) وتعالِ يا (باتعة) لو تحبين لقاء (الباشا)، هو في القصر.

نظرت (كندا) لـ(فوزية) مُتعجبة، بعد أن أدركت أنها تعمدت أن تقاطع حديث (باتعة)، وتحرك ثلاثتهما ودلفوا لبهو القصر، حيث يجلس (نُعمان باشا) يشاهد التلفاز، اقتربت منه (كندا)، وقالت باسمة:

ـ عندنا ضيف يا جدي.

ـ من يا صغيرتي؟

ـ (باتعة الغزية).

وهنا تبسمت (فوزية) وغمغمت:

ـ حقا إنها غزية يا (كندا هانم).

نظر (الباشا) لها وقال باسما:

- مرحبا يا (باتعة) فينك وفين أراضيكِ؟

اقتربت نحوه وانحنيت على يده وقبلتها وقالت:

ـ موجودة يا (باشا) تحت أمرك.

أردف باسما وهو يتفحص جسدها جيدا:

ـ ما زلتِ جميلة يا (باتعة) وكأنك لم تتقدمي في العمر أبدا!

تابعت باسمة بمياصة، سعيدة بكلماته:

ـ ربنا يجبر بخاطرك يا (باشا) أنا كنت قريبة من القصر، قُلت أدخل أسلم على معاليك وأبوس الأيادي.

ـ فيكِ الخير والله يا (باتعة).

وأخرج بعض النقود من محفظته وأعطاها لها وأردف:

ـ خذي يا (باتعة).

اقتربت منه وأخذت من يده النقود وقبلت يده مرة أخرى وتابعت:

ـ يجعله عامر، وربنا يطول في عمرك يا (باشا).

نظرت لها (كندا) وسألتها بترقب:

ـ Please، ماذا تعني كلمة غزية؟

شعرت (باتعة) بالخجل، ونظرت للأرض ولم تجب، ولكن سرعان ما ردت (فوزية) باسمة ساخرة:

ـ يعني راقصة يا (كندا هانم).

اقتربت (كندا) نحو (باتعة) وتابعت باسمة:

ـ رائع، ممكن نشغل music شرقي وترقصي هنا في القصر.

ـ لا مؤاخذة يا هانم، لم أفهم معني ميوزك.

قهقهت (كندا) عاليا، وردت:

ـ يعني موسيقى.

ضحكت (باتعة) وتابعت:

ـ تحت أمرك يا هانم.

وهنا نظر (الباشا) لـ(كندا) باسما وقال:

ـ كفِ عن الشقاوة يا (كندا) واتركي (باتعة) تمشي.

ـ أريدها أن ترقص في القصر يا جدي.

ـ يوم فرحك يا حبيبتي إن شاء الله.

ثم نظر لـ(باتعة) وقال:

ـ مع السلامة يا (باتعة).

فغادرت القصر و(فوزية) تنظر لها بكره وغضب، وغمغمت:

ـ ماذا تعرف هذه الفاجرة عني، وماذا قال لها البيه قبل موته؟!

(١٠)

بجسد مكور صامتا، وشعلة النار بجانبه، مازال (إسلام) داخل «المقبرة الملعونة» تمر الدقائق كسنوات، هل يفكر في شيء ما؟! أم أنه نائم بهذا الوضع، ظهر ضوء خافت من نهاية المقبرة انعكس على جسده مرات متتالية يتوارى ويظهر، وبدأت همهمات هادئة تتردد، اعتدل ورفع رأسه من بين ركبتيه، ورأى هذا الضوء ينعكس عليه، فحدق على مرمى بصره في نهاية المقبرة بجوار هذه السراديب الصغيرة، هناك صبي في سن الثالثة عشر تقريبا، عاري الجسد تماما دون سترة صغيرة من الجلد تغطي بين فخذيه، خرج من أحد السراديب، وراح يقترب منه ببطء، ظل يحدق له في محاولة أن يتعرف عليه، إلى أن دنا منه ووقف أمامه ونظر في عينيه ثم نظر للأرض، و(إسلام) في حالة من الدهشة والصدمة لا يستطع أن يتفوه وكأن صوته حُبس في حلقه للحظات، ثم قال متلعثما:

ـ (سليمان)!

صمت الصبي هنيهة، وهو مازال ينظر للأرض، ثم رفع رأسه وقد انشقت عينيه لـأذنيه، واختفى أنفه، واتسع فمه حتى أذنيه، وخرجت شرارات نار متتالية في وجه (إسلام) صرخ الصبي بقوة وصاح:

ـ لماذا تركتهم يفعلوا بي كل هذا؟!

تحرك (إسلام) من أمامه وركض سريعا داخل المقبرة يمينا ويسارا في محاولة للهروب منه، لتكون تلك هي المرة الأولى التي تحرك فيها داخل المقبرة واكتشف كل معالمها من الداخل، تلك السراديب الصغيرة، وبعض الانحناءات التي لا يعرف نهايتها، كل ذلك ظهر له الآن ولكنه لم يركز في كل هذا من شدة ذعره وهلعه من الصبي الذي مازال يلاحقه بشرارات النار، إلى أن سقط أرضًا بعد قليلا من الوقت من شدة تعبه وأيضا من عدم عثوره على أي مكان يهرب به، وحدق للصبي مرتجفا، وبصوت خافت قال:

ـ من أنت وماذا تريد مني؟! أنت (سليمان) لماذا تظهر بهذا الشكل القبيح، ولماذا تخيفني وأنتَ طيلة عمرك مصدر الأمان لي؟!

وفي تلك اللحظات، ظهرت الفتاة وقد خرجت من أحد السراديب الجانبية، عارية الجسد دون سترة من الجلد تغطي بين فخذيها وصدرها، تبدو نحيفة للغاية، شاحبة الوجه، شعرها ملطخ بالطين، والدم يتناثر على ظهرها ووجها واقتربت منهما، حدق لها (إسلام) بلهفة وكأنها طوق النجاة له الآن، وأردف مُستغيثا:

ـ (كندا).

نظرت له بهدوء ولم تكترثُ ولم تجب، ووقفت وجها لوجه مع الصبي، وصاحت صارخة:

ـ ابتعد عنه واتركه.

وأخرجت شرارات نار من عينيها، وراحت تخيف الصبي، كادت أن تحرقه. وهنا اختفت شرارات النار من عينيٍّ الصبي وعادت ملامحه كما ظهر في البداية، ونظر لـ(إسلام) نظرة حب وحنان ودمدم باكيا وقال:

ـ لماذا تركتهم يفعلوا بي كل هذا؟!

حدق له (إسلام) وهو مازال متكئا على جانبه أرضا، وبصوت مبحوح تابع:

ـ ماذا حصل لك يا (سليمان) وماذا تقصد بكلامك هذا، ومن الذي حولك لهذا الشكل القذر القبيح، ومتى حصل ولماذا اختفيت؟!

سأله كل هذه الأسئلة والفتاة مازالت تقف بجانبه صامتة، والصبي مازال يحدق له بحزن منهمرا بالبكاء ودموعه تتساقط على الأرض، تلك الدموع التي تحرق مكانها، وتصاعد الدخان بسببها من الأرض، وكأنها دموع من نار، ولم

يجب البتة، صمتوا جميعا وساد الصمت المكان للحظات، ثم نظرت الفتاة لـ(إسلام) وقالت:

ـ لماذا لم تأتي لتعيش معي في القصر؟ لو كنت جئت لما حصل لي كل هذا.

حدق لها بترقب والفتى مازال يبكي وبصوت هادئ أردف:

ـ أية قصر؟! أنتِ كنت تعيشين في القصر بجانبي في «بسنتواي» لا يصح أن أعيش معكِ بسبب (الباشا).

بنظرة غاضبة، أومأت برأسها ساخرة، يبدو أنها تقصد قصرًا آخر غير القصر الذي يقصده، وصمتت وساد الصمت للحظات، إلى أن ظهر (حامل المفاتيح) يأتي من نهاية المقبرة بسرعة البرق، يرتدي زيه المعتاد، ويحمل بيده حزمة المفاتيح، راح يلوح بها. وهنا هرولت الفتاة والصبي ودلفا كلا منهما في سردابه الصغير الذي خرج منه، نهض (إسلام) من مكانه وركض خلفهما ونادي:

ـ (كندا) (سليمان) لا تتركوني وحدي هنا، هيا نخرج من هنا ونعيش معا من جديد.

ولكن هيهات هيهات أن يجيب أحد منهما، دنا نحوه (حامل المفاتيح) وحدق له ضاحكا وقال:

ـ اجلس مكانك مثل ما كنت، ولا تتحرك بغير أذني لك.

حدق له ونشج بحرقة وقال:

ـ بالله عليك أخرجني من هنا.

بنبرة تحمل كثيرا من العنف والحدة رد:

ـ قُلت لك، اجلس مكانك.

شعر بالخوف وذهب وجلس خلف باب المقبرة مرة أخرى، وهو مازال يبكي بشدة وشعلة النارة بجانبه على الأرض، وراح (حامل المفاتيح) يضحك عاليا، كادت ضحكاته تهدم المقبرة، واستدار متجها لنهاية المقبرة وتوارى، ساد الصمت والسكون المقبرة مرة أخرى دون بكاء (إسلام) والذي اختفى تدريجيا، يبدو أنه تعب حتى من البكاء.

***

عام دراسي جديد، في «كلية الطب البشري، جامعة الإسكندرية» وقد تحقق حلم (إسلام) والتحق بها، أول يوم دراسي، في حديقة الكلية وقف (إسلام) بصحبة (أحمد) ينظر حوله للعالم الجديد في حياته وبيده البالطو الأبيض، يبدو أنه شاردا لا يصدق أن حلمه قد تحقق، راح (أحمد) يحدق في جميع الفتيات اللاتي تمر من أمامهما سعيدا برؤية

كل هذا العدد من الفتيات وقال باسما:

ـ يبدو أنها ستكون سنة جميلة يا (إسلام) أخيرا جئت «الإسكندرية» لـأعيش حياتي كما أريد.

و(إسلام) لا ينظر له وكأنه يفكر في شيء ما، أو ينتظر ظهور أحد، اقترب منه (أحمد) وضربه على كتفه وقال:

ـ ألم تركز معي يا صديقي؟

ـ ماذا قُلت؟

ضحك ورد ساخرا:

ـ من الذي أخذ عقلك يا (إسلام).

تورد وجهه بالابتسامة وراح ينظر على مرمى بصره، فحدق له (أحمد) مدهوشا، ثم حدق لما ينظر إليه، وقال باسما:

ـ وأخيرًا ظهرت (كندا).

لم يلتفت له البتة، وكأنه لم يسمع شيئا، وراح يحدق النظر لها وهي تقترب نحوه، ترتدي قميصا أبيضا وسروالا جينز أزرق، وشعرها يتطاير خلفها كالعلم، ويلمع مع أشعه الشمس رغم سوداه الداكن، اقتربت منهما ووقفت أمامهما وتبسمت تلك الابتسامة الساحرة والتي تنير وجهها، وبتمعن حدقت

لـ(إسلام) دون أن تتفوه، وكأنها تريد أن تشبع من ملامحه، وظل هو أيضا يحدق لها و(أحمد) يقف بجوارهما، يبدو أنهما نسيا وجوده في المكان، وقال (إسلام) باسما:

ـ (كندا) كنت أنتظرك من أول دخولي الكلية، أبحث عنك في وجوه كل الفتيات.

ـ لقد وصلت الآن من القرية، ومعي حقيبتي في السيارة، لأني سأقيم في قصرنا في «كفر عبده» من اليوم.

ـ حمد الله على السلامة، سعيد جدا برؤيتك الآن.

ـ وأنا أيضا سعيدة برؤيتك، وأكثر سعادة لأني دخلت كلية الطب معك.

ـ وهذا أجمل خبر سمعته يوم ظهور تنسيق الثانوية العامة يا (كندا).

ـ ليس أكثر مني يا (إسلام).

وهنا صاح (أحمد) باسما:

ـ ألم ننتهي بعد من هذا اللقاء الغرامي؟!

حدقت له (كندا) باسمة؛ ثم نظرت لـ(إسلام) وتابعت:

ـ صديقك المطرقع؟

ـ نعم، إنه هو.

نظرت له مرة أخرى، مازالت تبتسم وقالت:

ـ so sorry يا (أحمد) هذا هو لقبك بيننا.

راح يحدق في عينيها وقال بمُحن:

ـ الجميل يقول كل ما يريده.

ـ لا لن أذكرك هكذا مرة أخرى حتى لا تغضب.

ـ ومن قال أني سأغضب منك يا جميل يا عسل أنتِ؟

نظر له (إسلام) غاضا فقال (أحمد) باسما:

ـ أترككم الآن ونلتقي آخر اليوم يا (إسلام) لنسافر معا.

وغادر المكان، جلسا على الحشائش، وراح (إسلام) يحدق لها بتمعن، وهو في قمة السعادة والفرحة، وقال:

ـ ما هذا القصر الذي ستعيشين فيه هنا، هل لديكم قصر في «الإسكندرية»؟

نظرت في الحديقة وتنهدت بقوة، وظهرت شاردة تائهة وراحت تفكر بعد أن اختفت الابتسامة من وجهها وبدأت تشعر بالخوف، وقالت:

ـ yeah، عندنا قصر هنا في «كفر عبده» نفس مواصفات

القصر في «بسنتواي» حتى جدي قال لي إن نفس المهندسين بنوا قصر «بسنتواي» وبنوا قصر «الإسكندرية».

ـ ولكن تلك هي المرة الأولى التي أعرف أن لديكم قصر في «الإسكندرية».

ـ ليس هذا مهما، ولكن الآن أشعر بقبضة قلبي، وخائفة أن أعيش في هذا القصر رغم أني دخلته كثيرا من قبل، وأيضا في (دادة) و(حارس) هناك.

بنظرة تحمل كثيرا من الدهشة والترقب سألها:

ـ ولماذا كل هذا الخوف؟!

ضمت شفتيها، ثم أجابت متوترة:

ـ لا أعلم، ولكن أشعر بهذا الإحساس في كل مرة أدخل فيها هذا القصر.

نهض من مكانه واقترب منها وتابع:

ـ اطمئنِ يا (كندا) أن شاء الله خير وتعالِ نحضر أول محاضرة في الكلية.

ابتسما معا وتحركا نحو مبني المدرجات وفي نهاية اليوم عاد (إسلام) في المساء وقد بدأ الغروب يزحف رويدا رويدا مستقلا القطار من محطة «سيدي جابر» إلى «أبو حمص»

بصحبة (أحمد) ونظر له وهما يقفان على باب القطار والذي راح يشق الطريق بين الحقول، وقال باسمًا سعيدا:

ـ أنا سعيد جدا يا (أحمد) أن (كندا) دخلت معنا نفس الكلية.

ـ تقصد أنك سعيد أنها دخلت معك نفس الكلية.

تبسم وراح ينظر على مرمى بصره بين الحقول وصمت.

***

استقلت (كندا) سيارتها وخرجت من الكلية في طريقها للقصر في «كفر عبده» وقد بدأ ظلام الليل يغطي سماء «الإسكندرية» وصلت القصر بعد المغرب وراحت تنظر لبوابته الرئيسية، وهي تقترب بسيارتها نحوها ببطء، ووصلت ووقفت أمام البوابة للحظات، بوابة القصر تُفتح وحدها ببطء شديد في الظلام مع صوت صريرها، وفُتحت مسافة تناسب حجم السيارة، نظرت لها بذهول وغمغمت:

ـ هل وصل (الحارس) القصر؟!

دلفت بسيارتها من البوابة وركنتها في مكانها في الحديقة، وراحت تنظر في كل مكان حولها تبحث عن من فتح لها البوابة، ولكن لم تجد أحدا البتة، شعرت بالخوف وانتابت

القشعريرة جسدها، وقالت خائفة:

ـ من فتح البوابة؟!

ثم فتحت سيارتها وحملت حقيبتها، وراحت تقترب من باب القصر والظلام يعم المكان دون مصباح ذو ضوء خافت على باب القصر.

اقتربت أكثر وأكثر من القصر ووصلت الباب، فوضعت الحقيبة من يدها أرضا وراحت تبحث عن مفتاح الباب في حقيبة يدها، وهنا شرع باب القصر يُفتح وحده ببطء شديد كما حدث مع بوابته، شعرت بالخوف وراحت تنادي بأعلى صوتها:

ـ من هنا؟!

فلم يجب أحد، وهنا ارتجفت أطرافها، وانتصب شعر رأسها وراحت تتصبب عرقا، ثم حملت حقيبتها ودلفت لبهو القصر، هناك مصباح صغير مُعلق في سقفه يبعث ضوء خافت ذو لون غريب يختلف عن الضوء العادي، نظرت له وقالت متمتمه:

ـ ما هذا النور الغريب؟! كنت خائفة أن آتي إلى هذا القصر يبدو أن توقعي كان في محله عندما قُلت لجدي أن هذا القصر غريب وغير قصر «بسنتواي».

وراحت تحدق في البهو لتجد كل المقاعد مغطاه بالملاءات وعليها قليلا من التراب، الهدوء والسكون والظلام يعم القصر دون هذا الضوء الغريب، اقتربت من سلم القصر وراحت تصعده ببطء، حاملة حقيبتها على ظهرها وقلبها يخفق بشدة، كاد أن يقف من الخوف، إلى أن وصلت غرفتها في الطابق العلوي، وحدث مثل ما حدث مع بوابة القصر وبابه، فُتح باب غرفتها وحده، ازداد خوفها، لكنها دلفت لغرفتها، وضغطت على زر الإضاءة، لينير المصباح بنفس الضوء في البهو، وضعت حقيبتها على سريرها وراحت تنظر لها، رأت المقاعد مغطاه بالملاءات أيضا وعليها قليلا من التراب، فأزاحت الملاءة عن أحد المقاعد وجلست، وهي تشعر بالخوف الشديد، إلى أن وقعت عينيها على خزانة ملابسها، وقفت من مكانها واقتربت منها وفتحتها ببطء، وراحت تنظفها من هذا التراب بداخلها. وفي تلك اللحظات، شعرت بهواء بارد يقترب منها والذي سرعان ما تحول لهواء ساخن، وبدأ يظهر حولها صوت شخص يتنفس بهدوء، وهناك خطوات تقترب منها من الخلف، يبدو أن أحدهم قد دلف من باب غرفتها، وهنا تسمرت مكانها وتيبس جسدها أرادت أن تصرخ ولكن حُبس صوتها في حلقها، أرادات أن تستدير للخلف ولكنها خائفة مما قد تراه، ظلت هكذا للحظات، مازالت تنظر داخل الخزانة وقد اتسعت عينيها وراحت

تتنفس بعمق وزادت سرعة دقات قلبها، وكأن روحها تُسحب منها ببطء، تمنت أن تنشق الأرض وتبتلعها الآن، إلى أن تشجعت واستدارت للخلف ورأت...

(١١)

القصر في «كفر عبده» ليلا كالقلعة الراسخة في الأرض، ضوء القمر ينعكس فوقه وكأنه يغازله في صموت مع كل هذا السكون والهدوء، وراحت أشجار الزينة في حديقته تُعانق السماء، وتتراقص على استحياء تحت ضوء القمر، الأنوار في كل مكان، من نوافذه خلف الستائر، وأنوار خافتة في الحديقة تعلو أعمدة الإنارة وتُزين الحديقة، لتظهر كل هذا الجمال، وظهر القصر وكأنه قطعة من العالم الآخر.

ـ أهلا بكِ يا صغيرتي الجميلة.

بابتسامة رسُمت على وجهها قالت هذا، بعد أن استدارت (كندا) وحدقت لها، كادت روحها أن تخرج من جسدها.

وفي تلك اللحظات، تحولت تلك الإضاءة الغريبة لمصباح الغرفة للإضاءة الطبيعية، فأضاءت الغرفة بأكملها. ظلت (كندا) تحدق لها مرتجفة للحظات بعد أن شعرت بالراحة قليلا وتنفست الصعداء متنهدة، وغمغمت بهذا السؤال الذي دار في خاطركم الآن، ثم حدقت لها بتمعن، وبصوت متحشرج مبحوح متلعثمة سألتها:

ـ من أنتِ؟!

ابتسمت هذه السيدة، والتي ترتدي ملابس منمقة وكأنها

من سيدات المجتمع، هذا الفستان الأسود، يغطي جسدها كاملا حتى الأرض، مع قفازها بيديها وشعرها مغطي كاملا بتلك القماشة السوداء، وراحت تحدق لها بعينيها، وأجابت بهدوء ونعومة:

ـ أنا (الدادة) يا (كندا هانم) جئت أنا و(الحارس) القصر اليوم، لنعيش معكِ هنا بعد ان طلبنا جدكِ من مكتب الخدم.

اقتربت (كندا) من أقرب كرسي وجلست، يبدو أنها لا تستطيع الوقوف على قدميها، ونظرت لها مجددا، وأردفت مدهوشة:

ـ أين كنتِ عندما دخلت القصر، ومن الذي فتح لي بوابة القصر وباب القصر وأيضا باب غرفتي؟!

ـ كنا موجودين يا هانم، و(الحارس) كان على البوابة، وهو من فتحها لحضرتك ودخلتِ بسيارتك؟! وأنا كنت في المطبخ أعدُ لكِ العشاء، وجئت الآن عندما رأيتك تصعدين السلم وحدك.

ظلت (كندا) تحدق لها بصدمة، لا تصدق كل ما تسمعه وصمتت، تفكر في كل ما حدث معها منذ قليل، إلى أن اقتربت (الدادة) من حقيبتها وراحت تخرج منها ملابسها وتضعها في الخزانة، وبوجهها الأبيض نوعا ما، وحاجبيها

السود، وشفتيها الكبيرة بالمقارنة بوجهها تابعت باسمة، وهي تحدق في الملابس بعينيها الثاقبة:

ـ جميلة جدا ملابسك يا (كندا هانم) أعتقد أنها كلها من خارج مصر.

لم ترد البتة، ونهضت من مكانها سريعا وفتحت نافذة غرفتها المُطلة على حديقة القصر وبوابته الرئيسية، وصاحت متذمرة:

ـ أين (الحارس)؟!

اقتربت نحوها، ونظرت من النافذة نحو البوابة، وتابعت:

ـ يجلس هناك خلف البوابة يا هانم.

حدقت (كندا) خلف البوابة، ولمحت رجلا يجلس على مقعدا، لم تستطع أن تراه جيدا، فظهره هو الظاهر لها الآن. استدارت لـ(الدادة)، وصاحت غاضبة:

ـ أنا متأكدة أن هذا الراجل لم يكن يجلس هكذا على البوابة وقت دخولي.

تبسمت بغير اكتراث وأردفت:

ـ ومن الذي فتح لكِ البوابة يا صغيرتي الجميلة؟!

صمتت (كندا) هنيهة، ثم تابعت مغتاظة:

ـ Please, أريد أن أغير ملابسي.

ـ حاضر يا هانم، سأجهز لحضرتك العشاء بالأسفل.

نظرت لها منزعجة ولم تتفوه مجددا، وغادرت (الدادة) غرفتها وهبطت للطابق الأرضي من القصر، وراحت (كندا) تفكر، تارة تنظر من النافذة لـ(الحارس) وتارة أخرى تجلس على هذا المقعد بجانب سريرها.

مر ما يقرب من الخمسة عشر دقيقة، وخرجت (كندا) من غرفتها بعد أن بدلت ملابسها وارتدت بيجامة من الحرير، وراحت تهبط سلم القصر بهدوء، تحدق للبهو، لقد توارى الضوء الخافت لهذا المصباح في سقف البهو وتبدل للضوء الطبيعي كما حدث في غرفتها منذ قليل، كما أن كل تلك الملاءات على المقاعد والأساس اختفت وظهر كل الأساس يلمع كالذهب وكأن تم تنظيفه الآن، هناك العشاء على تلك المنضدة وسط البهو، عليها كل ما تشتهيه من طعام. ظلت تحدق لكل هذا مدهوشة، لا تصدق الأمر، أيكون حقا هذا هو ذلك القصر الذي دخلته منذ قليل وكان التراب في كل أجزائه. اقتربت وجلست على منضدة الطعام تفكر، إلى أن خرجت (الدادة) من المطبخ واقتربت نحوها بهدوء، تحمل باقي الطعام بيديها، وقالت باسمة:

ـ هيا للعشاء يا هانم، بالهنا دائما.

نظرت لها بتعجب وصدمة, وسألتها:

ـ من الذي نظف القصر هكذا؟!

رمقتها بنظرة باسمة، بعد أن وضعت ما تحمله على المنضدة أمامها، وأجابت:

ـ بالطبع أنا يا هانم، وساعدني (الحارس) في بعض الأشياء.

صمتت مدهوشة، وراحت تتناول طعامها بحدقتين متسعتين نظرت لها (الدادة) نظرة غريبة ومخيفة، وغمغمت بكلمات غير مفهومة، فنظرت لها (كندا) وسألتها:

ـ أتقولين شيء يا (دادة)؟

تبسمت وردت بنعومة وخجل:

ـ لا يا هانم، سأذهب للمطبخ.

وغادرت المكان للمبطخ، و(كندا) مازالت تنظر لها بوجوم، وقالت:

ـ يا لها من سيدة غريبة، وتصرفاتها أغرب!

انتهت من طعامها وخرجت من القصر، وسارت في ممر

صغير بين أشجار الزينة في الحديقة، يبدو أنها تتجه نحو البوابة، ظلت تسير ببطء شديد وكأنها خائفة من الاقتراب منها، والضوء الخافت ينير الحديقة، إلى أن وصلت وحدقت لهذا الرجل والذي مازال يجلس على مقعده وظهره لها، لم ترى وجهه حتى الآن، وهنا شعر بقدومها، استدار بسرعة ونهض من مكانه، وبعينين زرقاوين ووجه أبيض حدق لها وقال باسما:

ـ نورتي القصر يا هانم.

نظرت له ولم تتفوه بأية كلمة، ورأت رجلا ملابسه منمقة جيدا، يرتدي قميصا وسروالا من القماش أسودين، ظهر وكأنه ليس بـ(حارس) يبدو أنه مثقف، صمتت للحظات، ثم نظرت له مدهوشة وأردفت:

ـ حضرتك كنت موجود على البوابة وأنا داخلة؟!

بشاربه الكث أسود اللون وشعره داكن السواد، استدار وراح ينظر للسماء، وقعت عينيه على القمر والذي كان بدرا هذه الليلة، وأنار سماء «الإسكندرية» وصمت هنيهة ثم نظر لها شاردا، وكأنه يفكر في سؤالها أو أنه لا يفهمه وأردف:

ـ أنا...البوابة... عما تتكلمين يا هانم؟! لم أفهم ماذا تقصدين!

كل هذا و(الدادة) تقف في شرفة القصر المُطلة على البوابة تراقبهما في صمت.

صاحت (كندا) غاضبة وقالت بشيء من الحدة:

ـ حضرتك (الحارس) الجديد؟!

بنبرة حانية أجاب باسمًا مدهوشًا:

ـ نعم، وجئت القصر اليوم مع (الدادة).

ـ ولماذا كل هذا الغموض؟! Please أجب على سؤالي.

نظر ناحية القصر وصمت، يبدو أنه رأى شيء ما، فصاحت (كندا) متذمرة مغتاظة:

ـ أجب على سؤالي.

وهنا دنا منها بهدوء وحدق في عينيها بحب، وترقرقت عينيه بالدموع، واقترب نحوها أكثر، وهمّ أن يضمها لصدره ويطوقها بذراعيه، حدقت له مدهوشة بازدراء وابتعدت عنه بسرعة وقالت غاضبة:

ـ أنت مجنون، ماذا تريد أن تفعل يا حيوان؟!

فرت دمعه من عينيه إلى وجنتيه ونظر للأرض وأردف:

ـ أنا...

قاطعته (الدادة) والتي ظهرت في المكان في الحال بعد أن كانت تراقبهما من الشرفة وصاحت غاضبة:

ـ ماذا تفعل هنا الآن؟!

لم ينطق مجددا وتحرك بسرعة من مكانه وجلس على مقعده خلف البوابة، حدقت (كندا) لـ(الدادة) وأردفت مغتاظة:

ـ الحيوان المتخلف أراد أن يحضنني!

بابتسامة خبيثة ردت:

ـ قطعا لا يا (كندا هانم) أكيد حضرتك كنت تتخيلين.

صاحت منزعجة غاضبة:

ـ No, أنا متأكدة مما أقوله وأيضا يبدو أنه تائه، لا يفهم أية شيء، ولم يجب على أية سؤال، من أين أتيتم بهذا الحيوان؟!

نظرت (الدادة) لـ(الحارس) بغضب وأردفت:

ـ نأسف يا هانم، هو مخبول ومجنون بعض الشيء، لكنه طيب جدا، أنا متأكدة أن حضرتك ستتعودين عليه وتحبينه مع الوقت.

وبنظرة غريبة حدقت لـ(كندا) وكأنها تحذرها من شيء ما وتابعت:

ـ تعالِ ندخل القصر يا هانم.

تحركت (كندا) نحو القصر و(الدادة) خلفها في صمت وهدوء، وصعدت غرفتها، مازالت تفكر في تصرفات (الحارس) معها وغمغمت:

ـSo crazy

واقتربت من النافذة وفتحتها واستنشقت شهيقا طويلا، ثم نظرت للبوابة، رأت (الدادة) تقف مع (الحارس) خلفها، تلوح بيدها في كل مكان وتدور حوله، وهو يقف صامتا ناظرا للأرض، يبدو أنها تعنفه وتوبخه فغمغمت:

ـ ناس غريبة ومثيرة جدا.

ثم أغلقت النافذة وأوت إلى فراشها.

***

وبعد أول يوم دراسي، عاد (إسلام) منزله هذه الليلة وصعد غرفته وراح يرتب جدول محاضراته، وأوى إلى فراشه، إلى أن اقتربت الساعة على الواحدة بعد منتصف الليل وقد عم الهدوء والسكون، وفجأة تغيرت ملامحه وظهر الحزن

والدموع بعينيه، وغمغم:

ـ (سليمان) أين انت؟! لقد حققت حلمك ودخلت كلية الطب كنت اتمنى أن تكون معي الآن وتفرح يا حبيبي.

وهنا شعر بخنقة بصدره وأنه غير قادر على التنفس، فتحرك بسرعة نحو النافذة وفتحها وراح يستنشق هواء الريف بعد منتصف الليل، شعر بالانتعاش قليلا والدموع مازالت بعينيه، وراح يحدق للقصر، والذي يبدو مظلما تماما بعد إطفاء جميع أنواره من الداخل إلا غرفة (نُعمان باشا) ظهر داخلها نور خافت. ووقعت عينيه على شخص مُلثم، مغطى تماما من رأسه إلى قدميه بملابس سوداء، يبدو أنها سيدة من ملابسها، تدور حول سور القصر في صمت، وهنا وثب لأعلى وشرع ينادي:

ـ من هناك؟!

استدارت ونظرت له ولكن لم يستطع التعرف عليها البتة، وراحت تكمل دورانها حول القصر بصموت، وفي تلك اللحظات، خرج من غرفته بسرعة وهبط السلم وخرج من منزله متجها للقصر، ليس هناك أحدا مطلقا في الطريق، فجميع أهل القرية في سبات عميق الآن. وهنا نظرت إليه هذه السيدة وهي تقف أمام بوابة القصر المُغلقة وراحت تركض سريعا بعيدا عن القصر بعد أن كاد أن يقترب منها،

فركض خلفها مُسرعا، لا يعرف إلى أين تذهب، ظلت تركض في الطريق وسط القرية وهو خلفها، حتى اقتربت من الطريق الصغير بين الحقول المُؤدي للمقابر، ووصلت بوابة المقابر ودلفت منها، هناك صوت ذئاب تعوي وكلاب تنبح، يبدو أنها تأتي من حقول الجوافة الملاصقة للمقابر، وقف على البوابة يحدق لها مدهوشا، وشعر بالخوف، ولكن استمر يلاحقها، ودخل خلفها من البوابة، وغمغم:

ـ من هذه السيدة التي تركض بهذه السرعة وكأنها فتاة صغيرة؟!

وظل يحدق لها بعد أن تلكأت في مشيتها بين المقابر وهو يسير خلفها، إلى أن وصلت أسفل هذه النخلة وسط المقابر ووقفت، راح يقترب منها ببطء شديد وقلبه يخفق، وقد انتصب شعره وبدأت القشعريرة تتملك من جسده وتصبب عرقا، حتى وصل إليها، وهنا استدارت وكشفت عن وجهها، وصاحت مغتاظة بعنف...

(١٢)

ـ لماذا تجري خلفي هكذا، ولماذا أتيت للمقابر الآن؟!

بعنف وغضب قالت، وهي تحرك أنفها لـأعلى والذي بدأ يطول قليلا مع تجعد جلد وجهها أكثر وتحول شكلها لمسخ، حدق (إسلام) لها، وقال مقتضبا:

ـ (أم الشعور)!

نظرت له غاضبة وأخرجت شرارات نار من عينيها والتي وصلت وجهه، كادت أن تحرقه وكررت نفس الأسئلة، ابتعد عن شرارات النار، وأردف مرتجفا:

ـ أريد أن أعرف السر بينك وبين اختفاء أخي، لقد رأيتك داخل القصر أنتِ و(سليمان), أرجوكِ أخبريني مكانه.

اختفت شرارات النار من عينيها، ورفعت رأسها للسماء وصرخت بقوة وصاحت:

ـ (سليمان).

وظلت تصرخ للحظات إلى أن اهتزت النخلة التي تقف أسفلها بقوة، كادت أن تسقط عليهما، فحدقت له باكية، وتابعت:

ـ امشي من هنا الآن بسرعة.

راح يبتعد عنها وعن النخلة خوفا أن تسقط عليه وصاح:

ـ أرجوكِ أخبريني بمكان أخي.

صاحت بقوة مرة أخرى:

ـ إذا كنت تُحب أخيك، وتريد أن تصل للحقيقة، امشِ الآن.

تحرك بعيدا متجها لبوابة المقابر، تارة يسقط أرضا، وتارة ينهض، ركض مُسرعًا وخرج من البوابة وظهر (حامل المفاتيح) يجلس أعلى النخلة يلوح بالمفاتيح بيده يبدو أنه من تسبب في هز النخلة بهذه القوة، نظر لـ(أم الشعور) وقال غاضبا:

ـ ادخلي مكانك أيتها العاهرة الزانية المخبولة، ولا تدخلي القرية ليلا مرة أخرى.

حدقت له ودمدمت صارخة وصاحت:

ـ (سليمان).

راح يهز النخلة مرة أخرى بقوة كادت أن تسقط فوقها وهي مازالت تصرخ وتردد اسم (سليمان) إلى أن شعرت بالخوف وركضت بسرعة في ممر صغير بين المقابر، ووصلت غرفتها ودلفت وأغلقت الباب خلفها، وظلت تصرخ داخلها وتردد اسم

(سليمان).

ظل (إسلام) يركض سريعا في شوارع القرية وهناك كلاب تنبح، حتى وصل منزله مرورا بالقصر ودخله وصعد السلم لغرفته لاهثا لا يستطيع أن يتنفس، اقترب من سريره واستلقى على ظهره، وبصمت حدق في السقف وهو لا يفهم أية شيء مما حدث معه هذه الليلة ولا يفهم تفسير كلمات (أم الشعور) له منذ قليل وظل مستيقظا يفكر في كل ما حدث حتى أذن الفجر فتوضأ وصلى وخلد للنوم.

وفي الصباح، على رصيف محطة قطار «أبو حمص» وجد (أحمد) ينتظره دنا منه وصافحه ثم عانقه ونظر له (أحمد) وقال باسما:

_ أعتقد أنك لم تنم ليلة البارحة يا صديقي، وجهك شاحب للغاية.

راح ينظر على قضبان القطار تائها وقال:

_ نعم يا (أحمد) لم أنم غير ساعة واحدة بعد الفجر.

_ أكيد كنت سهران تتكلم مع (كندا) طوال الليل في الموبايل.

بغير اكتراث أردف باسما بصوت مجهد:

ـ (كندا)! وقص عليه ما حدث معه ليلة البارحة.

تبسم (أحمد) ورمقه باسما وتابع ساخرا:

ـ أنت مجنون يا (إسلام) ومن سيصدق ما تقوله هذا يبدو أنك كنت تحلم.

بنظرة غاضبة رد متذمرا:

ـ أنا متأكد إن فيه علاقة بين اختفاء (سليمان) و(أم الشعور).

ـ كف عن كل هذا الهُرَاء يا (إسلام).

حدق له غاضبا مرة أخرى وصمت إلى أن وصل القطار فاستقلاه متجهين لـ«الإسكندرية» وراح (أحمد) يحدق له باسما وغمغم:

ـ يبدو أن (إسلام) أصابه الجنون من حب (كندا)!

وبعد انتهاء اليوم الدراسي، جلس (إسلام) و(كندا) في كافتيريا الكلية، وظهرت (كندا) شاردة وراحت ترتشف قهوتها رشفة تلو الأخرى بصمت، حدق لها وتبسم بهدوء وارتشف رشفة من قهوته وقال:

ـ ماذا بكِ يا (كندا)؟ وجهك شاحب هذا اليوم.

أجفلت وبنظرةٍ تحمل كثيرا من الخوف تابعت:

ـ لا أعلم، ولكن هناك أشياء غريبة حصلت معي في القصر ليلة البارحة!

حدق لها مدهوشا، ورد بترقب:

ـ وماذا حصل معكِ؟!

صمتت هنيهة وتنفست الصعداء ثم ارتشفت رشفة جديدة من قهوتها وقصت كل ما حدث تعجب وصمت للحظات ثم أردف مدهوشا:

ـ حقا إنها أحداث غريبة ومثيرة.

بوجه ممتقع أردفت:

ـ والأغرب أن (الدادة) و(الحارس) لا يظهر عليهما أنهما خدم مطلقا، يبدو أنهما من أصول عريقة ونظرت على مرمى بصرها في الحديقة، لتقع عينيها على عصفوران صغيران يمرحان وسط الزهور، استدارت لـ(إسلام) وقالت باسمة:

ـ ليس مهما كل ما حصل، المهم أني سعيدة جدا أني اجلس معك الآن.

بنظرة تحمل كثيرا من الغبطة والسرور تابع محدقا في عينيها:

ـ وأنا في كل مرة أجلس معك وأنظر في عينيك، أشعر أني أملك الدنيا وما فيها.

وهنا وقفت من مكانها وتحركت نحوه ببطء، وهي تحدق في عينيه وأمسكت يديه، وهو مازال يجلس على مقعده، وبنبرة حانية تحمل كثيرا من الحب تابعت:

ـ لا أريد أن أسمع منك أية كلمة أخرى، كل ما أريده الآن هو النظر في عينيك حتى أشبع منهما.

وظلت تُحدق له وهي في عالم آخر إلى أن سمعا صوتًا يقترب منهما، وقال ضاحكًا:

ـ ماذا تفعلون الآن؟!

نظرا له باسمين، ورد (إسلام):

ـ طيلة عمرك تأتي فجأة يا (أحمد).

قهقه (أحمد) وتابع:

ـ هيا بنا حتى لا يفوتنا القطار يا صديقي الشقي.

ـ هيا يا مزعج.

وغادرا المكان و(كندا) تنظر لهما باسمة، ثم استقلت سيارتها متجهة للقصر في «كفر عبده». وصلت القصر مع

الغروب وفتح لها (الحارس) البوابة وركنت سيارتها في مكانها، ثم توجهت نحو (الحارس) ووقفت بجواره ونظرت له وقالت باسمة:

ـ so sorry إذا كنت ضايقت حضرتك بكلامي، لكن تصرفاتك كانت غريبة جدًا، وأيضا كل التصرفات التي حصلت معي هنا في القصر كانت أغرب.

حدق في عينيها وكأنه طالما يشتاق لتلك النظرات وقال باسما:

ـ آسف يا (كندا هانم) ولكن عندما رأيت حضرتك افتكرت شخص كان عزيز عليّ، للأسف حُرمت منه قبل أن أستمتع بالعيش معه.

حدقت له بترقبٍ وأردفت:

ـ أولًا ممكن حضرتك تقول لي (كندا) فقط، بدون كلمة هانم أو حضرتك، أنا مثل ابنتك.

ترقرقت عينيه بالدموع وحدق لها من جديد وأردف:

ـ لا يصح يا هانم.

ردت بسرعة:

ـ لا, إذا كنت تريد أن أنسى كل ما حصل البارحة أرجو أن

تنفذ كلامي.

ـ حاضر يا (كندا).

ـ من هذا الشخص الذي حُرمت منه وأنا ذكرتك به؟

صمت هنيهة وظهر شاردًا، وتابع بصوتٍ غلبته الكسرة:

ـ هذا الشخص هو...

وهنا قاطعته (الدادة) والتي ظهرت فجأة تقف بجوارهما، وقالت وهي تحدق له غاضبة:

ـ يبدو أنك لا تفعل شغلك جيدًا، أعتقد أنك لن تكمل معنا هنا كثيرا، وسنأتي بـ(حارس) غيرك.

رد منزعجا غاضبا:

ـ أريد أن أكمل معكم، وسأنفذ كل ما يُطلب مني.

نظرت (كندا) لـ(الدادة) وقالت مُنزعجة:

ـ Please يا (دادة) لا تعامليه بعنف هكذا، وإن شاء الله سيكمل عمله معنا.

ابتسمت (الدادة) بخبث وتابعت:

ـ كلام حضرتك أوامر يا هانم.

بنظرة غريبة حدقت (كندا) لـ(الحارس)، يبدو أنها بدأت تشعر نحوه إحساس غريب وغير مفهوم، وغادرت المكان ودلفت للقصر و(الدادة) تسير خلفها في صمت.

اقتربت الساعة على الواحدة بعد منتصف الليل، وقد عم الهدوء والسكون القصر، وكلا ذهب لغرفة نومه (كندا) في غرفتها في الطابق العلوي، (الدادة) في غرفتها في الطابق الأرضي بجوار المطبخ، و(الحارس) في غرفته بجوار بوابة القصر الرئيسية، وبدأت (كندا) تذاكر محاضراتها وهي تجلس على سريرها، ترتدي بيجامة من الحرير، وغلبها النعاس، إلى أن أفاقت على أصواتٍ لـأبواق سيارات وصياح لـامرأة في الحديقة، يختفي ويظهر مرة أخرى، راحت تنصت جيدًا، وغمغمت:

ـ ما هذه السيارات، ومن هذه السيدة التي تصرخ وكأنها تستغيث؟!

شرع جسدها يقشعر، وتشجعت وفتحت نافذة غرفتها ونظرت في الحديقة، وهنا توارت الأصوات البتة، فحدقت جيدا بين أشجار الزينة، ورأت سيدة ترتدي نفس ملابس (الدادة) السوداء وفي نفس حجم جسدها، شعرها أبيض وكثيف يغطي وجهها، تركض بسرعة بين الأشجار وهي تصيح بكلمات غير مفهومة، تارة تسقط أرضًا وتارة تنهض

من جديد، وصارت ملابسها ملطخةً بالطين، صاحت (كندا):

ـ ماذا تفعلين عندك الآن يا (دادة)؟!

تسمرت مكانها وراحت تحدق لها من بين شعرها الذي غطى وجهها، بنظراتٍ تبعث من خلالها شرارات نار تصل لـ(كندا) كادت أن تحرق وجهها وصرخت وهي تردد هذه الكلمات الغير مفهومة، وراحت تركض مرةً أخرى بين الأشجار إلى أن توارت خلف القصر في نهاية الحديقة، أغلقت (كندا) النافذة بسرعة، وهي ترتعش وتصببت عرقًا حتى أنها كادت أن تسقط مغشيًا عليها من الخوف والفزع، اقتربت من سريرها وجلست عليه تتلو بعض آيات القرآن الكريم، حتى هدأت قليلا، ونظرت لباب غرفتها للحظات، ثم تحركت من مكانها وفتحته وراحت تهبط السلم، مازالت تتلو القرآن ولكن الخوف يسيطر عليها بشدة، وصلت لـآخر درجة من السلم وراحت تقترب لغرفة (الدادة) ببطء شديد، وصلت لبابها ووقفت أمامه في هدوء لدقائق، وهنا سمعت نفس الكلمات الغير مفهومة التي سمعتها منذ قليل من (الدادة) في حديقة القصر، فرجعت بسرعة بعيدًا وسقطت على ظهرها أرضًا بعد أن اصطدمت بأحد المقاعد، مكثت أرضا للحظات لا تستطيع الوقوف وكأن قدميها أصابهما الشلل، إلى أن أفاقت ووقفت وسارت ببطء نحو باب القصر والذي

فُتح وحده، لتجد نفسها تخرج منه دون أن تشعر وراحت تهبط سلم القصر الخارجي في الحديقة، وكأن شخصا ما يقودها بين الأشجار وسمعت هذه الأصوات التي سمعتها في غرفتها منذ قليل من جديد، فراحت تحدق جيدًا بين الأشجار، رأت (الدادة) أمامها بنفس الشكل تتحدث بنفس الطريقة وتصرخ في وجهها وشرارات النار تخرج من عينيها، صمتت (كندا) مُحدقة لها وحُبس صوتها في حلقها مرتجفة، ثم قالت بصوت متحشرج مبحوح:

ـ لماذا تفعلين كل هذا يا (دادة)؟!

ظلت تصرخ بأعلى صوتها وراحت (كندا) تركض بعيدًا عنها وهي تلاحقها في الحديقة بين الأشجار، إلى أن اقتربت من باب القصر مرة أخرى لتدخل منه ولكنها وجدته قد أغلق، راحت تدقه بقوة ولكن هيهات هيهات أن يُفتح. وفي تلك اللحظات، لحقت بها (الدادة) بهذا المنظر المُفزع على باب القصر من الخارج وراحت تقترب منها وهي مازالت تصرخ، و(كندا) تنظر لها خائفة وباتت لا تستطيع أن تصرخ، إلى أن رأت شخصا ربما يكون المُنقذ لها الآن، يقترب منهما قادما من الممر الصغير في الحديقة بين أشجار الزينة، ظل يقترب حتى أول درجات السلم، وصاح بأعلى صوته:

ـ ابعدي عنها يا ملعونة.

حدقت (كندا) له:

ـ إنه (الحارس).

صرخت هذه السيدة في وجهه وابتعدت عن (كندا) وهي مازالت تتفوه بتلك الكلمات الغير مفهومة وراحت تركض بين الأشجار في الحديقة، وركض خلفها (الحارس) بسرعة. وهنا فُتح باب القصر وحده، ودلفت (كندا) للبهو، وسقطت ولم تستطع أن تقف مرة أخرى، وراحت تحدق أمامها، هناك قدم تقف بجوارها، تجمّد جسدها وتيبست مكانها، ورفعت رأسها، كادت أن تموت من شدة الخوف، فرأت...

(١٣)

ـ ماذا بكِ يا (كندا هانم) ولماذا نزلتِ من غرفتكِ الآن؟!

ارتشفت دموعها، وتنفست الصعداء وحدقت في وجهها، (الدادة) تحدثها هكذا وهي تحك يدها في عينيها، يبدو أنها استيقظت من سبات عميق الآن.

راحت (كندا) تصرخ، وهي مازالت مكومة أرضا، وجلست (الدادة) بجوارها وبدأت تهدئ من روعها، وربّتت على كتفها وشرعت تلمس بيدها على شعرها، وهنا دلف (الحارس) من باب القصر سريعا واقترب، شهق وقال لاهثا:

ـ ماذا حصل يا (كندا هانم)؟!

لم تعرُ سؤاله اهتماما، واستمرت في صراخها، وبنظرة غريبة وغير مفهومة سألته (الدادة):

ـ كيف دخلت هنا الآن؟!

بادلها بنفس النظرة، ورد متلعثما:

ـ استيقظت من نومي عندما سمعت صراخ الهانم، وجريت للقصر، فوجدت الباب مفتوحا، دخلت بسرعة.

ظلت (الدادة) تنظر له للحظات وهو يبادلها بنفس النظرات،

إلى أن هدأت (كندا) قليلا وقالت:

ـ Please, أريد أن أصعد غرفتي.

أوقفتها (الدادة) بمساعدة (الحارس) ولكن لم تستطع السير وسقطت أرضا، فحملها (الحارس) على كتفه وراح يصعد بها السلم و(الدادة) خلفه، إلى أن دلف غرفتها ووضعها في فراشها، ونظر لها بحب وترقرقت عينيه بالدموع، بنظرة تحمل كثيرا من العنف والغضب حدقت له (الدادة) وقالت بحدة:

ـ تعالَ نترك الهانم ترتاح الآن، وغدًا سنعرف منها كل ما حصل.

غادرا الغرفة وأغلقت (الدادة) الباب خلفها في صمت، وأبى النوم أن ينصاع إلى (كندا) البتة هذه الليلة، وعم السكون القصر من جديد، إلى أن طلع النهار وراحت العصافير تغني أعلى الأشجار في الحديقة، تحركت من فراشها واقتربت من النافذة وفتحتها ونظرت للعصافير مُستمتعة بهذا المشهد الرائع وقد سطعت الشمس، فُتح باب غرفتها بهدوء، تصلب شعر رأسها والتفتت سريعا، بنظرة خبيثة اقتربت (الدادة) نحوها، وقالت باسمة:

ـ صباح الخير يا صغيرتي الجميلة.

نظرت لها والخوف مازال يسيطر عليها، وردت:

ـ.Good morning Dada

صمتت (الدادة) للحظات، مُحدقة لها و(كندا) مازالت تنظر لها بخوف ثم قالت وهي تتجول في الغرفة بهدوء:

ـ ماذا حصل ليلة البارحة يا صغيرتي؟!

بتعرق زائد ولعثمة ملحوظة تابعت بسرعة، وهي تنظر لباب غرفتها والذي مازال مفتوحا وكأن أحدًا يقترب الآن:

ـ لا شيء، يبدو أنني كنت احلم ونزلت من غرفتي دون أن أشعر.

أردفت (الدادة) باسمة:

ـ كيف يا...

قاطعتها (كندا) بصوت مرتفع مغتاظة:

ـ.Please that's enough

ـ أرجوكِ هذا يكفي.

وهنا دلفت (جيسي) من الباب واقتربت نحو (كندا) سريعا وتشبثت برقبتها، فراحت (كندا) تقبلها بنهم، وبنبرة حانية قالت:

ـ أين كنتِ يا (جيسي).

حدقت لها (الدادة) مدهوشة وقالت باسمة:

ـ كانت تنام في حضني طوال ليلة البارحة.

بحدقتين متسعتين ووجه محتقن بالدم، نظرت لها (كندا) غاضبة وسألتها بترقب:

ـ ولماذا دخلت غرفتكِ؟!

أجابت وهي تنظر لـ(جيسي) باسمة:

ـ طالما تدخل غرفتي وتجلس معي نتكلم معا، ما الغريب في ذلك؟!

نظرت لها (كندا) مُنزعجة، ثم استدارت وراحت تنظر من النافذة، وهي تحمل (جيسي) على ذراعيها وصمتت، فأكملت (الدادة):

ـ الفطار جاهز بالأسفل.

وغادرت، وظلت (كندا) تنظر من النافذة تائهة شاردة دون أن تتفوه مجددا. ثم اقتربت من خزانة ملابسها وأخرجت هذا الفستان الجميل، بدلت ملابسها وظهرت كالفراشة، ثم هبطت السلم، تحمل (جيسي) على ذراعها الأيمن وبيدها اليسرى، حقيبة يدها، قابلتها (الدادة) في البهو واقتربت منها

سريعا، وبصوتٍ ناعم قالت باسمة:

ـ الفطار يا هانم.

حدقت لها غاضبة، وردت:

ـ لا أريد الآن.

وتحركت سريعا وخرجت من القصر وراحت تسير في هذا الممر الصغير بين الأشجار و(الدادة) تنظر لها وتبتسم ساخرة بعد أن تحركت من البهو ووقفت على باب القصر، وغمغمت:

ـ يا لها من تصرفات غريبة وغير مفهومة منك يا (كندا)!

وصلت (كندا) لبوابة القصر، حيث يجلس (الحارس) على مقعده خلفها، ووقفت أمامه، وبنظرة تحمل كثيرا من الحب والعطف حدقت له وبتوتر قالت:

ـ أريد أن أعرف ما حصل لي ليلة البارحة، وأرجوك لا تخبئ عني شيئا.

وراحت تقص عليه كل ما حدث لها، وهو يحدق لها بترقب وينصت جيدًا حتى انتهت من حديثها، صمت هنيهة، مازال ينظر لها مدهوشا، ثم قال باسمًا:

ـ ما هذا الكلام الغريب يا هانم، أكيد كان كابوس أو حلم، لم أرى أو اسمع أية شيء من كل هذا، غير أني استيقظت

من نومي على صراخك، وعندما دخلت القصر، وجدتكِ على الأرض و(الدادة) بجانبك.

صمتت (كندا) وقطبت جبينها وراحت تحدق له مدهوشة، ثم قالت باسمة:

ـ Ok، وأتمنى أن تناديني بـ(كندا) فقط مثل ما اتفقنا من قبل.

حدق لها بحب، وبنبرةٍ حانية أردف باسما:

ـ حاضر.

استقلت سيارتها و(جيسي) بجوارها وفتح (الحارس) البوابة وخرجت منها بصمت، وراح (الحارس) يحدق لها، وبنظرة حبٍ وحنان نادى:

ـ (كندا) هل ستعودين للقصر مرة أخرى؟

ابتسمت بهدوء دون أن ترد بأية كلمة، وتحركت سريعا بسيارتها، وأغلق البوابة.

بدأ اليوم الدراسي، وجلس (إسلام) في المدرج بجوار (أحمد) وراح ينظر في كل أنحاء المدرج بحثا عن (كندا) ولكن لم تظهر البتة، وانتهى اليوم الدراسي وعاد بصحبة (أحمد) في قطار المساء لـ«أبو حمص» ذهب (أحمد) لمنزله

ورجع (إسلام) لـ«بسنتواي» مُنزعجا لعدم رؤيتها اليوم وعدم ردها على هاتفها المحمول والمُغلق في كل مرة يحاول الاتصال بها. وصل بنايته بعد المغرب وقد غطى الظلام القرية وتناول العشاء وصعد لغرفته وحاول أن يذاكر محاضراته إلا أن التفكير في (كندا) منعه من ذلك، راح يتجول في غرفته يمينا ويسارا، تارة يجلس على سريرة وتارة أخرى يجلس على مقعده، وهو مشتت شاردًا من كثرة التفكير. ظل هكذا حتى اقترب منتصف الليل، فشعر بالخنقة والضيق بصدره، وهنا فتح نافذة غرفته وراح يستنشق الهواء النقي في تلك اللحظات من الليل مع هذا الهدوء والسكون، وهو ينظر للقصر والذي ظهر مظلما تماما، إلى أن رأى..

***

داخل «المقبرة الملعونة»...

مازال (إسلام) يجلس أرضا ساندا ظهره على باب المقبرة من الداخل في هذا الظلام العاتم بعد أن انطفأت شعلة النار التي أعطاها له هذا الفتي من قبل، لا يستطيع أن يفعل شيئا بعد أن فقد الأمل في الخروج ولا يستطيع رؤية أية شيء، إلى أن ظهر شعاع نور يأتي من نهاية المقبرة يقترب منه، وهنا اطمئن على عينيه بعد رؤية هذا النور بعد أن شك أنه

قد أصابه العمى من شدة الظلام. راح يحدق لهذا النور ورأى الفتاة وقد أزاحت شعرها عن وجهها هذه المرة ولم تظهر بشكل يخيفه، اقتربت منه ترتدي فستانا أسود مقطع من جميع أجزائه ونظرت له باكية، تمسك بيدها شعلة صغيرة من النار. مكثت للحظات، ثم جلست بجواره وركنت ظهرها على باب المقبرة، فصار كتفه بجوار كتفها دون أن تلمسه، وأخذت تنظر في نهاية المقبرة، ومازالت تمسك شعلة النار بيدها والتي أنارت المكان جيدا وظلت تبكي، وهو ينظر لها مدهوشا لا يحرك ساكنا، إلى أن استدار بوجهه لها، وقال متمتما:

ـ (كندا) لماذا تبكين هكذا، ولماذا تظهرين وتختفين مرة أخرى؟! أرجوكِ ردي عليّ وأخبريني أين نحن الآن، وساعديني أخرج من هنا.

زَمت شفتيها وكفت عن البكاء، وحدقت له بغير اكترات، وبصوت متحشرج قالت:

ـ (الدادة) و(الحارس) لماذا تركتهم يفعلوا بي كل هذا؟!

حدق لها مُتعجبا وسألها بترقب:

ـ أتقصدين أمي وأبي؟!

صمتت للحظات، وكأنها تفكر بكلماته، ثم نظرت له

ودمدمت صارخة، وأردفت:

ـ (الدادة) و(الحارس) لماذا تركتهم يفعلوا بي كل هذا؟!

ظلت تصرخ بقوة، ونهضت من مكانها وتركت شعلة النار من يدها بجانبه وركضت سريعا إلى نهاية المقبرة ودخلت في أحد سراديبها، وهي مازالت تكرر نفس الكلمات السابقة، و(إسلام) مازال يجلس مكانه، وغمغم:

ـ من هؤلاء التي تقصدهم، وماذا فعلوا بها؟!

وصمت وقد اطمئن قليلا بعد أن حصل على شعلة نار جديدة.

***

ـ (كندا).

نادى (إسلام) بأعلى صوته بعد أن رآها تقف في نافذة غرفتها بعد منتصف الليل في القصر تنظر للسماء، ولكن لم تجب البتة وكأنها لا تسمعه، نظر لها مدهوشا، وقال:

ـ كيف لا تسمعني وأنا أنادي عليها بأعلى صوتي، ولماذا تنظر للسماء هكذا الآن، ومتى أتت من «الإسكندرية» ولماذا لم تخبرني أمي بعودتها؟!

وراح ينادي عليها مرة أخرى، فلم تجب ولم تنظر له أبدا.

وهنا خرج من غرفته مسرعا وهبط الطابق الأرضي، واطمئن أن والديه في سبات عميق، فخرج من المنزل وركض متجها للقصر، حتى وصل أمام بوابته ووقف للحظات، يفكر كيف يدخل، إلى أن رأى البوابة تُفتح من الداخل وحدها، فدلف سريعا وكأنه لا يريد أن يراه أحد، وحدق في كل الاتجاهات خلف البوابة، رأى (كندا) تنظر له باسمة، ترتدي بيجامة نومها وشعرها يتطاير خلفها مع نسمات الهواء في تلك اللحظات بعد منتصف الليل والذي ظهر داكنا لامعا مع ضوء القمر، ووجنتيها كاللؤلؤ مع عينيها الساحرة، وقالت:

ـ كنت أعلم أنك ستأتي الآن، جئت كي أفتح لك البوابة.

حدق لها مدهوشا، وهو يرتدي قميصا ربع كم أبيض اللون وسروالا من القماش، ملابس نومه، وقال باسما:

ـ كنت أقف في نافذة غرفتي وناديت عليكِ كثيرا، لكن يبدو أنك لم تسمعيني!

تورد وجهها بالابتسامة وحدقت في عينيه مدهوشة، يبدو أنها لا تعرف عن ماذا يتحدث، وبنبرة موسيقية أردفت:

ـ لم أسمع أي شيءٍ مطلقًا.

ـ وكيف عرفتي أني قادم للقصر الآن؟!

بابتسامة هادئة وصوت خفيت أجابت:

ـ قُلت لك أني شعرتُ أنك ستأتي الآن.

سارا معا في الحديقة، في ممر صغير بين الأشجار إلى أن جلسا على أقرب مقعدين، وراح يحدق لها، نظرات تحمل كثيرًا من الحب والحنان وراحت هي الأخرى تبادله بنظرات مماثلة، وصمتا وكأن نظرات عيونهما تعبر عن كل ما يريدان أن يتحدثا به، ظلا هكذا تحت ضوء القمر والهدوء والسكون يعم القصر، إلى أن قال بصوتٍ هادئ:

ـ أنا طوال اليوم أبحث عنك في الكلية، وأيضا موبايلك كان مُغلق، لم أكن أعرف أنك جئتِ القرية، واستغربت جدًا عند رؤيتك، ما الذي حصل كي تأتي منتصف الأسبوع؟!

ظهر الخوف على ملامح وجهها وصمتت هنيهة وتذكرت كل ما حدث معها في القصر في «الإسكندرية» ثم قصت عليه كل ما حدث بعد أن اقتربت منه ووضعت رأسها على صدره، نظر لها بصدمة وكأنه لا يصدق كل ما قالته وصمت، فتابعت:

ـ أنا حكيت لك على كل الذي حصل معي في القصر، بالطبع إذا حكيت لأي شخص سيقول لي أني بحلم أو بتخيل أشياء لم تحدث مثل ما قال لي (الحارس) بالضبط مع أنه جزء من

الأشياء الغريبة التي حصلت معي، وأكيد أنت أيضا ستظن أنه مجرد كابوس.

أخذ يمسح على شعرها بيده، ثم راح يحدق في عينيها هائما، وأردف:

ـ بالطبع لا، أنا أصدقك، لأني يحصل معي أشياء مثل التي تحكي عنها بالضبط.

نظرت له بترقب وقالت:

ـ أنت رأيت (الدادة) و(الحارس) مثلي؟!

راح ينظر للسماء ورد باسما وهو مازال يمسح على شعرها بيده:

ـ لا، لكني رأيت أشخاصًا آخرين، وتنهد بقوة، وأكمل:

ـ أتتذكرين أخي (سليمان) الذي اختفى فجأةً ونحن صغار؟

راحت تفكر للحظات، ثم قالت وهي تنظر بعيدًا شاردة:

ـ (سليمان) نعم أتذكره جيدا، اختفى ويومها جدي بحث عنه في كل مكان ولم يجده.

ترقرقت عينيه بالدموع وتابع:

ـ لقد رأيته مع (أم الشعور) على هذه الصخرة.

وأشار بسبابته على هذه الصخرة بجوار الإسطبل وأكمل:

ـ رأيته يتكلم معها بكلمات غير مفهومة وبعدها اختفى خلف الإسطبل و(أم الشعور) أيضا اختفت.

استدارت وحدقت له مدهوشة وقالت:

ـ (أم الشعور)! هل تقصد هذه السيدة المسكينة المُسنة، التي تعيش في المقابر على مساعدات أهل القرية.

ـ نعم، هي.

صمتت للحظاتٍ ثم تابعت:

ـ أتذكرها جيدًا، كانت تأتي أحيانا تخدم في القصر، كنت أراها من بعيد طالما كنت أخاف أن أقترب منها من اسمها المُخيف، وجدي كان يعطف عليها كثيرا، لكن يبدو أنها لم تعُد تأتي للقصر بعد.

رمقها باسما وبنبرة حانية أردف:

ـ سُميت هكذا لأن بوجهها ويديها شعر كثير، ليس إلا كما أنها تظهر مخيفة بعض الشيء حتى إذا رأيتها نهارا.

وهنا اقتربت منه بسرعة، بعد أن شعرت بالخوف من الحديث عن (أم الشعور) فضمها لصدره وألتصق بها، وصارا جسدا واحدا، شعر بدفء جسدها وصمتا، وكأنهما طالما

ينتظران تلك اللحظات ليعبرا عن كل هذا الشوق، بعد أن اطمئنا أن الجميع في سبات عميق الآن. وظل يحتضنها بقوة لساعات، ونور القمر شاهدا عليهما، ونسمات الهواء في حديقة القصر والتي جعلت الأشجار تتمايل وتتراقص حولهما، وكأنها سعيدة من الشوق والحرارة بينهما، إلى أن بدأ قرآن الفجر، نظر (إسلام) على مرمى بصره، ورأى من يقف على بعد أمتار يحدق لهما جيدا...

(١٤)

طالما نتمنى أن تطول تلك اللحظات بيننا، هائمين شوقا وحُبا، ننسى أنفسنا والدنيا بأكملها، وكأننا في عالمٍ آخر، إنه شعور الحُب، فقط هو القادر على أن يذهب بنا بعيدا عن هذه الدنيا بما فيها من تعب وكبد ومشقة، نشعر بإحساس غريب ومثير، لا نستطيع تفسيره قلبك ينبض وكأنه يرقص فيرقص العالم من حولك غبطة وسرور، إنه هذا الإحساس من القلب المُصاحب لشعور الحب.

يا لها من مشاعر فياضة بينهما الآن، ولكن لم تستمر أكثر من ذلك عندما رأى (إسلام) من يحدق لهما، إنها (أم الشعور) تجلس أعلى هذه الصخرة بجوار الإسطبل بشكلها المُخيف، ترتدي تلك الملابس السوداء وشعرها الأبيض يغطي وجهها كاملا، فقط تُظهر عينيها، والتي راحت تخرج شرارات من النار. نهض (إسلام) سريعا، مما أصاب (كندا) بالفزع والخوف، وقالت بلهفة:

ـ ماذا بك؟!

رد وهو مازال ينظر لـ(أم الشعور) مرتجفا:

ـ ليس هناك شيء، ولكن اصعدي لغرفتك الآن قبل أن يستيقظ جدك من نومه، وأنا أيضا سأغادر القصر قبل مجيء

أبي وأمي، والحمد لله أني اطمأننت عليكِ.

غادرت ودلفت للقصر وأغلقت بابه خلفها، وظل (إسلام) يحدق لـ(أم الشعور) مغتاظا والتي صرخت، صرخة هزت المكان وركضت بسرعة خلف الإسطبل، فغادر المكان وخرج من بوابة القصر متجها لمنزله، وأذن الفجر؛ فتوضأ وصلى وخلد للنوم.

وقت القيلولة لهذا اليوم، وقد صارت الشمس حارقة دون أي نسمات للهواء، ذهب (إسلام) للمقابر وحده ودلف من بوابتها، وراح يسير ببطء بين ممراتها الصغيرة، إلى أن وصل لغرفة (أم الشعور) والتي تشبه المقبرة، وجدها تجلس أمامها تحتمي من حرارة الشمس في ظلها، وتتناول غذائها المكون من العيش المقدد وقطعة صغيرة من الجبن القديم، ترتدي زيها الأسود وعمامتها على رأسها تخفي بها شعرها وبجوارها عكازاها، حدق لها وصمت للحظات، ثم صاح غاضبا:

ـ لماذا تطارديني! وما علاقتك باختفاء (سليمان)؟!

بوجوم حدقت له وراحت ترمش، يبدو أنها تريد أن تتحقق منه واستمرت في تناول طعامها، وقالت:

ـ من أنت يا ابني؟!

اقترب منها، وقال غاضبا:

ـ أتريدين أن تظهري جنانك أيتها المخبولة؟! أنا متأكد أنكِ تعرفيني جيدا، وتعلمين ما أقصده.

ضمت شفتيها ورمشت من جديد، وأردفت:

ـ كيف سأعرفك وأنا بصري ضعيف ومن (سليمان) هذا؟! لا أعلم عما تتكلم، وماذا تريد مني؟!

قطب جبينه في استهجان وصمت هنيهة وهو مازال يحدق لها، ثم تابع غاضبا:

ـ أنا (إسلام) وأخي (سليمان) الذي اختفي منذ أكثر من عشر سنوات ولا نعلم أين اختفي حتى الآن، وأنتِ ظهرتِ لي عند إسطبل القصر معه، أرجوكِ عرفيني الحقيقة كلها وما علاقتك باحتفائه، لأني لن اتحرك من هنا دون أن أعرف كل شيء وإلا قتلتك ودفنتك في غرفتك.

نظرت له باسمة وأردفت، وهي مازالت تتناول طعامها:

ـ أنت ابن (فوزية)؟

أجاب سريعا بترقب:

ـ نعم، أنا أبن (فوزية) و(عبده).

ضحكت ساخرة وراحت تقهقه، ضحكات هزت المقابر رغم

تقدمها في العمر وأومأت برأسها وتابعت:

ـ (فوزية) الفاجرة العاهرة الزانية.

صاح منزعجا غاضبا:

ـ لا تقولي عن أمي هكذا، أمي ليست فاجرة.

ـ أمك أفجر ست في القرية كلها، ومع الوقت ستعرف ما فعلت، وقُل لها أني أقول عليها الفاجرة، وهي ستفهم ما أقصده، وهيا امشي من هنا لأني أريد أن أدخل للنوم في غرفتي.

اقترب منها في محاولة أن يقبض على كتفها وقال:

ـ لن اتحرك من هنا دون أن أعرف الحقيقة كاملة.

وهنا نهضت من مكانها سريعا، وتشبثت برقبته وقبضت على عنقه بقوة كادت أن تخنقه، وقالت:

ـ قُلت لك ارحل من هنا يا أبن الفاجرة.

كادت أن تخرج روحه رد بصوت متحشرج:

ـ اتركي رقبتي يا مجنونة.

تركته بعد أن أوشكت أن تقتله وراحت تقهقه عاليا وابتعد عنها، وحدق لها وجسده يرتعش وغمغم:

ـ من أين أتت بكل هذه القوة، كادت أن تقتلني، وأنا الذي كنت أعتقد أني سأقتلها.

صرخت في وجهه، راح يركض في الممرات بين المقابر، تارة يسقط أرضًا وتارة ينهض مرة أخرى، وهنا وقعت عينيه على «المقبرة الملعونة» شعر بالخوف أكثر وأكثر، واستمر في الركض حتى خرج من بوابة المقابر، وظل يركض في شوارع القرية وقت القيلولة والناس تنظر له مدهوشة من أمره إلى أن وصل منزله وصعد غرفته لاهثا.

وفي مساء هذا اليوم، جلس مع أمه وأبيه يتناولون وجبة العشاء في الردهة، وقص عليهما كل ما حدث بينه وبين (أم الشعور) حدق والديه لبعضهما مدهوشان، وراحا يتبادلان تلك النظرات الغير مفهومة والتي طالما تكررت بينهما، ثم نظرت له أمه، وقالت غاضبة متذمرة:

ـ الست المجنونة قالت عني هكذا، سأمنعها من أن تنزل القرية، وسأعرف الناس حقيقتها وأنها ساحرة، وأهل البلد سيقتلونها.

صاح زوجها غاضبا:

ـ ابتعدي عنها يا امرأة وإياكِ أن تقتربِ منها، أو تعرفي الناس حقيقتها.

ـ وماذا بعد أن قالت لـابني، أمك فاجرة؟!

ـ لا تهتمي لـأمرها، واتركيها وشأنها بعيدًا عنا.

وحدق لـ(إسلام) وأردف مغتاظا:

ـ ولماذا ذهبت للمقابر؟

بصوت خافت رد متمتما:

ـ لأني متأكد أنها تعرف مكان (سليمان) وطريقة كلامها معي اليوم أكدت لي أنها تعلم أشياء كثيرة.

وصمت وراح يفكر للحظات، وهو ينظر لهما ثم أكمل:

ـ هناك شيء غريب حصل اليوم، أتمنى أن يكون ما أفكر فيه خطأ.

حدقا له بترقب وردا في نفس واحد:

ـ ماذا حصل؟!

ـ كلام (أم الشعور) معي اليوم، أكد لي أنكما تعرفان أشياء كثيرة وتخفينها عني، خاصة أنتِ يا أمي، وبصراحة خائف من أن تكونا تعرفان مكان (سليمان) وتخفوا ذلك عني.

ردا في نفس واحد غاضبان:

ـ أنت مجنون، ما هذا الكلام الغريب، يبدو أنك بدأت

تهلوس!

رمقهما غاضبا، وترك طعامه ووقف من مكانه وصعد السلم لغرفته، وفي منتصف السلم استدار لهما، مازالا يتناولان طعامهما، وقال:

ـ أتمنى أن أكون مجنونًا، وظني في كلام (أم الشعور) يكون خطأ.

نظرا له بصمت، ثم راحا يحدقان لبعضهما ولم يتفوها البتة.

بات (إسلام) هذه الليلة في فراشة قلقًا يفكر في حديث (أم الشعور)، وفي الصباح لم يذهب للكلية وذهب للحقل وجلس تحت شجرة التوت بجوار الترعة، وراح يتذكر أيام طفولته مع (سليمان) عندما كانا يسبحان في الترعة، وغمغم:

ـ وحشتني يا أخي.

ومع اقتراب الظهيرة، غلبه النعاس، ونام تحت ظل الشجرة مع نسمات هواء الحقول المعطرة برائحة الزهور، وفي الغفوة التي تسبق نومه رأى (سليمان) يقف بجواره باسما، فنهض واقترب منه وضمه بين ذراعيه، وقال:

ـ وحشتني يا (سليمان)، أين احتفيت؟

استدار بعيدا عنه، وراح ينشج بقوة وقال:

ـ لماذا تركتهم يفعلوا بي هكذا يا (إسلام)؟ طيلة عمري كنت أحميك وفي ظهرك وعندما احتجت لك تخليت عني.

ترقرقت عينيه بالدموع ودنا منه وحدق في عينيه وأردف:

ـ أنا من تخليت عنك! كيف يا حبيبي، لقد بحثت عنك في كل مكان ولم أجدك، قُل لي ماذا تقصد بكلامك، وأخبرني كيف أجدك؟

ابتعد عنه أكثر، وهو مازال يبكي، وصاح عاليا:

ـ (باتعة).

وظل يردد اسمها، إلى أن تواري من أمامه، وهنا استيقظ (إسلام) من نومه، وقال:

ـ ما هذا الحلم الغريب، ومن تكون (باتعة)؟!

ظل جالسا مكانه تحت شجرة التوت، يفكر في هذا الحلم المثير، إلى أن أذن العصر، وراح ينظر على مرمى بصره بين الحقول، رأى (كندا) تقترب منه أعلى فرستها، حتى وصلت إليه ووقفت بجواره، وقالت باسمة:

ـ كنت أعلم أني سأجدك هنا، قُلت لجدي أريد أن أتجول بين الحقول، لكن في الحقيقة أنا جئت من أجلك.

حدق لها باسما، ونهض بسرعة من مكانه واقترب منها وأمسك لجام فرستها، فأوقفها بعد أن كانت تدور حوله، وحمل (كندا) من عليها وضمها لصدره وأنزلها أرضا، وهي تنظر له باسمة وهو يحدق في عينيها، وفي تلك اللحظات، مر بجوارهما طفل صغير يمتطي حماره، ونظر لهما وراح يضحك ويقهقه بأعلى صوته، وقال:

ـ (إسلام) يحتضن الأميرة.

نظرا له وضحكا وأردف (إسلام):

ـ حقا أنتِ أميرة وأجمل أميرة في الكون.

تبسمت واحمرت وجنتيها خجلا وقالت:

ـ أنا حقا أميرة ولكن لشخص واحد فقط.

ـ ومن سعيد الحظ هذا؟

أجابت وهي تحدق في عينيه:

ـ بالطبع أنت يا (إسلام).

احمر وجهه وراح يتصبب عرقا، ورد بخجل:

ـ حقيقي يا (كندا).

ـ بالطبع يا حبيبي.

صمت للحظات، محدقا لها واستنشق شهيقا طويلا لا يصدق كلماتها، ثم أردف:

ـ أكيد أنا بحلم.

ـ لا, إنها الحقيقة، أنت تحبني وأنا أحبك، ويجب أن نعترف بهذا الأمر.

شعر بالخوف، وأردف:

ـ وماذا يفيد حبنا؟! أنتِ نجمة في السماء وأنا في الأرض.

ـ ليس مهما كل هذا الكلام الآن يا حبيبي، المهم أني أريد أن أتأكد من حُبك لي.

صمت هنيهة ثم قال:

ـ حبي لكِ! أنا أحبك أكثر من نفسي منذ الطفولة، من أول مرة رأيتك، وحبي لكِ صار يكبر يوم بعد يوم، ولكن كتمت في قلبي ودفنت شعوري في صدري، لأنك جوهرة ثمينة على أي شخص.

ـ كنت أعرف كل هذا يا (إسلام) وأعرف جيدًا أنك لن تعترف بحبك لي إلا عندما أبدأ، لذلك أنا صارحتك بكل شيء.

اقترب منها وضمها لصدره وتابع:

ـ وهذا أجمل يوم في حياتي، لن انساه أبدا.

وهنا صاحت الفرسة بصهيلها، فنظرت لها (كندا) وقالت باسمة:

ـ أعرف أنكِ تريدين أن تعودي القصر قبل الغروب من أجل ابنتكِ.

وامتطت فرستها واتجهت للقصر، وظل (إسلام) واقفا مكانه يشعر بالغبطة والسرور.

***

في بهو القصر..

وقفت (فوزية) بجوار (نُعمان باشا) تحدق له للحظات صامتة، وهو يرتشف قهوته رشفة تلو الأخرى جالسا على مقعده يشاهد التلفاز «فيلم ليوسف وهبي» ممثله المفضل وقد اقترب دخول الليل، نظر لها بترقب، وقال:

ـ ماذا بكِ يا (فوزية)؟!

صمتت هنيهة ثم قالت:

ـ أريد أن أكلمك في موضوع يا (باشا).

ـ تكلمي.

ـ (إسلام) ذهب للمقابر وقابل المرأة المشعوذة (أم الشعور) وقالت له كلام غريب، يبدو أنها تعرف شيء ما، ومن الممكن أن تخبره به.

وضع فنجان القهوة من يده على تلك المنضدة الصغيرة أمامه، وراح ينظر لها مدهوشا بترقب وسألها:

ـ أتقصدين هذه المرأة التي كانت تأتي تخدم في القصر أحيانا، والتي طالما عطفت عليها؟

ـ نعم يا (باشا).

ـ بالطبع أتذكرها رغم أني لم أعرف ملامحها جيدًا لأنها كانت تبتعد عني دائما، وعندما أقترب منها تنظر للأرض، ولم أرى وجهها جيدًا.

صمتت للحظات، ثم أردفت:

ـ أنها تسكن في المقابر وحضرتك ساعدتها كثيرًا قبل ذلك، لكنها لم تعد تأتي للقصر ابدًا، ويبدو أنها تقوم بأعمال السحر، أحيانا تأتي أمام القصر تنظر من بعيد وتمشي دون أن تدخل كما كانت تفعل من قبل، كانت تدخل وتخدم وتطلب المساعدة، وأنا رأيتها أكثر من مرة وطردتها.

ـ إذا أتت مرة أخرى، أدخليها القصر وقولي لها (الباشا)

يريد الكلام معكِ.

ـ حاضر يا (باشا).

راح يكمل قهوته وصمت للحظات ثم تابع:

ـ وماذا ستقول لـ(إسلام) من الأساس، وهي لا تعرف شيئا؟!

ـ يبدو أنها ساحرة محترفة يا (باشا) ومن الممكن أن تخبره بكل ما حصل بسحرها، وأيضًا لم تصبح هي فقط الخطر علينا، (باتعة) لمَحت لي آخر مرة كانت هنا، أنها تعرف أسرار عني.

بنظرة ترقب أردف مدهوشا:

ـ (باتعة) الغزية؟!

ـ نعم يا (باشا) قالت لي، أن البيه الصغير الله يرحمه عرفها أشياء كثيرة عني، وأخاف أن تكون عرفت شيء مما حصل.

صمت هنيهة وراح يفكر؛ ثم قال:

ـ لا تخافي؛ (باتعة) أمرها سهل، المهم (أم الشعور) أريد أن أتكلم معها.

بنبرة خائفة ردت:

ـ أنا..

وهنا قاطعتها (كندا) بعد أن هبطت السلم من غرفتها، واقتربت نحوهما ترتدي هوت شوت أحمر اللون وقميصا أسود ربع كوم، تتراقص بخفة ودلال، فحدق لها جدها بتمعن وقال غاضبا:

ـ ما هذا اللبس؟!

بنبرة موسيقية أردفت باسمة:

ـ أنا في القصر يا جدي، لا أحد يرانا من سكان القرية.

رد باسما:

ـ طيلة عمرك شقية يا (كندا).

وهنا اقتربت منه وقبلت رأسه، ونظرت لها (فوزية) وقالت:

ـ اتركها تلبس وتفرح يا (باشا) ربنا يسعدك دائما يا (كندا هانم).

اقتربت منها (كندا) وقبلتها وقالت:

ـ Thanks يا طنط.

ثم خرجت سريعا لحديقة القصر، وراحت تقفز وهي تسير وكأنها طفلة صغيرة، وتدندن أغنيتها الأجنبية المُفضلة، ثم

شرعت تنادي عاليا:

ـ (جيسي).

ظهرت القطة من بين الأشجار، واقتربت منها فحملتها على ذراعها وراحت تقبلها.

وداخل القصر نظر (الباشا) لـ(فوزية) وقال:

ـ هل هناك أي شيء آخر؟

صمتت للحظات؛ ثم قالت بتوجس وحذر:

ـ هناك أمر يا (باشا) لو حصل من الممكن أن يزيح هذا الكابوس عن صدرونا، أتمنى حضرتك توافق عليه.

رد سريعا بترقب:

ـ وما هذا الأمر؟

أخبرته بما تريد، بحدقتين متسعتين ومتقدتين شرارًا، نظر لها مدهوشا مصدوما، ثم نهض من مكانه ومسك عكازه وراح يضربها ضربات متتالية بقوة، والتي تسببت في صراخها بشدة، دلفت (كندا) بسرعة على صراخها، ونظرت لهما بصدمة؛ فتلك هي المرة الأولى التي تري جدها يضرب (فوزية).

ماذا قالت له كي يضربها دون رحمة هكذا؟!...

(١٥)

ـ أنا أشعر أن (إسلام) مهتم بـ(كندا هانم) يا (باشا) وهي أيضا، وحضرتك عارف أن كل الخطر أنهما ممكن أن يعرفا شيئًا مما حصل زمان.

هكذا قالت (فوزية) لـ(نُعمان باشا) وصمتت للحظات وراحت تنظر له، حدق لها بوجوم، وقال:

ـ أكملي، ماذا تريدين أن تقولي؟

بنبرة ناعمة، ردت متمتمة:

ـ ممكن نزوج (كندا هانم) لـ(إسلام) ويعيشوا في قصر «الإسكندرية» ويبعدوا عن «بسنتواي» للأبد وعن إنهم يعرفوا أي شيء عن الماضي.

وكانت هذه الكلمات السبب في ضربها بشدة، دلفت (كندا) لبهو القصر ورأت جدها يضربها بقسوة، فاقتربت نحوهما سريعا، وقالت مدهوشة:

ـ هذا يكفي يا جدي.

ابتعد عنها، ونظر لـ(كندا) وقال مغتاظا:

ـ تستاهل القتل.

اقتربت (كندا) نحوها وراحت تربت عليها، وقالت آسفة:

ـ ماذا حصل يا طنط؟!

ردت وهي مازالت تبكي بحرقة:

ـ لم يحصل شيء يا هانم.

بحدقتين متسعتين نظر (الباشا) لـ(فوزية) وصاح غاضبا:

ـ لا أريد أن أسمع أية كلمة أخرى، وهيا أذهبي للمطبخ.

ـ حاضر يا (باشا).

غادرت المكان ودموعها مازالت تسيل، وراحت (كندا) تحدق لجدها مُتعجبة، ثم جلست بجواره بعد أن جلس على مقعده وأردفت:

ـ لماذا كل هذا يا جدي؟!

صمت للحظات، وهو متكئا على عكازه، ينظر للأرض بوجه شديد الاحمرار من التعصب؛ ثم حدق لها وقال غاضبا:

ـ (كندا) اذهبي لغرفتك، لا أريد أن أتكلم الآن.

ترقرقت عينيها بالدموع وصمتت البتة، وراحت تنظر له ووقفت من مكانها وتحركت تجاه السلم وصعدت لغرفتها.

وفي المساء، عادت (فوزية) لمنزلها، بوجهٍ شاحب نظرا

للضرب على وجهها وهناك بعض من الكدمات تحت عينيها، لتجد أبنها يجلس في الردهة، نظر لها وسألها بترقب:

ـ ماذا بكِ يا أمي، وما تلك الكدمات التي في وجهك؟

صمتت للحظات، بعد أن جلست بجواره على الحصيرة أرضًا، ثم قالت:

ـ ليس هناك شيء يا حبيبي، فقط سقطت على وجهي أثناء نزولي سلم القصر.

حدق وتمعن في وجهها، وأردف مغتاظا:

ـ أخبريني الحقيقة يا أمي، هل هناك أحد مد يده عليكِ؟

ـ من سيضربني غير أبيك، وأنا لم أره منذ البارحة.

أومأ برأسه وصمت، ثم وقف وأحضر قليلا من الثلج وراح يضعه على الكدمات، وتابع:

ـ سلامتك يا أمي، يا رب أنا وانت لا.

فرت دمعة من عينيها إلى وجنتيها، وتابعت:

ـ تسلم من كل شر يا حبيبي.

مرت هذه الليلة على (كندا)، وهي في غرفتها تسأل نفسها، لماذا ضرب جدها (فوزية) هكذا. وفي الصباح الباكر، حضرت

(فوزية) للقصر كالعادة وكأن شيئًا لم يكن ولم تُضرب مطلقا أمس وأحضرت الإفطار على المنضدة في البهو، وراح (الباشا) يتناول طعامه وهو يجلس على رأس المنضدة، وهي تقف بجواره باسمة تضع ما تبقى من الطعام وتصب له القهوة، حدقت لها (كندا) مدهوشة من أمرها، وهي تجلس على يمين جدها، وغمغمت:

ـ معقول بعد كل ما حصل أمس، تأتي للقصر مرة أخرى وكأن لم يحصل أي شيء ولم تضرب أبدا، وتضحك هكذا رغم أن أثر الضرب والكدمات مازال على وجهها!

نظر لها جدها وقال:

ـ هل هناك شيء يا (كندا)؟

ـ No.

فراح يكمل طعامه وصمت للحظات ثم قال:

ـ لقد انتهى الأسبوع، ويجب أن تسافري «الإسكندرية» لتكملة دراستك يا صغيرتي، أم أنك تعودتِ على القرية وستهملين الدارسة.

ارتجفت أطرافها وحدقت له خائفة، وأردفت:

ـ أكيد سأسافر لـ «الإسكندرية» ولكن please لا أريد أن

أعيش في القصر هناك، أريد أن أسكن في السكن الجامعي مع الطالبات أو في أي شقة أخرى.

ترك الطعام من يديه ورد غاضبا منزعجا:

ـ لقد تكلمنا في هذا الموضوع سابقا، وقُلت لكِ مستحيل حفيدة (نُعمان باشا) تسكن في السكن الجامعي أو في شقة ونحن نمتلك قصر يرمح فيه الخيل.

ظهرت الدموع بعينيها، وبصوتٍ خافت خائف تابعت:

ـ هذا القصر يحصل به أشياء غريبة، لو قُلت لحضرتك عليها لن تصدقني.

رد باسمًا وهو يكمل طعامه من جديد:

ـ كفِ عن كل هذا الهُرَاء يا (كندا) وجهزي نفسك كي تسافري اليوم آخر النهار.

صمتت ولم تكمل طعامها وغمغمت:

ـ ماذا سيحصل لي مجددا في هذا «القصر الملعون»؟!

وغادرت المكان وصعدت السلم ودلفت غرفتها، وأغلقت الباب خلفها وتحدثت في هاتفها المحمول وقالت:

ـ (إسلام) جدي مُصمم أني أسافر «اسكندرية» اليوم آخر

النهار، ومُصمم أني أعيش في القصر هناك، وأنا خائفة أرجع القصر مرة أخرى.

ـ سأسافر معكِ اليوم، وأوصلك القصر، وأرى (الدادة) و(الحارس) وأعرف قصتهم بالضبط.

ـ مستحيل تخرج معي في السيارة من القرية، من الممكن أن يراك أحد ويخبر جدي، وتبقى مصيبة كبيرة.

ـ لن أخرج معكِ، سأنتظرك في «أبو حمص».

تورد وجهها بالابتسامة بعد أن شعرت بالسعادة وتابعت:

ـ Ok, يا حبيبي أنه حل رائع.

وبعد هذه المكالمة والتي جعلتها تشعر بالاطمئنان بعض الشيء، اقتربت من (جيسي) والتي تنام على سريرها وحملتها وراحت تقبلها وهي تتراقص في غرفتها فرحًا.

ومع الغروب، وقد بدأت الشمس تتثاءب مُعلنة عن رغبتها في الانصراف، استقلت سيارتها وخرجت من القرية، وراحت تشق الطريق، والذي يبدو مزدحما الآن نظرًا لعودة الفلاحين لمنازلهم بحيواناتهم من الحقول، حتى وصلت «أبو حمص» واستقل (إسلام) معها السيارة، وانطلقت سريعا لـ«الإسكندرية» تارة تحدق له وتارة أخرى للطريق أمامها،

وهي تشعر بالغبطة والسرور، وهو يحدق لها بحب وحنان صامتا، و(جيسي) تتحرك في السيارة بينهما، تتنقل من المقعد الخلفي للأمامي ثم تعاود القفز على ذراع (كندا) مرة أخرى وكأنها تشعر بالفرح أيضا، تشاركهما تلك اللحظات الجميلة. وصلا القصر ليلا وراحت (كندا) تعطي إشارة ببوق سيارتها كي يفتح لها (الحارس) البوابة، ظلت ما يقرب من الخمس دقائق ولكن هيهات هيهات أن يفتح لها، يبدو أنه لا يجلس خلف البوابة الآن. أخرجت (كندا) مفتاحًا من حقيبة يدها وأعطته لـ(إسلام) وقالت مدهوشة:

ـ Please, أفتح البوابة.

هبط بسرعة وفتح البوابة ودخلت بالسيارة وهي تنظر حولها في كل مكان بحثا عن (الحارس) والذي لا يظهر البتة حتى مقعده قد توارى. ركنت السيارة في الحديقة، وشرعت أن تحمل حقيبتها منها، فأقترب (إسلام) سريعا وحمل الحقيبة على كتفه، وسارا في هذا الممر الصغير بين الأشجار متجهين لباب القصر. ظهر القصر مظلم تماما، وكأن لا يوجد أحد داخله، حدقت (كندا) له مُتعجبة وغمغمت:

ـ لماذا القصر مظلم هكذا، أليس بداخله (الدادة) و(الحارس)؟!

وصلا الباب وفتحته ودلفا للبهو، وراحت تنادي عاليا:

ـ (دادة).

ولكن لم يجب أحدا مطلقا، وهنا دنا (إسلام) من زر المصباح الكهربائي وضغط عليه، وأنار القصر ورآه، وقال باسمًا:

ـ هذا القصر يشبه القصر في «بسنتواي» بالضبط.

حدقت له وراحت تقهقه، وأردفت:

ـ أنت أول مرة تعرف هذا! أنا قُلت لك سابقا أنهما نفس التصميم والديكورات والتحف, ونفس المساحة.

راح يتجول في البهو، وأردف باسما:

ـ حقا، أنه نسخة من القصر في القرية، لم أكن أتخيل أنه يشبهه بهذه الدرجة!

ووقف أمام ثلاث صور على الحائط، وحدق جيدَا، وتابع وهو يشير لهم بسبابته:

ـ (نُعمان باشا) و(تيمور) ولكن صورة من هذه التي بجانبهم يا (كندا)؟!

اقتربت منه وراحت تحدق للصور وأجابت:

ـ صورة مامي.

أردف باسما:

ـ تبدو جميلة، رغم ملامحها القوية.

ظلت تحدق لها وتابعت شاردة:

ـ لم أتذكرها جيدًا لأنها ماتت وأنا صغيرة، ولكن جدي أخبرني كثيرًا أنها كانت صعبة وتحب (تيمور) أكثر مني، وبابي الله يرحمه كان يحبني أكثر منها.

استدار لها وسألها مدهوشا:

ـ وأين صورة أبيك؟!

تنفست الصعداء وتنهدت بقوة، وترقرقت عينيها بالدموع، وبوجه ممتقع تابعت:

ـ ليس هناك أية صورة له، حتى أنا لا اعرف شكله، لأنه مات وأنا صغيرة.

سألها بترقب:

ـ ولماذا لا توجد صور له؟!

راحت تحدق لصورة أمها بكره وغضب، وبنبرة حزينة أجابت:

ـ قال لي جدي أن مامي كانت تكره بابي بشدة، ومن شدة

كرها له، حرقت كل صوره بعد موته.

نظر لها مُتعجبًا وأردف:

ـ معقول، كانت تكره لهذا الحد!

تابعت حزينة:

ـ وأكتر من ذلك، و(تيمور) نسخة من مامي، عديم القلب والرحمة.

نظر لها وهو يشعر بالحزن والأسف وقال:

ـ آسف يا (كندا) أني ذكرتك بكل ذلك.

ـ لا داعي للأسف يا حبيبي.

وهنا رن هاتفها المحمول؛ فأخرجته من حقيبة يدها ونظرت لشاشته وقالت:

ـ (الدادة) ثم ردت عليها وراحت تسمع لها، وانتهت المكالمة ونظرت له وتابعت:

ـ قالت لي، أن (الحارس) عنده ظروف وأخذ أجازه اليوم، وأنها غادرت القصر خوفًا أن تبقى وحدها.

رد غاضبا:

ـ أردت أن أتعرف عليهما وأحاول أربط بين ما حصل معكِ

وبينهما.

راحت تفكر للحظات ثم ردت:

ـ من الممكن أن تقابلهما مرة أخرى وتتعرف عليهما.

وصمتت هنيهة وراحت تفكر، ثم تابعت:

ـ من المفترض أنك كنت ستتعرف عليهما وتذهب تبيت عند أحد أصدقائك، ولكن لو غادرت القصر الآن، أخاف أبيت وحدي، أرجو أن تبيت معي هنا الليلة، ونذهب غدًا للكلية معا.

صمت للحظات وراح يفكر، ثم أردف:

ـ كيف أبيت معكِ وحدنا يا (كندا)؟!

حدقت له باسمة، وتابعت:

ـ (إسلام) ماذا تقول؟ أنت حبيبي، إذا خِفت من العالم كله مستحيل أخاف منك، أنت مصدر الأمان الوحيد لي في هذا الكون.

ـ (كندا) أنتِ قلبي، ولكن أتكلم عن الأصول التي تربيت عليها، ماذا لو عرف أي شخص بهذا وأنا فلاح ولن أسمح لـأي شخص أن يتكلم عنك ولو بكلمة.

اقتربت منه وراحت تحدق بعينيه وقالت باسمة سعيدة:

ـ لن يعرف أحد مطلقا بهذا الأمر.

صمت للحظات؛ ثم قال وهو يشير بسبابته على هذه الأريكة في البهو:

ـ حاضر يا (كندا) سأبيت معكِ ولكن بشرط، أنام هنا، وأنتِ تنامين في غرفتك.

ـ Ok, يا حبيبي.

صعدت لغرفتها في الطابق العلوي وبدلت ملابسها ثم نزلت له مرة أخرى، حدق لها ورآها ترتدي بيجامة من الحرير، حمراء اللون وشعرها خلفها يلمع مع ضوء الأنوار في القصر، ظهرت كملكة على عرشها، قال باسمًا:

ـ ما هذا الجمال؟ حقا حورية من السماء.

احمرت وجنتيها خجلا وقالت باسمة:

ـ شهادة أعتز بها من فارس أحلامي.

ـ هذا ليس كلامي وحدي يا (كندا) كل من يراكِ يقول أنك أكيد من العالم الآخر.

راحت تنظر له سعيدة وكأنها تُحلق في السماء، واقتربت

منه وأمسكت يديه وحدقت في عينيه وصمتت، فاقترب منها أكثر وضمها بين ذراعيه، وهنا تشبثت برقبته، وقربت شفتيها من شفتيه ببطء وراحت تقبله بنهم دون أن تشعر، حملها من الأرض وضمها أكثر وأكثر، حتى صارت كالدمية بين يديه، وكأنهما طالما كانا ينتظران تلك اللحظات شوقا، ساد الصمت المكان دون صوت هذه القبلات المتتالية والتي ذهبت بهما لعالم آخر من النشوة. ولكن كان هناك خيال لشخص يقف خلف إحدى ستائر البهو يراقبهما بصمت، وبعد أن غرقا شوقا وحبا وهم بها، أفاق (إسلام) ونظر لها وبخجل قال باسما:

ـ هذا يكفي يا حبيبتي.

ابتسمت خجلا وصمتت، ثم ذهبت للمطبخ وأعدت عشاء وأحضرته على تلك المنضدة في البهو، وجلسا يتناولان طعامهما والسعادة تغمرهما، وبعد الانتهاء من الطعام، استلقى (إسلام) على الأريكة في البهو وغلبه النعاس، و(كندا) تجلس بجواره بصمت تحدق له بتمعن.

وبعد منتصف الليل، استيقظ من نومه، ليجدها قد دخلت في سبات عميق على مقعدها وهي جالسه بجواره، نظر لها باسما ونهض من مكانه وحملها على كتفه وهي مازالت نائمة وصعد بها السلم، ودلف غرفتها ووضعها في فراشها وأسدل

عليها غطاءها، وجلس بجوارها على مقعد وراح يحدق لها بتمعن وصمت دون أن يصدر أي صوت حتى لا تستيقظ من نومها، وكأنه أرد أن يشبع من ملامحها، حتى غلبه النعاس من جديد وأخلد للنوم، وهنا ظهر شخص من خلف ستارة الغرفة، راح يحدق لهما بهمهمات غير مفهومة، إلى أن كشف عن وجهه...

(١٦)

بجسد مكور ظل جالسا داخل «المقبرة الملعونة» وبجواره شعلة النار الصغيرة، يدفن رأسه بين ركبتيه وقد ساد الهدوء، شعر بالظمأ الشديد، فرفع رأسه وحدق حوله، وهنا ظهرت الفتاة من جديدة، ترتدي فستانا كاملا يغطي جسدها حتى قدميها أسود اللون، وراحت تقترب منه بهدوء، ناظرة للأرض وبيدها اليمنى قارورة صغيرة من الماء، حدق لها من جديد، وبصوت واهن قال:

ـ (كندا).

قالها (إسلام) وهو يلهث من الظمأ، اقتربت منه وانحنيت بجسدها ورفعت القارورة على فمه، وراحت تسقيه دون أن تتفوه بأي كلمة، وهو مازال مكانه مُنهكا، ظل يشرب أكثر وأكثر حتى ارتوى جسده ورجعت به الحياة من جديدة وظهر مُفْعَمًا بالحيوية، ثم حدق لها باسمًا، وأردف:

ـ شكرًا يا (كندا) ولكن كيف عرفتِ أني أريد الماء؟!

لم ترد البتة، ووضعت القارورة على يمينه وجلست عن يساره، ونظرت في نهاية المقبرة للحظات، فأخذ يحدثها بكلام كثير ولكنها لم ترد مطلقًا وكأنها لا توجد في المكان، إلى أن ظهرت سيدة مسنة تأتي من نهاية المقبرة في الظلام

والعتمة ترتدي ثوبًا أسودًا من رأسها لقدمها، ظهر منه فقط وجهها، واقتربت منهما متكئة على عكازها، ووقفت أمامهما وجها لوجه ودفنت رأسها في الأرض، فحدقت لها الفتاة وراحت تنشج بقوة وتحدثها بعنف وغضب وتبادلت معها هذه السيدة الحديث بغضب وعنف وكأن بينهما ثأر لدقائق (إسلام) ينظر لهما مُتعجبًا لا يفهم أي كلمة من حديثهما، وهنا حدق للفتاة وصاح مغتاظا:

ـ (كندا) ماذا تقولان؟! لم أفهم أي كلمة من حديثكما هذا، وما علاقتك بـ(أم الشعور) ولماذا تعنفينها هكذا؟!

لم تنظر له البتة وكأنها لا تسمعه، وظلت تتحدث مع هذه السيدة بتلك الطريقة الغريبة والغير مفهومة، إلى أن أخرجت هذه السيدة شرارات نار من عينيها وراحت توجهها في وجه الفتاة وصرخت بقوة، وراحت الفتاة تخرج من عينيها أيضًا شرارات من نار وتوجهها لها وصرخت مثلها، تلك الصراخات التي كادت أن تفقد (إسلام) سمعه، فوضع يديه على أذنه ودفن رأسه بين ركبتيه مرة أخرى حتى لا يرى هذا المشهد. ظل الصراخ يحيطه من كل اتجاه وسمع صوتًا غريبًا آخر، رفع رأسه ورأى المقبرة قد امتلأت بالخفافيش في كل مكان تهاجم الفتاة، شرع يدافع عنها ويبعدهم بيديه، وصاح غاضبا:

ـ ابعدوا عن (كندا).

وفي تلك اللحظات، ضحكت السيدة العجوز بأعلى صوتها وقهقهت وهي تتحدث للفتاة بتلك الطريقة الغير مفهومة، اقتربت الخفافيش من رأس (إسلام) وراحت تحيطها؛ فصرخ بقوة وتابع:

ـ ابعدوا عني.

ودفن رأسه بين ركبتيه مرة أخرى، وهنا اختفى الصراخ وصوت الخفافيش، فرفع رأسه لقد عادت المقبرة كما كانت منذ قليل توارت الفتاة، السيدة العجوز وأيضا الخفافيش، قارورة الماء وشعلة النار فقط بجواره فصاح:

ـ (كندا) لماذا تركتني وحدي مرة أخرى؟!

***

إنها (الدادة) تنظر لهما بغضب من خلف الستارة، و(كندا) مازالت تنام في فراشها و(إسلام) ينام على مقعدٍ بجوار سريرها، وظلت تراقبهما إلى أن أذن الفجر، فتوارت دون أن تشعرهما بأي شيء.

وفي الصباح، استيقظت (كندا) لتجد نفسها في فراشها، راحت تفرك يديها بعينيها، ثم جلست على سريرها ونظرت

حولها وهي تتمدد بجسدها، يبدو أنها نامت كثيرًا وشعرت بالراحة والاسترخاء، رأت (إسلام) مازال نائما على هذا المقعد، ابتسمت بهدوء وتحركت من فراشها نحوه وراحت تحدق له للحظات، وكأنها تريد أن تشبع من ملامح وجهه وهو نائما، ثم بدأت تلمس بيدها على شعر رأسه، وهنا استيقظ وحدق لها وقال باسما:

ـ صباح الخير على أجمل عيون في الكون كله.

بابتسامة أنارت وجهها، حدقت في عينيه وقالت:

ـ Good morning my love.

ظلا ينظرا لبعضهما بهدوء وقال:

ـ هيا بنا كي نلحق بأول محاضرة.

ـ نصف ساعة أكون جهزت نفسي ونمشي فورًا يا حبيبي.

ـ سأنتظرك بالأسفل.

ومع نسمات هواء الصباح، وغناء العصافير أعلى الأشجار في حديقة القصر، ورائحة الزهور العطرة، استقلت (كندا) سيارتها وبجوارها (إسلام) وخرجا من بوابة القصر متجهين للكلية، وبينما هما على بوابة القصر، هناك من يقف في شرفة القصر المُطلة على الحديقة يراقبهما بصمت، وغمغم:

ـ مع السلامة يا (كندا).

إنها (الدادة). وبعد خروجهما من البوابة، أغلقها (إسلام) خلفهما، ظهر (الحارس) يجلس على مقعده خلف البوابة وراح ينظر لهما من ثقب في البوابة، وقال بحب:

ـ مع السلامة يا (كندا).

***

حديقة الكلية، على الحشائش بين الأشجار، جلس (إسلام) و(كندا) مع انتهاء المحاضرات والعملي يتحدثان عن ليلة أمس والتي مرت سريعا وكم يتمنا أن تتكرر مرة أخرى، دنا منهما (أحمد) يحمل بيده ثلاثة أكواب من القهوة وأعطى كل واحد منهما كوبه وراح يرفع كوبه على فمه وأخذ منه رشفة وقال ضاحكا:

ـ معقول أعزم واحدة بنت باشوات وعايشه في قصور على القهوة، المفروض أنتِ تعزمي الكلية كلها.

ابتسمت (كندا) والكوب بيدها، وردت:

ـ أظن أنا عزمتك كثيرًا من قبل.

نظر لـ(إسلام) وقال باسمًا:

ـ (كندا) تعايرني بأنها عزمتني مرة أو مرتين يا صديقي؟!

أطلق (إسلام) إيماءة ساخرة وراح يقهقه وأردف:

ـ مرة أو مرتين، أنت نصاب يا (أحمد).

صمت هنيهة وغمز بعينه اليمنى، وراح يحك سبابته بشعر رأسه ثم قال:

ـ كي لا أكذب، تقريبا خمس مرات.

نظر له (إسلام) وهو مازال يضحك وتابع:

ـ نصاب كبير.

ضحك (أحمد) عاليا وتابع:

ـ هيا بنا نتحرك لنلحق بالقطار.

نظرت له (كندا) وقالت باسمة:

ـ إذا لم تلحقوا بالقطار أوصلكم بسيارتي لـ«أبو حمص» يا (أحمد).

وهنا حدق في عينيها وقال:

ـ وربنا أنتِ أجمل بنت في العالم كله.

نهض (إسلام) من مكانه وضربه على كتفه بيده وقال:

ـ هيا بنا يا نصاب.

ثم حدق لـ(كندا) وقال باسما:

ـ نتقابل غدا إن شاء الله.

ـ إن شاء الله يا حبيبي.

وفي نهاية هذا اليوم، عادت (كندا) للقصر في «كفر عبده»، وعلى بعد أمتار من القصر، فُتحت بوابته ودخلت بسيارتها، (الحارس) يقف خلف البوابة، حدقت له باسمة وقالت:

ـ حمد الله على السلامة.

غمرها حبا بنظراته وبنبرة حانية أردف:

ـ الله يسلمك يا (كندا هانم).

ـ قُلنا اسمي (كندا) فقط من غير هانم.

ـ حاضر يا (كندا).

ركنت سيارتها ودخلت القصر، كانت (الدادة) تنتظرها في البهو، وانهمرت في البكاء عندما اقتربت منها (كندا). صُدمت (كندا) وحدقت لها وقالت مقتضبة:

ـ لماذا تبكين يا (دادة)؟!

حدقت لها وصمتت هنيهة، ثم ردت بصوت مبحوح من البكاء:

ـ لأنك وحشتني جدا يا (كندا هانم).

مقطبة جبينها في استهجان نظرت لها (كندا) بابتسامة ساخرة، يبدو أنها فهمت خبثها ومكرها وتابعت:

ـ لقد غبت عن القصر أيام قليلة، لا تستدعي كل هذا البكاء.

ردت وهي مازالت تبكي:

ـ وحتى لو يوم واحد يا هانم، صرت أحبك كثيرًا ومُتعلقة بكِ وبوجودك في القصر.

أطلقت (كندا) إيماءة ساخرة ثم قالت باسمة بغير اكترات:

ـ سأصعد لغرفتي الآن، أريد أن أبدل ملابسي وأستريح في فراشي.

ردت بصوت مرتفع قليلا:

ـ والعشاء يا هانم.

استدارت (كندا) بعيدًا عنها وراحت تسير نحو سلم القصر وأردفت:

ـ لست جائعة.

حدقت لها بخبث واختفت الدموع من عينيها في التو واللحظة وغمغمت باسمة:

ـ حاضر يا (كندا).

وفي هذه الليلة، خلدت (كندا) للنوم في سبات عميق بعد يوم شاق في الدراسة، وبعد منتصف الليل استيقظت على خطوات أقدام تصعد ببطء شديد على السلم، وتقترب من غرفتها المُغلق بابها، حتى وصلت أمام الباب وتوارت اعتدلت من نومها وجلست على سريرها مرتجفة، ازدردت ريقها وصار حلقها جافا وقالت:

ـ من بالخارج؟!

لم يجب أحد البتة، فكررت مرة أخرى وهي مازالت ترتعش:

ـ من يقف بالخارج، (دادة)؟!

فلم يجب أحد أيضا، استلقت على سريرها مرة أخرى وغطت نفسها بالبطانية ودفنت رأسها تحت وسادتها للحظات، إلى أن سمعت صراخ متقطع بجوار نافذة غرفتها، فجلست مكورة وسط سريرها، وبصوت خافت تابعت:

ـ من بالخارج؟!

لم يجب أحد، واختفى الصراخ وسمعت من يتحدث خلف النافذة متمتما وقال:

ـ وحشتني جدا يا (كندا) اتمنى أن تأتي عندي قريبا.

صُدمت، وتصلب شعر رأسها وتجمدت مكانها، واقشعر جسدها وراحت تتصبب عرقا، وهي مازالت فوق سريرها، وبصوت متحشرج قالت:

ـ (دادة)؟!

وهنا توارى الصوت للحظات، ثم سمعت بعد ذلك صرخات قوية بجوار النافذة كادت أن تفقدها سمعها من شدتها، والتي راحت تبتعد تدريجيا في الحديقة وتوارت، هبطت من سريرها واقتربت من باب غرفتها، تحدق له بخوف، وسمعت همهمات خلفه غير مفهومة، شرعت تتلو آية الكرسي، ثم تشجعت وفتحت الباب، ورأت سيدة من ظهرها ترتدي ثوبا أسود اللون من رأسها لقدمها تمسك شعلة صغيرة من النار، راحت تهبط السلم بهدوء مغمغمه بكلمات غير مفهومة، فحدقت لها بتمعن وقالت:

ـ (دادة)؟!

وفي تلك اللحظات، وقد وصلت لمنتصف السلم استدارت ورأتها (كندا)، ابيضت عينيها واتسعت حتى وصلت لـأذنها، وشُق فمها بالعرض حتى رقبتها وراحت تخرج من فمها وعينيها شرارات من النار وتوجهها لوجه (كندا) وهي تصرخ

وصاحت:

ـ وحشتني جدا يا (كندا) أتمنى أن تأتي عندي قريبا.

صرخت (كندا) بكل قوتها وشعرت بالدوار وسقطت مغشيًّا عليها، وفاقت لتجد نفسها في فراشها، وراحت تحدق حولها فرأت (الحارس) يجلس بجوارها على السرير، ظلت تصرخ لدقائق وصاحت:

ـ أريد أن أمشي من هنا.

اقترب منها (الحارس) وضمها بين ذراعيه وبنبرة حانية قال:

ـ لا تخافي يا (كندا) أنا جانبك ومعكِ.

شعرت بالأمان والطمأنينة بعض الشيء عندما ضمها في حضنه وتابعت باكية:

ـ أرجوك، أخرجني من هنا الآن، أريد أن أسافر «بسنتواي».

رد وهي مازالت في حضنه وقد هدأت قليلا:

ـ من الصعب أن تسافري الآن، الدنيا ليل والليل ليس له أمان.

صمتت للحظات، وهي تبكي وسالت دموعها على كتفه،

إلى أن رأت (الدادة) تدخل من الباب تحمل (جيسي) على ذراعيها وبيدها كوبا من الليمون، وهنا صاحت صارخة:

ـ اخرجي من هنا، لا أريد رؤيتك مرة أخرى، أنتِ من ظهرتِ لي.

ثم ابتعدت عن (الحارس) وراحت تحدق له وتصرخ باكية وأردفت:

ـ هي التي ظهرتِ لي المرة السابقة والليلة لتخيفني، وقالت كلام غريب وغير مفهوم.

اقتربت منها (الدادة) وبصوت خافت قالت باسمة:

ـ (كندا هانم) يا حبيبتي، أنا (الدادة) ولست شخص آخر، وما هذا الكلام الغريب؟! لا أفهم أي شيء من كل هذا يا صغيرتي الجميلة.

نظرت لها، وهي مازالت ترتجف وصرخت من جديد، وبصوت مبحوح قالت:

ـ أعرف جيدًا أنك (الدادة) وأعلم جيدًا أنكِ أنتِ التي ظهرتِ لي المرة السابقة والليلة، أنا متأكدة وواثقة من كل كلامي.

وهنا وقف (الحارس) من مكانه وحدق لـ(الدادة) غاضبا،

كاد أن يحرقها بنظراته وصمت وراحت (الدادة) تبادله بنفس النظرات و(كندا) مازالت تصرخ، ثم دنا من (الدادة) وأخذ من يدها العصير وبحدة وعنف قال:

ـ اخرجي من هنا الآن لو سمحتِ.

أومأت برأسها إيجابًا، ونظرت له ثم حدقت لـ(كندا) باسمة ساخرة، وغادرت الغرفة بصمت، وتركت (جيسي) والتي اقتربت من (كندا) سريعا وراحت تحرك ذيلها بجسدها، قبلتها من رأسها، وبنبرة حزينة تابعت:

ـ أين كنتِ، ولماذا تركتني وحدي يا (جيسي)؟!

اقترب (الحارس) منها، وبحب وعطف نظر لها وقال:

ـ اشربِ الليمون وحاولي تنامي يا (كندا).

بنظرة خائفة حدقت له وهي تحتضن (جيسي)، وأردفت:

ـ وكيف أنام بعد كل ما حصل الليلة؟!

جلس على مقعدٍ بجوار سريرها، وبوجه ممتقعٍ راح يحدق لها وتابع:

ـ لا تقلقي؛ أنا جانبكِ ومعكِ حتى تشرق الشمس.

ومع حدوث كل هذا لـ(كندا) هذه الليلة، وقف (إسلام) في

نافذة غرفته وقد اقتربت الساعة على الثانية بعد منتصف الليل وحدق جيدًا للقصر ورأى...

(١٧)

السماء صافية تلك الليلة، نور القمر راح يتراقص فوق القصر يغازله، وأشجار الزينة في حديقته تُعانق السماء، تتمايل فروعها مع نسمات الهواء المعطرة برائحة الزهور، وقف (إسلام) كالعادة في نافذة غرفته ينظر للقصر وقد اقتربت الساعة على الثانية بعد منتصف الليل، تارة يحدق له وتارة للقمر، ما يقرب من النصف ساعة حتى وقعت عينيه على هذه الصخرة بجوار الإسطبل ورأى، (أم الشعور) ظهرت من جديدة تجلس أعلاها، ازدرد ريقه، وغمغم مدهوشا:

ـ (جيسي)!

نعم، إنها (جيسي) تحملها (أم الشعور) على ذراعها وتقبلها من رأسها وهي تضحك وكأنها سعيدة، وثب من مكانه ليتحقق مما رأى وتابع:

ـ معقول تكون (كندا) رجعت القرية الليلة! ثم نادى بأعلى صوته:

ـ (جيسي).

قهقهت (أم الشعور) ونظرت له ساخرة دون أن تتفوه البتة، خرج بسرعة من منزله وراح يركض للقصر، ووصل أمامه، وجد بوابته قد فُتحت بهدوء، فدلف منها وراح يسير ببطء

نحو الإسطبل خائفا، ونظر لنافذة غرفة (كندا) والتي ظهرت مظلمة تماما، اقترب من (أم الشعور) والتي ترتدي جلباب أسود اللون، قد غطى الصخرة حولها تماما، وشعرها الأبيض يتطاير خلفها كالعلم، وظهر جلد وجهها مجعدًا بطريقةٍ مخيفة، وراحت تقبل (جيسي) والتي مازالت على ذراعها، بلع ريقه وصار حلقه جافا، لا يستطيع أن يحرك لسانه، محدقا لها قال بصوت متحشرج متلعثما:

ـ أنتِ ظهرتِ هنا مرة أخرى يا ملعونة، وماذا تفعل (جيسي) معكِ، هل عادت (كندا) من «الإسكندرية»؟!

صمتت للحظات، ثم نظرت له وقد ابيضت عينيها، ابتعد عنها بعد أن اقشعر جسده وتصبب عرقا، ولكن فجأة شعر بهواء بارد يحيطه من كل جانب كالدوامة وراح هذا الهواء يجذبه دون أن يشعر ليقف أمامها، وبحدقتين متسعتين أكثر نظرت تحت قدميه وغمغمت بكلمات غير مفهومة وكأنها تتحدث مع شخصٍ ما، وفي تلك اللحظات، شعر (إسلام) أن الأرض تُفتح من تحت قدميه، فنظر أسفل قدميه ورأى مخالب طويلة ظهرت من الأرض تقترب منه وغُرست بقدميه من الخلف، شعر بألم شديد لم يشعر به في حياته قبل ذلك وصرخ بقوة، وحاول أن يبتعد عن هذا المكان ولكنه لم يستطع وكأن شخصا ما قيده ومنع حركته، وهنا

فتحت عين أسفل منه وسقط في غرفة صغيرة تشبه القبر وأغلقت الأرض فوقه، ليجد نفسه في هذا المكان المُظلم وحده، راح ينظر حوله في كل مكان إلى أن رأى (سليمان) في طفولته، عاري الجسد تمامًا دون سترته بين فخذيه، دنا منه وراح ينهش في لحم جسده بتلك المخالب القوية في نهاية يديه وصاح صارخا:

ـ لماذا فعلوا بي هكذا؟!

ظل ينهش في لحم (إسلام) حتى مزق قميصه وسرواله وظهر بملابسه الداخلية فقط، وسال دمه من أجزاء متفرقة من جسده، فدمدم صارخا وصاح:

ـ حرام عليك يا (سليمان) لماذا تفعل بي هكذا؟!

صرخ (سليمان) باكيًا بحرقة وتابع:

ـ لماذا فعلوا بي هكذا؟!

اقترب منه (إسلام) وضمه بين ذراعيه، وهو مازال ينهش في لحم جسده وأردف:

ـ اتركني يا (سليمان) أنا (إسلام) أخيك.

هدأ (سليمان) قليلًا وراح (إسلام) يحدق له، فلم يجده بين ذراعيه، لقد اختفى في التو واللحظة، وهنا شعر (إسلام)

بيدين تقبض على رأسه بقوة ورفعته وأخرجته بسرعة، فالتفت ورأى (أم الشعور) تحدق له وتضحك ساخرة وقالت:

ـ كي تكف عن مطاردتك لي، وهذا آخر تحذير لك.

نظر لنفسه، ملابسه قد مزقت تمامًا دون سترته، جسده ملطخ بالدم من أثر جروح المخالب في لحمه، صمت للحظات وهو في صدمة ثم حدق لها وقال:

ـ ماذا حصل لـ(سليمان) وحوله لهذا الوحش المفترس، وما علاقتكِ به؟!

صرخت باكية بقوة وتساقطت دموعها أرضًا، فحرقت مكانها وتحركت سريعًا وركضت خلف الإسطبل، وهي مازالت تصرخ وتبكي، وهنا تحرك من مكانه بسرعة وخرج من بوابة القصر والتي أغلقت خلفه بقوة وراح يركض لمنزله وصعد لغرفته وخلع سترته ودخل الحمام تحت الماء الدافئ ينظف جسده من الدم باكيا من شدة الألم، ثم نشف جسده وارتدي جلباب على اللحم وتحرك نحو سريره واستلقى وغمغم:

ـ ما هذا الذي حصل، معقول هذا حقيقي أم كان حلم؟!

وفي الصباح خلع الجلباب وقال:

ـ ماذا سأقول لـأمي وأبي لو سألوني عن هذه الجروح؟!

واقترب من المرآة التي بجوار سريره وراح يحدق في جسده بتمعن وهو يرتدي سترته الداخلية فقط والتي تستر عورته، فرأى هذا المنظر الذي كاد أن يسقطه مغشيً عليه وشعر بالدوار، جسده ليس به أي آثار للمخالب ولا أية آثار للجروح، لقد اختفت تماما، وصار جسده كما كان قبل أن يذهب للقصر ليلة البارحة وكأن شيئًا لم يكن، ظل يحدق لجسده وتابع مدهوشا:

ـ أين الجروح وأين آثار مخالب (سليمان) على جسدي؟!

وهنا سمع خطوات أقدام تصعد السلم تقترب من باب غرفته، انتابت القشعريرة جسده وتصبب عرقا وراح قلبه يخفق بشدة رغم أننا في النهار الآن، واستدار ناحية الباب وهو مازال يقف أمام المرآة بسترته فقط، حتى وصلت تلك الخطوات أمام الباب وتوارت بصوت متحشرج وهو يحدق للباب من الداخل قال:

ـ من بالخارج؟

لم يجب أحد، سار تجاه الباب ببطء وكأن كل خطوة مسافة كيلومتر، حتى وصل الباب وفتحه لاهثا وقال:

ـ (سليمان)؟!

ـ ما هذا الذي تقوله يا (إسلام)؟!

تنفس الصعداء وازدرد ريقه واستدار وراح ينظر في المرآة مرة أخرى، وقال متمتما:

ـ لا شيء يا أمي، يبدو أني كنت أحلم.

دلفت أمه لغرفته وراحت تنظر له مدهوشة وأردفت مصبِّرة:

ـ لماذا خلعت ملابسك هكذا، ألم تنسى (سليمان) بعد؟!

اقترب من خزانة ملابسه وأخرج منها قميصا وسروالا وراح يرتدي ببطء، شاردا تائها وترقرقت عينيه بالدموع ثم نظر لـأمه وبصوت واهن تابع:

ـ ومن يستطيع أن ينسى أخيه يا أمي؟! إذا كنتِ أنتِ وأبي نسيتموه، أنا مستحيل أنساه.

حدقت له غاضبة، وقد ارتدى ملابسه وجلس على طرف سريره ووضع يديه على رأسه وراح ينظر للأرض، وقالت مغتاظة:

ـ ومن قال لك أننا نسيناه، لقد تعبنا من البحث عنه كثيرا، أنت كبرت الآن، ابحث عنه يا رب توصل له.

فرت دمعه من عينيه إلى وجنتيه ورفع رأسه ونظر لها وأردف مغتاظا:

ـ سأبحث عنه في كل مكان، ولن أرتاح حتى أعرف الحقيقة وأجده حي أو ميت.

استدارت وراحت تقترب من الباب وخرجت فنظر لها، وقال:

ـ هل عادت (كندا) القصر بالأمس يا أمي؟

استدارت له وهي على أول درجات السلم وأجابت:

ـ لا.

ـ و(جيسي) عادت مع من؟!

تسمرت في موضعها وحدقت له مدهوشة، وتابعت:

ـ ومن قال لك أن (جيسي) عادت؟!

نظر للأرض وصمت وغادرت أمه المكان وراحت تهبط السلم بهدوء، ووصلت الردهة لتجد (عبده) يجلس على الطبلية يتناول إفطاره (حليب من الجاموسة وأرز عليه قليل من السكر) وغمغمت مع نفسها فنظر لها وقال بترقب:

ـ ماذا بكِ يا امرأة؟!

بوجه شاحب حدقت له وقالت متذمرة:

ـ يبدو أن ابنك لا يريد الرجوع عما في رأسه.

ترك الطعام من يده وتابع مدهوشا:

ـ ماذا فعل من جديد؟! «وجه المصائب هذا».

نظرت لغرفته في الأعلى، وبصوتٍ خافت تابعت:

ـ قال إنه لن يرتاح حتى يصل لـ(سليمان) حي أو ميت.

وهنا انزوى (عبده) في ركن الردهة وقال مغتاظا:

ـ سينسى كل شيء مع الوقت، لا تقلقي.

راحت تتجول في الردهة يمينا ويسارا، وتابعت:

ـ أتمنى ذلك، لأنه لو استمر في النبش هكذا، ممكن يعرف ما حصل وتبقى مصيبة.

اعترى الخوف وجوههما وراحا ينظران لبعضهما بصمت.

وفي صباح هذه الليلة خرجت (كندا) من غرفتها في القصر في «كفر عبده» ترتدي فستانا أسود اللون، اختلط لون شعرها معه، وظهرت ملكة تتدلل في البهو، تحمل حقيبة يدها الصغرى بيدها اليسرى و(جيسي) على يدها اليمنى، اقتربت منها (الدادة) وراحت تحدق لها باسمة، تلك الابتسامة والتي تحمل كثيرًا من الخبث واللئم الغير مفهوم وقالت:

ـ هل ستذهبين للكلية الآن يا (كندا هانم)؟

نظرت لها غاضبة ولم تجب البتة، وخرجت من القصر وسارت في هذا الممر بين الأشجار في الحديقة متجهة لسيارتها، واستقلتها و(جيسي) بجوارها على مقعد السيارة الأمامي، وتحركت نحو البوابة و(الدادة) تقف على باب القصر تراقبها بصمت وهي مازالت تبتسم بهدوء وعلى البوابة، وقفت بسيارتها وحدقت لـ(الحارس) دون أن تنطق بأية كلمة؛ فاقترب منها وراح ينظر لها من نافذة سيارتها وبنبرة حانية قال:

ـ لا تغضبي مني يا (كندا) أنا هنا عبد المأمور، لا اعلم أي شيء مما حصل لكِ ليلة البارحة، غير أني دخلت القصر على صراخك، كل ما أريدكِ أن تعرفيه أني أحبكِ مثل ابنتي بالضبط.

وترقرقت عينيه بالدموع وسالت دمعه من عينيه على وجنيته وهو مازال يحدق لها. صمتت هنيهة محدقة له، وشعرت بإحساس غريب تجاهه، لا تستطيع تفسيره غير أن قلبها راح ينبض بمشاعر الحب والأمان له في تلك اللحظات، وقالت:

ـ ابنتك، حضرتك عندك أولاد؟!

ـ كان عندي ابنة جميلة مثلكِ، وكنت أحبها بشدة وعايش لها، وكانت أجمل لحظات حياتي عندما أراها أمامي، لكن للأسف الظروف اضطرتني ابعد عنها، ومن يومها وأنا حزين؛ لذا أول ما رأيتك، أحببتك من قلبي لأنكِ ذكرتِني بها، لأنها كانت في نفس عمرك تقريبا.

نظرت له مدهوشة وتابعت:

ـ وما الظروف التي أبعدتك عنها؟ المفروض كنت تحملت أي ظروف ولا تبعد عنها، لو حقا كنت تحبها.

وهنا انهمر في البكاء وسالت دموعه بغزارة، وبصوت مبحوح تابع:

ـ للأسف صعب أحكي لكِ الآن هذه الظروف، أكيد سيأتي اليوم وأجلس معكِ وأحكي لكِ كل شيء، وأتمنى أن تتفهمين موقفي وقتها، ولا تظلميني كما ظلمني الجميع.

بنظرة عطف أردفت:

ـ Please، هون على نفسك ولا تبكي، وإن شاء الله تقابل ابنتك مرة أخرى، وأنا وقتها سأتعرف عليها وأحاول أفهمها الظروف التي أبعدتك عنها بعد ما تحكي لي.

كف عن البكاء وهز رأسه بصموت ولم يتفوه مجددا، وفتح

البوابة وخرجت (كندا) سريعا.

مر هذا اليوم على (إسلام) ولم يذهب للكلية لما شعر به من ضيق وتعب من ليلة البارحة وكل ما حدث معه من (أم الشعور) و(سليمان) مكث بغرفته طوال النهار، لا يستطيع أن يراجع محاضراته من شدة التعب البدني والنفسي، وبعد آذان العصر وقد توضأ وصلى على سجادة الصلاة في غرفته، وقف ينظر من نافذة غرفته للقصر ويحدق لتلك الصخرة التي كانت تجلس عليها (أم الشعور) ليلة البارحة وهذا المكان الذي سحبه فيه (سليمان) وفعل به ما فعله وغمغم:

ـ معقول يكون كل هذا حقيقي أم كان حلم، ولو حقيقي أين آثار مخالب (سليمان) التي غرسها في جلدي ونهش بها لحمي، وأين الجروح والدم؟! أنا توقعت أن أمكث في المنزل شهرًا بعد ما حصل لي كي أشفى، معقول كل هذا يختفي من الليل للصباح، وبالطبع لو حكيت لأية شخص، لن يصدقني وسيقول عني مجنون.

ظل يحدث نفسه هكذا، كادت رأسه أن تنفجر من كثرة التفكير، وهو مازال ينظر في حديقة القصر، إلى أن ابتسم وشعر بالفرحة والسعادة، وكأن روحه رُدت إليه من جديد...

(١٨)

الظلام مازال عاتما، الأكسجين ينسحب ببطء دقيقة تلو الأخرى، الدقائق تمر كالسنوات، الخوف والرعب يسيطر عليه، يفكر في كل ما حدث وما يحدث، منتظرا مصيره صابرا، لا يعلم ماذا يفعل ليخرج، حتى أنه تمنى الموت ليستريح من كل هذا الهول والفزع، خلع قميصه وراح يلوح به علّى يجلبُ له الهواء ليتنفس بعد أن شعر بالضيق والخنقة في صدره، وكأن روحه تُسحب منه ببطء، نهض وراح يركض في كل مكان داخل «المقبرة الملعونة» ودمدم صارخا بقوة، ثم دنا من بابها وراح يدقه وقال:

ـ أخرجوني من هنا.

وهنا خرجت (أم الشعور) من غرفتها بيدها شعلة النار، ترتدي زيها الأسود المعتاد، يبدو أنها سمعت ندائه وهرولت سريعا في ممر صغير بين المقابر وشعرها الأبيض يتطاير خلفها، واقتربت ووقفت أمام باب المقبرة، ترقرقت عينيها بالدموع بعد أن وقعت عينيها على معطف (إسلام) المرمي في الطين أمام باب المقبرة، ثم قبضت بيدها على قفلها الحديدي.

يا الله، فلتفعلها الآن وتفتح الباب وتخرجه، ولكن تأتي

الرياح بما لا تشتهي السفن، أنه هناك يجلس أعلى النخلة، يرتدي زيه الأبيض المعتاد والذي غطى النخلة تماما، وراح يلوح بالمفاتيح بيده، وصاح غاضبا:

ـ عودي لمقبرتك أيتها الملعونة الفاجرة وإلا أحرقتك الآن.

نظرت له وصرخت بقوة، وركضت نحو غرفتها، تلك الصرخات التي ترددت في سماء القرية في سكون وهدوء الليل، ودلفت غرفتها بسرعة، وأغلقت الباب خلفها.

ظل (إسلام) يدق الباب، إلى أن سمع سيدة في نهاية المقبرة، صرخت بقوة وقالت:

ـ ابعدي عني.

استدار سريعا وركض نحو هذا الصراخ في العتمة، حتى وصل مكانه ورأى في نور شعلته، (أم الشعور) قد تبدلت أظافرها بمخالب طويلة، وراحت تنهش في لحم هذه السيدة التي مازالت تصرخ وتستغيث، والتي ظهرت عارية تماما تحاول تستر نهديها وفرجها بيديها، وقد مزقت (أم الشعور) كل ملابسها، وقطعت جلدها أعلى وأسفل وسال الدم من لحمها، حدق جيدا فاغرا فاه، وقال مدهوشا بصدمة:

ـ ماذا تفعلين هنا الآن يا أمي، ولماذا تفعل بكِ (أم الشعور) هكذا؟! إنهما خيال من الهواء يتحرك أمامه بهذه الطريقة،

رجع للخلف بعد أن شعر بالخوف أكثر و(أم الشعور) مازالت تنهش في لحمها وصاحت غاضبة:

ـ لماذا فعلتي بي هكذا يا فاجرة؟!

ظلت هذه السيدة تصرخ وأجزاء من لحم جسدها تتطاير في كل مكان، وقد أغرق دمها أرض المقبرة أسفل قدميها وردت:

ـ لا شأن لي بكل ما حصل لكِ، أنا كنت عبد المأمور، حاسبي من خطط ودبر.

واختفيا في لحظات، وعادت المقبرة كما كانت، هادئة ساكنة، راح ينظر للأرض، لقد توارى الدم، واختفت هذه الأجزاء من اللحم، عاد وجلس مكانه مرة أخرى، والعرق يحتشد على جبينه، وغمغم:

ـ ما هذا الذي رأيته، ولماذا فعلت (أم الشعور) بأمي كل ذلك، وماذا تقصد أمي بكلماتها هذه؟!

ثم دفن رأسه بين ركبتيه وقرب رجليه من صدره وظهر كالجنين في رحم أمه، وراح ينشج بقوة وبصوت واهن أردف:

ـ أخرجوني من هنا.

***

(كندا) تخرج من القصر الآن بعد العصر، ترتدي الهوت شورت، أسود اللون والذي أظهر فخذيها المرسومين بتلك الطريقة مع هذا الجمال الساحر مع تلك الملابس المثيرة، وقميصها الربع كم أبيض اللون، سارت في ممر صغير بين أشجار الحديقة، شعرها الأسود يلمع خلفها، اقتربت من إحدى أشجار الورد البلدي وجثت على ركبتيها، ومسكت هذه الزهرة ذات اللون الأحمر وراحت تشمها ثم رفعت رأسها للسماء وكأنها تريد أن تستنشق كل ما بوسعها من رائحتها، وعادت من جديد تشم الزهرة، ظل (إسلام) يراقبها من نافذة غرفته في بنايته لدقائق، نظرت على مرمى بصرها ناحية بوابة القصر، رأته يدخل من البوابة يرتدي هذا الجلباب الفلاحي، ذات اللون الرمادي وسرواله الأبيض، حدقت له وقد شعرت بالسعادة وظهرت الابتسامة الساحرة على وجهها وكأن روحها رُدت إليها من جديد بعد ليلة البارحة المرعبة في «الإسكندرية» دنا منها أكثر وصار يقف أمامها وجها لوجه، وحدق بعينيها وبنبرة حانية قال باسما:

ـ وحشتني يا (كندا).

بحب وحنان حدقت بعينيه وردت باسمة خجلا:

ـ وحشتني يا (إسلام).

وراحا يسيران في الحديقة بين الأشجار مستمتعين بالزهور وأفرع أشجار الزينة والتي راحت تغازلهم بهدوء، إلى أن جلسا بجوار بعضهما على تلك الأريكة في الحديقة واختفيا خلف الأشجار، لا يستطيع أن يراهما أحد الآن من داخل القصر، ظل يحدق لها بحب والصمت يسود المكان دون صوت كروان يغني أعلى إحدى الأشجار بجوارهما، ثم ربَّت على يدها وقال باسما هائما:

ـ ماذا بكِ يا (كندا)؟! أشعر بتغير وجهك اليوم، إنه شاحب للغاية.

زمّت شفتيها وازدرت ريقها، ونظرت خائفة، ثم انهمرت في البكاء، دنا منها بسرعة وضمها لصدره، وباتت رأسها بجوار قلبه، تسمع دقاته الآن والتي قد زادت من خوفه وقلقه عليها، إلا أن دقات قلبه السريعة كانت سببا أن تهدأ قليلا وتكف عن البكاء، يبدو أنها أشعرتها بالدفء وخففت من روعها، كرر سؤاله وهو مازال يضمها لصدره ويلمس بيده على شعر رأسها الحرير، وهنا رفعت رأسها عن صدره وحدقت له بعد أن هدأت بعض الشيء، وبصوت مبحوح قالت متمتمه:

ـ نفس الأفعال المُخيفة التي حصلت معي من قبل في قصر «الإسكندرية» حصلت معي ليلة البارحة.

ـ وماذا حصل مجددًا يا حبيبتي؟!

وهنا قصت عليه كل ما حدث تفصيلا وهو صامت ينصت جيدا، وانتهت من حديثها ونظرت له بترقب بعد أن ظهر شاردا، وتابعت:

ـ ألم تصدقني؟

بنظرة حب حدق لها باسمًا، وأردف وهو يربّت على يدها بقوة:

ـ بالطبع أصدقك.

أجفلت وحدقت له مدهوشة وتابعت:

ـ ولماذا تغيرت ملامحك طالما أنك تصدقني؟!

ـ لأني أنا وأنتِ حصل معنا هذا في نفس الليلة.

وقص عليها كل ما حدث معه ليلة أمس من (أم الشعور) و(سليمان) وهو ينظر لتلك الصخرة بجوار الإسطبل، فقالت مدهوشة:

ـ ما يحصل معنا حقا لشيء غريب، والأغرب أني لا أجد أي تفسير لكل ما يحصل.

وصمتت للحظات، ثم تابعت وهي تنظر للصخرة:

ـ هل تعتقد أن هناك علاقة بين ما يحصل معي في قصر «الإسكندرية» وما يحصل معك هنا؟!

صمت هنيهة وراح يفكر، ثم أردف تائها شاردا:

ـ في الحقيقة لا أعرف، ربما يكون هناك علاقة حقا وربما لا، لكن أنا متأكد جيدا أن السر عند (أم الشعور)، وبالفعل لقد ذهبت إليها في المقابر من قبل، وسألتها لكنها رفضت أن تخبرني أي شيء، وكادت أن تخنقني وتقتلني يومها.

حدقت له بوجوم، ثم تابعت شاردة:

ـ أريد أن أذهب لـ (أم الشعور).

ـ مستحيل يا (كندا) ماذا لو عرف (نُعمان باشا)؟

صمتت وراحت تفكر للحظات، ثم قالت:

ـ لا بد أن يكون هناك حل وأقابلها، ونحاول أن نعرف منها ما تعرفه بالضبط علّها تحل كل هذه الألغاز!

وبينما يدور هذا الحديث بينهما في حديقة القصر، هناك ما يدور داخل القصر الآن...

***

جلس (نُعمان باشا) على مقعدٍ في بهو القصر يرتشف

قهوته بهدوء، وهناك سيدة تقف على يمينه تحدق للأرض بصمت، حتى انتهى من قهوته ووضع الفنجان على هذه المنضدة أمامه، ونادي بأعلى صوته:

ـ (عبده) أحضر لي الكرباج السوداني من المكتب، وافتح البدروم.

بنبرة قوية على باب القصر رد:

ـ حاضر يا (باشا).

فنظرت له هذه السيدة وراحت تنشج بقوة، وصاحت في جزع:

ـ ماذا ستفعل بي يا (باشا)؟

رمقها باسما ساخرا، وقد أحضر (عبده) السوط ووقف بجوارها، وتابع:

ـ عرفت أنكِ قُلتِ كلام غريب لـ(فوزية)، فجئت بكِ لهنا كي أعرف منك ماذا تقصدين بالضبط؟

قطبت جبينها مفكرة، وأردفت في ريبة:

ـ أنا يا (باشا)! وشرفي لا أعرف أي شيء.

نظر لها وراح يضحك ويقهقه عاليا، وترددت ضحكاته في

كل أنحاء القصر، وقال:

ـ شرف يا عديمة الشرف، وظل يضحك، ثم صاح غاضبا:

ـ (عبده) خذها على البدروم.

وهنا جثت على ركبتيها، ثم سجدت أرضا وراحت تقبل قدميه وهي مازالت تبكي بحرقة، وصاحت باكية:

ـ أحب على رجلك يا (باشا) البدروم لا، و(عبدهُ) لا.

قهقه من جديد وراح يضربها بعكازه على ظهرها ضربات متتالية، وهي مازالت تقبل قدميه، وأردف:

ـ أريد أن أعرف كل ما تعرفينه يا فاجرة يا عاهرة.

رفعت رأسها وحدقت له والدموع تسيل من عينيها، وردت:

ـ لا أعرف أي شيء يا (باشا).

وهنا تملك من كل قوته وضربها بقدمه اليمنى في وجهها، وهي مازالت ساجدة على الأرض تقبل قدميه، فسال الدم من فمها وأنفها، وتابع باسما:

ـ الآن لا أريد أن أعرف شيئا، وهذا تحذير لكِ، إذا كنتِ تعرفين أي شيء وتحدثتِ بكلمة واحدة لـأي شخص، سأحضرك هنا، وسأدفنك حية في البدروم.

راحت تمسح الدم من على وجهها ونظرت له بخضوع، وذل، ومهانة وانكسار، وقالت متلعثمة:

ـ خادمتك يا (باشا).

ضحك من جديد، وتابع:

ـ أقفِ يا كلبة.

نهضت بسرعة، وأخرج مبلغا من النقود من محفظته وأعطاها لها، وقال باسما:

ـ خذي هذه النقود وهيا امشي من هنا يا فاجرة.

أخذت النقود، وركضت بسرعة البرق وخرجت من القصر، كل ذلك و(فوزية) تقف بجوارهما تشاهد ما يحدث بصمت باسمة، ثم حملت فنجان القهوة من أمام (الباشا) على هذه الصينية الصغيرة واتجهت للمطبخ، وغمغمت:

ـ امرأة فاجرة وزانية، كان لا بد أن تخاف حتى تخرسُ للأبد.

نظر (الباشا) لـ(عبده) وقال:

ـ أدخل الكرباج مكانه وتعالي أكمل شغلك.

رد وهو مازال ينظر للأرض، لا يجسر على رفع رأسه والنظر

في عينيّ (الباشا):

ـ تحت أمرك يا (باشا).

وبينما تركض هذه السيدة في حديقة القصر متجهة للبوابة، وقعت عينيّ (إسلام) عليها، فحدق لها جيدا، ثم نظر لـ(كندا) وبترقب قال:

ـ من هذه السيدة؟

حدقت لها مدهوشة وأجابت:

ـ (باتعة الغزية) ولكن لماذا تجري هكذا وكأنها خائفة من شيء؟!

صمت (إسلام) للحظات، وقد خرجت (باتعة) من البوابة، ثم راح يحك سبابته بشعر رأسه، وغمغم في وجوم:

ـ (باتعة الغزية)! هذا الاسم ما قاله لي (سليمان) في الحلم، أكيد تعرف كل شيء و(سليمان) قال لي اسمها لـأسالها، يجب أن أذهب إليها وأعرف منها الحقيقة.

حدقت له (كندا) وقالت شاردة:

ـ ماذا بكِ؟

وهنا قص عليها ما دار في ذهنه منذ قليل.

ـ وما علاقة (باتعة) بكل هذا؟!

ـ أنا متأكد أنها تعرف أشياء كثيرة، ولا بد أن أقابلها وأسألها عما تعرفه.

وفي تلك اللحظات، نظرًا أمامهما معا، (نُعمان باشا) يقف متكئا على عكازه، يحدق لهما غاضبا دون أن يتفوه بكلمة واحدة، وقفت (كندا) سريعا وقبلته، وقالت باسمة:

ـ نورت الجنينة يا جدي.

ودنا (إسلام) منه كي يصافحه، وقال:

ـ كيف حالك يا (باشا)؟ أتمنى أن تكون بصحة جيدة.

حدق له مغتاظا، ولم يمد له يده، فسحب (إسلام) يده بعيدًا عنه ونظر لـ(كندا) وصمت وغادر المكان بسرعة، نظرت (كندا) لجدها وبنبرة حزينة قالت:

ـ لماذا تعامله دائما بقسوة يا جدي؟ (إسلام) طيب ويحـ...

ثم صمتت هنيهة وتابعت:

ـ ويحبنا يا جدي.

لم يرد البتة، ترقرقت عينيها بالدموع وغادرت المكان، ودلفت للقصر وصعدت لغرفتها، ودلف (نُعمان باشا) للبهو،

وغمغم غاضبا:

ـ لقد صار الوضع صعبا.

ونادى بأعلى صوته بعنف:

ـ (فوزية).

أتت من المطبخ بسرعة البرق ووقفت بجواره وردت:

ـ تحت أمرك يا (باشا).

راح يدق الأرض بعكازه، ثم حدق لها وسألها:

ـ ألم تأتي (أم الشعور) للقصر حتى الآن؟!

ـ للأسف لا يا (باشا).

صمت للحظات، وراح يفكر ثم تابع:

ـ أريد أن أذهب إليها في المقابر في أسرع وقت وأتكلم معها.

بلعت ريقها بصعوبة، وردت مدهوشة:

ـ معاليك تذهب للمقابر يا (باشا)، بالطبع لا، سيحضرها (عبده) هنا في القصر.

صاح غاضبا:

ـ فليأتي بها غدا، ولو حتى بالقوة.

ـ تحت أمرك يا (باشا)، أنها تخرج تسعى على رزقها في البلدة والبلدات المجاورة طيلة النهار، ثم تذهب لمكانها في المقابر وقت القيلولة تستريح وتعاود السعي من جديد على العصر.

نظر شاردا من إحدى نوافذ القصر على مرمى بصره لمنزل (عبده) وتابع:

ـ سأنتظرها غدا.

وفي اليوم الموالي، وقت القيلولة ومع حرارة الظهيرة دون أي نسمة هواء، ذهب (عبده) للمقابر ودلف من بوابتها، ووقف مكانه ونظر لغرفة (أم الشعور) للحظات، ليتأكد من أن باباها مفتوح وأنها هنا الآن، شعر بأحدهم يتنفس حوله في كل مكان بصوت مرتفع، وهواء ساخن يلسعه بوجهه، ارتجف خوفا، لكنه أكمل وراح يسير ببطء في الممرات بين المقابر، إلى أن سمع صوتًا يتردد في أذنه:

ـ عُد له مرة أخرى وأخبره أنني لن أذهب إليه أبدًا، ويجب أن يأتي هو إلى هنا، وهيا امشي من هنا الآن، وإلا سأحرقك في الحال.

تسمر وتجمد مكانه، وراح ينظر حوله في كل مكان بحثا

عن الشخص الذي يحدثه، وغمغم:

ـ (أم الشعور)!

ولكن لم يجد أحد البتة، ركض سريعًا بين المقابر، تارة يسقط أرضًا على وجهه وتارة يصطدم بإحدى المقابر إلى أن خرج من البوابة ووقف للحظات، ينظر خلفه، ورأى بوابة المقابر أُغلقت وحدها بقوة، راح يركض في شوارع القرية كالمجنون وقت الظهيرة وبعض الناس ينظرون له مدهوشين، إلى أن وصل القصر ودخل بسرعة وأخبر (نُعمان باشا) وزوجته التي كانت تقف بجوارهما في البهو بكل ما حدث، فنظر له (الباشا) وضحك ساخرا، وقال مغتاظا:

ـ أنت مجنون أم متخلف، يبدو أنك كبرت وخرفت، ما هذا الهُرَاء الذي تقوله؟ سأذهب إليها غدا أنا وأنت، ونرى ماذا ستفعل بي.

حدقت (فوزية) لزوجها، وغمغمت بهدوء:

ـ أنا متأكدة أن هذه المرأة ورائها مصيبة كبيرة، وستكون سبب الهلاك لنا جميعا، لو (الباشا) يقتلها ونتخلص منها للأبد.

نظر لها (الباشا) وتابع:

ـ ماذا تقولين؟

ـ لا شيء يا (باشا).

وفي مساء هذا اليوم، وقد بدأت الشمس تُعلن عن حزنها برحيلها وقت الغروب، وقف (إسلام) في نافذة غرفته ينظر للقصر، يبدو أنه ينتظر خروج (كندا) في نافذة غرفتها، نظر أمام منزله ورأى (أحمد) يقف وحده، فخرج بسرعة من المنزل ودنا منه وعانقه بشدة، وكأنه لم يره منذ زمن بعيد، وراح (أحمد) يُعانقه هو الآخر بحب، وقال:

ـ وحشتني جدا يا صديقي، لماذا لا تأتي للكلية ولا ترد على الموبايل، قلقت عليك وجئت لأزورك.

راح يُعانقه بقوة ورد:

ـ نورت «بسنتواي» يا (أحمد) أنت أيضا وحشتني وكنت سأكلمك في الموبايل الليلة.

ابتعد (أحمد) عنه وضحك ساخرا وأردف:

ـ أنا ظهري اتكسر من هذا الطريق المُتعب، وسيارة الأجرة التي أخذت وقت كبير بسبب سوء الطريق، يبدو أنكم تعيشون في الأدغال!

نظر له (إسلام) باسمًا وتابع:

ـ حبيبي قرية «بسنتواي» أكبر مجلس قرية في مركز «أبو

حمص» ولكن ماذا نفعل، ليس هناك اهتمام بالطرق، وغالبًا هذه المشكلة في معظم القرى، لنا الله، لسنا مثلك تعيش في المدينة.

قهقه (أحمد) وأردف:

ـ ليس هناك فرق كبير، تقريبا «أبو حمص» مثل «بسنتواي».

ودلفا معا للمنزل والضحك مازال على وجوههما، وصعدا لغرفة (إسلام).

جلس (إسلام) و(أحمد) في غرفته ليلا وقد اقترب آذان العشاء، وراح (إسلام) يقص عليه كل ما حدث له ولـ(كندا) ليلة البارحة، حدق له (أحمد) مدهوشا بعد أن أنهى حديثه وقال بتوجس:

ـ ما هذا الكلام الغريب عنك وعن (كندا)؟! لقد أخفتني منكما، يبدو أنكما ملبوسين!

نظر لها ضاحكا ودنا منه وضربه على كتفه وتابع:

ـ كفى مزاح يا (أحمد).

ـ لم أمزح، الذي تحكيه عنك وعن (كندا) غريب ومثير، لا يصدقه أحد.

اقترب (إسلام) من نافذة غرفته وراح ينظر للقصر في الظلام، ثم أردف متذمرا:

ـ الحمد لله أنك جئت اليوم يا (أحمد) هناك أمر ضروري في مكان أريد أن أذهب إليه وكنت خائفا أن أذهب وحدي، سنذهب معا وستبيت معي الليلة.

حدق له بترقب وقال:

ـ وما هذا الأمر، وأين هذا المكان؟!

ـ ستعرف كل شيء في وقته.

صمت (أحمد) وغمغم باسما:

ـ يبدو أن (إسلام) فقد عقله من حب (كندا).

ومع قرب العاشرة مساءًا، خرجا من المنزل وراحا يسيران في شوارع القرية حتى خرجا منها تماما وبدأ يدخلان بين الحقول في الظلام، نظر له (أحمد)، وقال في ريبة:

ـ إلى أين نحن ذاهبان؟! يبدو أنك ستُخرج عفاريتك علىّ في الحقول.

ضحك ورد:

ـ عفاريت يا مجنون، سنصعد الجبل الآن.

تسمر (أحمد) مكانه، وقال مرتجفًا:

ـ جبل! هل هناك جبل في هذه القرية الملعونة؟!

ـ أرجو أن تصمت وسترى كل شيء بنفسك.

صمت (أحمد) وراحا يسيران بين الحقول، إلى أن سمعا عواء ذئب عن بعد دنا (أحمد) منه وتشبث برقبته مرتجفا وقال:

ـ بالله عليك، لا أريد أن أموت في الحقول ومن ذئب.

قهقه (إسلام) عاليا وأردف وهو يضمه بقوة:

ـ إنه ذئب صغير، كما إنه يبعد عنا كثيرًا، ماذا كنت ستفعل لو كنت مكاني، اسمع عواء الذئاب كل ليلة مع قرب الفجر وأنا أذاكر في غرفتي؟

ـ أنت تعودت على هذا، يبدو أنك تربيت بين الذئاب من صغرك وكنت ترضع معهم من أمهم.

ضربه (إسلام) على كتفه، ضربات متتالية وتابع ضاحكا:

ـ كفى مزاح، أوشكنا على الوصول.

وظلا يتبادلان الحديث طوال الطريق، إلى أن اقتربا أكثر وشاهدا...

(١٩)

غرفتان من البوص وسعف النخيل، إحداهما في المقدمة، ظهر بها نور خافت مع صوت لموسيقي شعبية يصاحبه مرح وضجيج، يبدو أن هناك تجمع داخلها، والأخرى مظلمة بالخلف.

حدق (أحمد) لـ(إسلام) مُتعجبا، وصاح غاضبا:

ـ أين نحن الآن؟!

ـ لقد وصلنا الجبل.

فسأله بلهفة وترقب:

ـ وأين الجبل؟!

ضحك (إسلام) وأردف:

ـ ليس هناك أية جبال، ولكن هذا المكان سُمي بالجبل، ويقال إن «بسنتواي» كانت جبل وقت الاحتلال الإنجليزي لمصر، وأن الإنجليز تاهوا في هذا المكان وأطلقوا عليه «Absent Way» أو «الطريق المجهول» ومع الوقت الناس حرفوا الاسم وصار «بسنتواي» عرفت الآن أن قريتنا لها تاريخ عظيم.

نظر له (أحمد) ساخرا باسمًا، وتابع:

ـ ومنزل من هذا، وماذا نفعل هنا الآن؟!

أجاب ناظرا للمكان:

ـ منزل (باتعة الغزية) وجئت هنا الآن كي أعرف منها ما تعرفه.

أومأ برأسه وضحك وهو ينصت جيدا للموسيقي، ثم نظر لـ(إسلام) وأردف باسما:

ـ يبدو أنك تأتي هنا كثيرا.

ـ كف عن هذا الهُرَاء يا (أحمد) وتعالَ ندخل نقابلها وننتهي.

اقتربا أكثر حتى وصلا وشاهدا عشرات من الرجال من أعمارٍ مختلفة يجلسون في دائرة داخل الغرفة الأمامية، وسط هذه الدائرة سيدة ترتدي ملابس رقص تظهر معظم جسدها وشعرها الأسود غطي ظهرها حتى خصرها، ترقص على الموسيقي الشعبية والتي تعم المكان عاليا، والرجال يصفقون بقوة وحرارة، راحت تتمايل وتتدلل بجسدها على شاب ثلاثيني، والذي شرع يبرم شاربه بيده اليمنى وقوس حاجبه لـأعلي، يبدو أنه شعر برجولته وفحولته الآن بعد هذه

الحركات منها أمام الجميع، إنها (باتعة).

نظر لها (أحمد) بتمعن وهي ترقص، وراح يتمايل بجسده يمينا ويسارًا على الموسيقى، وقال وهو مازال يحدق في كل تفاصيل ومنحنيات جسدها:

ـ فرسة ومحتاجة خيال.

نظر (إسلام) للأرض خجلًا دون النظر إليها البتة، دنا منه (أحمد) وهو يحرك يده بين فخذيه بعد أن اشتعل جسده، وقال باسمًا:

ـ جسم نار يا صديقي، ولعت فيّ، انظر واتمتع، الآن أنت خجول، وماذا عما تفعله مع (كندا)!

وراح يقهقه، تلك الضحكات التي اختفت مع صوت الموسيقى وصوت الرجال، نظر له (إسلام) ولم يتفوه، إلى أن اقترب منهما رجل أربعيني، قصير القامة ونحيل الجسد، يرتدي قميصًا ذو ألوان كثيرة وسروالا أحمر اللون، ووقف بجوارهما يرقص يمينا ويسارًا بجسده، وقال بميوعة:

ـ أنرتما المكان يا بيه.

نظر له (أحمد) وغمغم باسمًا:

ـ من هذا الرجل الغير طبيعي، الذي يتكلم مثل النسوان؟!

دنا (إسلام) من هذا الرجل وقال بصوت مرتفع، علّه يسمعه من كل هذا الضجيج:

ـ أريد أن أقابل الست (باتعة).

راح يدور حولهما، وغمز بعينه اليمنى وقهقه عاليا وتابع:

ـ حضرتك زبون يا بيه؟

نظر له (إسلام) غاضبا ورد مغتاظا:

ـ لا، أريد أن أسألها عن معلومة، ليس إلا.

ظل يضحك ويرقص، وهو يحدق لـ(أحمد) وقد سال لعابه، وتابع باسمًا:

ـ افتكرتك زبون يا بيه وتريد ليلة حمراء.

نظر له (أحمد)، وقال جادا:

- احترم نفسك.

ابتعد عنهما هذا الرجل، وهو يمضغ اللبان بصوت ويضحك عاليا، جلس (إسلام) و(أحمد) على مقعدين في باب هذه الغرفة، ومر ما يقرب من الساعة وانتهت (باتعة) من رقصتها وغادر كل الرجال المكان، دون (إسلام) و(أحمد) وهذا الرجل الذي تحاور معهما منذ قليل، اقتربت (باتعة) نحوهما ووقفت

بجوارهما وهي مازالت ترتدي ملابس الرقص، فراح (أحمد) يحدق فيها بشهوة، يبدو أنه سرح بخياله لعالم أخر، وبصوت كله أنوثة قالت:

ـ يلزم خدمة يا بيه، أنا تحت أمركم في أي شيء.

نظر لها (إسلام) بخجل، بعد أن فهم ما يدور برأسها وقال باسما:

ـ في الحقيقة، لم آتي هنا لما دار برأسك مطلقا، أنا هنا لسبب آخر تماما.

قوست حاجبها غيظا، وقهقهت ساخرة، وقالت:

ـ وماذا تريد مني؟ حسرة عليّ وعلى زبائن آخر الليل.

دنا منها (أحمد) وهو مازال يحدق فيها وقال:

ـ لا تصدقيه يا هانم, أنا هنا من أجل ما دار برأسك وتحت أمرك.

قهقهت، وبوجه ممتقع تابعت:

ـ هانم يا بيه! «ما كان اتعذر ولا باع جزر».

نظر (إسلام) لـ(أحمد) غاضبا، وسحبه بعيدًا عنها، وقال منزعجنا:

ـ كف عن مزاحك السمج هذا، أريد أن أركز فيما أتيت له هنا.

وهنا نظرت له (باتعة) بترقب، وقالت في وجوم:

ـ تحت أمرك يا بيه، ماذا تريد مني، ومن حضرتك؟

صمت للحظات، ثم قال بهدوء:

ـ أنا (إسلام) وأريد أن أعرف كل ما تعرفينه عن أخي (سليمان) وعن أمي وعن القصر؟

وفي تلك اللحظات صار وجهها شاحبا، وتوارت ضحكاتها وظهر الخوف عليها واستدارت بعيدا عنهما، وصمتت هنيهة شاردة، ثم قالت بتوجس:

ـ (إسلام) ابن (فوزية)؟

ـ نعم، أنا (إسلام) ابن (فوزية) و(عبده) وأخي (سليمان) الذي اختفى منذ أكثر من عشر سنوات، استدارت له مرة أخرى، وحدقت له غاضبة، وصاحت مغتاظة:

ـ أنا لا أعرف أي شيء، وهيا امشوا من هنا، ولا تأتوا هنا أبدًا مرة أخرى.

دنا منها (إسلام) وقال متوسلا:

ـ أرجوكِ، لو تعرفِ أي شيء قولي لي، وأوعدك أنه سيكون سرًا، أبوس رجلك يا ست (باتعة) قولي لي كل ما تعرفينه.

تحركت عنهما خطوات وجلست على مقعد، وراحت تفكر للحظات وهي تحرك هذا القرط الصغير بأنفها، ثم نظرت لـ(إسلام) وتنفست الصعداء وتابعت متنهدة:

ـ أريد أن نتكلم وحدنا.

فنظر لـ(أحمد) وقال:

ـ انتظرني بالخارج يا (أحمد).

خرج من المكان وهو مازال يحدق بجسدها، وأقترب (إسلام) منها وجلس على مقعدٍ بجوارها، وبترقب قال:

ـ أرجوكِ، أريد أن أعرف كل ما تعرفينه.

صمتت قليلا وهي تنظر للأرض، ثم قالت خائفة:

ـ سأخبرك بكل ما أعرفه، ولكن تعدني أنك لا تُعلم أحدا مطلقا، أنك رأيتني أو تكلمت معي، لو (الباشا) عرف سيقتلني، وأنا ست على الله، ليس لي أحد، وحتى لو قتلني سيقول الجميع «كلبة وراحت في داهية».

ـ أعدك.

صمتت للحظات، فحدق لها وتابع وقلبه يدق بقوة:

ـ أرجوكِ أكملي.

نظرت له وهي تشعر بالخوف، وتابعت:

ـ أنا كنت أعرف (الباشا) الصغير، والد (كندا هانم) الله يرحمه، كان يأتي يسهر عندي هنا وكان يحبني وأنا أحبه، مات فجأة بدون أي مرض، وهناك ناس كثيرة قالوا أن زوجته قتلته في «الإسكندرية» عندما عرفت أنه يعرفني عليها. وبعد موته بفترة صغيرة عرفت أن زوجته أيضا ماتت في ظروف غامضة، لا يعرفها أحد.

تنهدت بقوة وتابعت:

ـ قبل موته كان دائما حزين ومهموم، وكنت أسأله كثيرا وهو معي، ماذا بك؟ كان يصمت ـ وفي مرة شرب كثيرا جدا من الخمر وذهب عقله، وتكلم كلام لم أفهمه مطلقا، كل ما أتذكره منه أنه قال: «لماذا يا أبي أمرت الخادمة تقتلها؟» يومها سألته: «ماذا تقصد، ومن التي قُتلت، ومن الخادمة التي قتلتها؟» لكنه كان لا يشعر بنفسه مطلقا، وظل طوال الليل يرددها، حتى غرق في سبات عميق للصباح، وطلع النهار واستيقظ من فراشي وارتدى ملابسه، وعندما سألته عما قاله ليلا تغير فجأة وعاملني بقسوة، وقال لي إياكِ

تقولي لأحد أنك سمعتي مني هذا الكلام، وغادر المكان بسرعة غاضبًا، وهذه كانت آخر مرة رأيته، بعدها بأسبوع عرفت أنه مات.

ثم أجفلت وحدقت له، وتابعت متلعثمة:

ـ هذا كل ما أعرفه، وقُلت لك لأني شعرت أنك طيب وتحتاج المساعدة، ولكن كما وعدتني، لا تخبر أحدا مطلقا أنك عرفتني أو قابلتني.

اعترى الوجوم وجهه، ودقق النظر لها مُصدوما، وبصوت خافت أردف:

ـ أعدك، لن يعرف أحد شيئا.

صمت ونظر للأرض، ثم رفع رأسه ونظر لها، وتابع:

ـ هل تعتقدين أنه كان يقصد بهذه الخادمة أمي؟

تنهدت ونهضت من مكانها بسرعة، وراحت تتجول في الغرفة ببطء، وقالت:

ـ بصراحة لا أعرف، هل كان يقصد أمك أم خادمة أخرى، لأن في هذا الوقت كان هناك أكثر من خادمة في القصر، ولكن بدون غضب مني، طالما كان يقول عن أمك «أنها ست فاجرة وقادرة».

وفي تلك اللحظات، وقف من مكانه وخرج من الغرفة وهو يفكر شاردا، ليجد (أحمد) يجلس بالخارج مع هذا الرجل، فنظر له (أحمد), وقال غاضبا:

ـ أنت في الداخل مع هذه الفرسة، وأنا وحدي هنا مع هذا المُخنث.

فحدق له هذا الرجل وضحك بأعلى صوته، ابتسم (أحمد) ونظر له ساخرا، وقال:

ـ كنت أشك فيك من أول ما رأيتك، ولكن الآن تأكدت.

وظل هذا الرجل يضحك وهو مازال ينظر له، لم يكترثُ (إسلام) لكلمات (أحمد) ونظر له شاردا، وقال:

ـ هيا نمشي من هنا.

غادرا المكان ووصلا منزله بعد منتصف الليل، نظر له (أحمد) وقال باسمًا:

ـ أنا جائع.

جهز (إسلام) العشاء وصعد به على تلك الصينية لغرفته وتناولا العشاء معا، وحدق له (أحمد) وهو مازال يأكل، وقال باسما:

ـ ماذا قالت لك هذه الفرسة؟ تغيرت بعد كلامها معك!

راح يكمل طعامه، ورد بغير اكتراث:

ـ لم تقل شيئا مما كنت أريد أن أسمعه، لا تشغل بالك.

انتهيا من طعامهما، وأنزل (إسلام) صينية العشاء في المطبخ وصعد ليجد (أحمد) قد استلقى على سريره، فنظر له وقال:

ـ هل ستنام الآن؟

ـ نعم، ولكن يبدو أنني لن أستطيع النوم بجانبك على هذا السرير الصغير، لن يسع إلا شخصًا واحدا.

ـ هذا هو المتاح، من الممكن أن تنام على الأرض.

ـ لا، للأسف مضطر أنام بجانبك.

وهنا ضغط (إسلام) على زر الإضاءة وأطفأ المصباح وصعد السرير واستلقى بجواره وخلدا للنوم، وفي الصباح، خرج (أحمد) واستقل سيارة الأجرة لـ «أبو حمص».

***

اقتربت ظهيرة هذا اليوم، الشمس صعدت أعلى السماء، وراحت تبعث الأشعة الحارقة وقت القيلولة، والناس كلا في منزله يحتمي من حرارة الشمس، حتى يأتي العصر ويخرج

كلا منهما على حقله مرة أخرى. ومع هذا السكون والهدوء، خرج (نُعمان باشا)، يرتدي زيه والذي يشبه الملوك، بصحبة (عبده) وراحا يسيران في شوارع القرية، يمتطي فرسه والأخير يسير بجواره أرضا، وصلا المقابر ووقف بفرسه على البوابة، ثم هبط من أعلاه ونظر لـ(عبدهُ) وبترقب قال:

ـ أين مكان (أم الشعور)؟

اقترب منه بسرعة ومسك لجام الفرس بيده، وأردف منحنيا خائفا:

ـ غرفة تشبه المقبرة يا (باشا) تعلو المقابر بقليل، ستجدها أمامك مباشرة.

نظر له، وتابع باسمًا ساخرًا:

ـ Ok, يا خواف.

ثم دلف من البوابة وراح يسير ببطء متكئًا على عكازه بين ممرات المقابر يدقق النظر أسفل قدميه كي لا يصطدم بأي شيء في الأرض من الحجارة أو القرميد، وهنا سمع صوتا يتردد في أذنه:

ـ تعالَ، كنت أعلم جيدًا أنك ستأتي.

تجمد وتيبس جسده وتسمر مكانه، وراح ينظر حوله في

كل مكان على مصدر الصوت ولكن لم يجد أحدا البتة، فأكمل سيره، ورأى أمامه بين الممرات، ما جعله يقف مكانه دون أن يتقدم خطوة للأمام، واقتربت نحوه وراحت تدخل بين قدميه، حدق لها مدهوشا، وقال:

ـ (جيسي) كيف جئتِ إلى هنا، وماذا تفعلين هنا الآن؟!

اقتربت منه أكثر وراحت تحك جسدها وذيلها بقدمه، ثم تحركت أمامه في الممرات، والتفتت تنظر له وكأنها تقوده لمكان ما، سار خلفها بخطوات بطيئة، إلى أن وصلا هذه الغرفة التي وصفها له (عبده) ورأى غرفة تشبه المقبرة حقا، بابها مفتوح ولكنها مظلمة تماما من الداخل، وهناك سيدة تجلس أمامها تنظر داخلها، ليكون ظهرها في وجهه الآن، ترتدي زيًّا أسود اللون، وشعرها الأبيض يغطي ظهرها حتى الأرض، وتجلس عليها، راحت تغمغم بكلمات غير مفهومة، اقتربت منها (جيسي) سريعا، فحملتها على ذراعها وشرعت تقبلها، وقالت:

ـ وحشتني يا ابنتي.

كل ذلك وهو مازال لا يرى وجهها حتى الآن، وظلت هكذا للحظات، إلى أن شعر بهواء ساخن يخرج من داخل الغرفة مرورا بهذه السيدة وراح يقترب من وجهه، فلسعه بوجهه بشدة وتسبب في حرقان عينيه، مما جعله يحك يديه فيها،

وعمّ الصمت والسكون المكان، قال مغتاظا:

ـ (أم الشعور)؟

وفي تلك اللحظات، استدارت، سيدة مسنة، جلدها مجعد تماما، وعينيها مدفونة بين تلك التجاعيد، وظلت تنظر له لدقائق، ثم تحولت ملامحها لسيدة أربعينية ليست عجوز، راح يحدق لها جيدا للحظات، وبدأ يشعر بالدوار، كاد أن يسقط مغشيٍّ عليه، لولا أنه دنا من أقرب مقبرة بجواره وجلس عليها، وظل يحدق لها بصدمة، يريد أن ينطق، ولكن صوته حُبس في حلقه، ازدرد ريقه بصعوبة وبدأ يتنفس بسرعة، وهو يشعر بروحه تُسحب منه وأخذ قلبه يخفق بشدة، وقال متلعثما:

ـ (شمس)!

حدقت له، وهي مازالت تجلس أرضًا وراحت تضحك وتقهقه بأعلى صوتها والذي تردد في المقابر، فظة قالت بحزم:

ـ نعم (شمس) يا (نُعمان) لماذا فعلت بي هكذا؟ كل ذلك من أجل العزب والأطيان والمال، لم أكن أريد منك أي شيء، فقط كنت أريد أن أربي ابني بعيدا عنك، وأنا قُلت لك هذا، لكن أنت طيلة عمرك طماع، لا تحب إلا نفسك، كنت تريد

فقط نقل كل الأطيان، والتي أملك فيها لـأحفادك (كندا) و(تيمور) رغم أنك تعلم جيدا أني طيلة عمري مُسالمة، ولم أتكلم معك من قبل في أي شيء عن أملاكي ولا سألتك عنها مطلقا، لماذا فعلت بي هكذا يا ملعون؟

محدقا لها بصدمة، صمت هنيهة، ثم تابع بصوت واهن:

ـ أنتِ تعلمين جيدا، أن ليس الأطيان والميراث السبب في الذي حصل، والسبب أنكِ تزوجتِ شخص صعلوك، أصله فلاح دون أن نعرف، وخلفتِ منه ابنك وكان يريد أن يرث من ثروتنا التي ورثناها عن أجدادنا، لم أعارض مطلقا على زواجك، وكنت أعرف أنكِ كبرتِ في السن وفرصتك في الزواج قَلت، لكن كان يجب أن تتزوجي شخصًا أصله مثلنا، ليس بفلاح صعلوك وفقير، وأيضًا خلفتِ منه، وتريدين ابنك يحمل اسمنا، وأبيه من أصول الفلاحين، هذا هو سبب ما حصل.

راحت تخرج شرارات نار من عينيها، وصاحت بجزع:

ـ أنت كذاب، ولو هذا هو السبب بالفعل لماذا كان هذا مصير ابني؟

ترقرقت عينيه بالدموع وحدق لها حزينا، وأردف:

ـ كان من المستحيل أن يعيش ابنك معنا في القصر بعد

اختفاء أبيه، وحتى لو لم يختفي، كان من المستحيل أيضا أن يأخذه ويعرف الناس أنه ابنك، لذا أنا أبعدته عنا وعن القصر، ولكن كان تحت رعايتي طوال الوقت، وكنت سأمن له مستقبله لولا أنه...

قاطعته وصاحت غاضبة من جديد:

ـ لا تكمل يا كذاب، ابني يعيش معي.

وانهمرت في البكاء بحرقة، نظر لدموعها والتي تسقط أمامه على الأرض، وتحرق مكانها وتخرج دخان، أكمل باكيا:

ـ ما حصل لابنك، كان غصب عني وأنتِ تعرفين هذا جيدا.

دمدمت صارخة، وتابعت:

ـ طيلة عمرك كذاب وطماع، ربنا أخذ حقي، وابنك زوجته قتلته مثل الكلب في «الإسكندرية» وأنت أخفيت عن الناس أنه قُتل، وقُلت أنه مات فجأة، وأيضا زوجته ماتت بعده بفترة قصيرة، أعرف أنها ماتت من الحسرة عليه، وأنها كانت تحبه، ولم تتحمل عندما عرفت أنه يخونها مع الغزية، ربك عدل، مات ابنك وزوجته، ويومها أنا شمت فيك وكنت فرحانة بكل ما حصل لك، وسأفرح كثيرًا بما سيحصل لك الآن.

ونظرت له باسمة، وصمتت للحظاتٍ ثم قالت بعد أن تحركت (جيسي) من جوارهما ودلفت سريعا لغرفتها:

ـ أتريد أن تعرف لماذا جئت بك هنا الآن؟!

مرتجفا، حدق لها بترقب وخوف وهي تقترب منه ببطء ولم يتفوه، فاقتربت منه صارخة، وقبضت بيديها على عنقه وراحت تخنقه بقوة، وهو يحاول أن يفلت منها، وبدأ يصرخ بقوة، وصاح:

ـ أنقذني يا (عبده).

ظل يصرخ حتى سمعه (عبده) فربط الفرس في البوابة، وركض بسرعة في الممرات بين المقابر إلى أن وصل غرفة (أم الشعور) ليجدها مُغلقة و(نُعمان باشا) مستلقي أرضا مغشيٍّ عليه أمام بابها، دنا منه وصاح:

ـ ماذا حصل يا (باشا)؟!

مرت عشر دقائق، وأفاق وحدق له وهو يرمش، وقال:

ـ ساعدني أقف ورجعني القصر بسرعة يا (عبده).

أوقفه من مكانه وراحا يسيران بين المقابر حتى خرجا من البوابة وساعده يمتطي فرسه واتجها للقصر، وصلا القصر، وجلس (الباشا) على مقعدٍ في البهو وقد ظهر التراب على

ملابسه، وتمزق قميصه حتى سرته وظهر كرشه، اقتربت منه (كندا) وراحت تحدق له مدهوشة وقالت:

ـ من فعل بك هكذا يا جدي؟!

لم يجب، وهنا نظرت له (فوزية) وهي تقف بجوارهما، وغمغمت بتوجس:

ـ معقول تكون (أم الشعور) من فعلت به هذا؟!

مر هذا اليوم و(الباشا) صامتًا تمامًا منذ رجوعه من المقابر والجميع في حالة من الصموت والدهشة، إلى أن ذهبت له (كندا) في غرفته وقد اقترب آذان المغرب، وجلست بجانبه في فراشه، وهو مستلقي على ظهره، فاعتدل وجلس مستندًا على وسادته، ونظر لها قبل أن تنطق بأي كلمة وقال:

ـ بالطبع أنتِ مستغربة من شكلي وحالة الصمت التي أنا فيها.

ـ بالطبع يا جدي، وأريد أن أعرف ما حصل معك.

صمت للحظات، وراح ينظر في نهاية غرفته، وأردف:

ـ (كندا)، سأخبرك ببعض الأسرار، بعضها حصل قبل ولادتك، وبعضها حصل وأنتِ صغيرة.

بحدقتين متسعتين ووجه احتقن بالدم، نظرت له بترقب

وتابعت:

ـ وأنا بالفعل أشعر أن حضرتك مخبئ عليَّ أسرار كثيرة.

تنفس الصعداء، وتنهد بقوة كاد أن ينشق صدره، وصمت للحظات؛ ثم قال:

ـ قبل ولادتك، كان لي أخت وحيدة اسمها (شمس) كانت تصغرني عشر سنوات تقريبا، وكبرت في السن وفاتها قطار الزواج، وقُلنا أنها لن تتزوج بعد، وفي يوم عرفنا أنها تزوجت دون علمنا من فلاح، أتيت بزوجها وحبسته في بدروم القصر أكثر من أسبوع، كان أسود أسبوع مر عليه بحياته من تعذيب وضرب بالكرباج، حتى اقتنع أن يُطلقها ويختفي بعدها من القرية تمامًا، وبالفعل تم هذا وغادر القرية، ومن يومها لا نعرف عنه أي شيء، ولكن للأسف كانت الصدمة والمفاجأة بعد شهرين، أنها حامل، وهذه كانت المصيبة الكبرى، لا ندرك ماذا نفعل بعد خبر حملها، مرت سبعة شهور ووضعت ولد، وصارت أقوى من الأول بابنها، وقالت لي أريد زوجي يعيش معنا أنا وابني معك في القصر، وطلبت ميراثها، أطيان كثيرة وعزب وأراضي ليس لها حصر، وعندما رفضت هددتني أنها ستبحث عن زوجها وستحصل على ميراثها بالقوة، وتبني قصرًا مثل هذا بالضبط وتعيش فيه هي وزوجها وابنها، وسوس الشيطان لي، وللأسف بدون ما

أدرك ما أفعله، وصيت عليها وقتلتها.

ارتجفت أطرافها، وحدقت له بصدمة، و بنبرة خائفة قالت متمتمة:

ـ قتلت أختك يا جدي!

تساقطت الدموع من عينيه، وبنبرة حزينة تابع:

ـ للأسف نعم، قتلتها.

وبينما يدور هذا الحديث بينهما، هناك من يقف خلف الباب ينصت لهما جيدا، إنها (فوزية).

انهمرت (كندا) في البكاء وسالت دموعها على وجنتيها، ثم سألته:

ـ وأين ابنها الآن؟

ـ كان عمره شهر تقريبا عندما قُتلت، ولكن للأسف لم يمكث كثيرا ومات بعدها، يبدو أنه حزن على أمه.

وهنا اتسعت عينيً (فوزية)، ورجعت خطوة للخلف بعيدا عن الباب، وغمغمت:

ـ يا كذاب.

ثم اقتربت من الباب مرة أخرى بهدوء، وصمت (الباشا)

للحظات و(كندا) مازالت تبكي، ثم تابع:

ـ واليوم وجدت من على المقابر وكل الناس تطلق عليها (أم الشعور).

حدقت له (كندا) بترقب، وتابعت:

ـ من يا جدي؟

صمت هنيهة وراح يتنفس بعمق، وتنهد بقوة، وأجاب:

ـ (شمس) أختي، للأسف عايشه هنا في القرية في صورة (أم الشعور).

وهنا رجعت (فوزية) للخلف خطوات وبرقت عينيها، وانتابت القشعريرة جسدها وتصببت عرقا، وغمغمت مدهوشة مفزوعة:

ـ (أم الشعور) هي (شمس هانم)! بسم الله الرحمن الرحيم، وراحت تتلو بعض آيات القرآن الكريم، بعد أن شعرت بالدوار كادت أن تسقط مغشيٍ عليها، إلى أن أفاقت ورجعت وقفت مكانها على الباب مرة أخرى، وتابعت مغمغمة:

ـ طالما كنت أسأل نفسي عند رؤية (أم الشعور) أين رأيتها من قبل؟! ولكن هي ظهرت في شكل كبير كي لا يعرفها أحد، والوحيد الذي استطاع أن يعرفها هو أخوها، وأنا أقول لماذا

كانت لا تقترب منه عندما كانت تأتي للقصر؟! وعندما كانت تقترب منه لا ترفع رأسها من الأرض، حتى لا يعرفها (الباشا).

شعرت (كندا) بالخوف والقشعريرة، وقالت مصدومة:

ـ وكيف قُتلت وعاشت في القرية بشخصية (أم الشعور) يا جدي؟!

ـ صرت لا أعرف ولا أفهم أي شيء يا صغيرتي!

وصمت للحظات تائها، ثم تابع:

ـ هذا ما حصل قبل ولادتك، نتكلم الآن عما حصل بعد ولادتك.

نظرت له بترقب وراحت تنصت له جيدا دون أن تتفوه بأي كلمة، فأكمل:

ـ أبيكِ كان عاشق (باتعة الغزية) وكان يضيع مالًا كثيرًا عليها، ويسهر عندها كل ليلة، وليالٍ كثيرة كان يبيت عندها، حتى عرفت أمك، وفي مرة كانوا في «الإسكندرية» وأنتِ و(تيمور) معي هنا، حصل بينهما خناقة كبيرة بسبب (باتعة) وطعنته بالسكين بصدره وقتلته في التو واللحظة.

وهنا نهضت (كندا) من مكانها، وراحت تتجول في الغرفة وهي تبكي بحرقة، وصاحت عاليا:

ـ مامي قتلت بابي.

ـ نعم يا (كندا) هذه هي الحقيقة المُرة، لم أبلغ الشرطة يومها وقُلت للناس أنه مات فجأة، ولأن أمك كانت تحبه بجنون، ماتت بعده بشهر تقريبا من الحسرة عليه.

وفي تلك اللحظات، حدقت (كندا) له وراحت تصرخ باكية بقوة، وتتحرك بطريقة عشوائية داخل الغرفة، وجدها مازال في فراشه، و(فوزية) خلف الباب، إلى أن...

(٢٠)

ـ هذا كل ما قاله لي وقتها، وتأكدت من كل كلمة بعدها في «الإسكندرية».

هكذا قالت الفتاة، عارية الجسد دون سترتها، وشعرها يغطي وجهها حتى عينيها، وهي تجلس الآن داخل «المقبرة الملعونة» وجها لوجه لـ(إسلام) في عتمة الظلام، فحدق لها وبصوت واهن قال:

ـ وكيف تأكدتِ في «الإسكندرية»؟!

صمتت وراحت تفكر وهي تنظر له بعينيها الثاقبة من بين شعرها.

***

سقطت (كندا) أرضًا مغشيً عليها وهنا صاح (الباشا):

ـ (فوزية).

دلفت سريعا مرتجفة، وقالت:

ـ بسم الله الرحمن الرحيم، نظر لها وأدرك أنها سمعت كل شيء من خلف الباب، وصاح غاضبا:

ـ احملي (كندا) من الأرض بسرعة.

حملتها ووضعتها بجواره على السرير، وهي مازالت ترتعش وتذكر أسم الله، ودقق نظره لها، وتابع:

ـ أنتِ سمعتِ كلامي مع (كندا)؟

ردت بسرعة، وهي تحاول أفاقه (كندا):

ـ معقول يا (باشا) (أم الشعور) هي (شمس هانم)؟!

ـ نعم، هي (شمس) وكانت ستقتلني اليوم في المقابر لولا (عبده) أنقذني في الوقت المناسب.

راحت ترتجف وترتعش أكثر ومازالت تردد اسم الله، ومر أكثر من عشر دقائق، أفاقت (كندا) وحدقت لجدها، وقالت:

ـ أريد الصعود لغرفتي.

ـ (فوزية) ساعديها تصعد لغرفتها.

وغادرت غرفة جدها وهو مازال في فراشه، و(فوزية) تسير خلفها حتى صعدت غرفتها، وعادت (فوزية) من القصر لبنايتها، مازالت ترتجف مما عرفته هذا اليوم، وأن (أم الشعور) والتي طالما تعاملت معها من قبل طوال هذه الفترة هي (شمس هانم) جلست في الردهة أرضا شاردة تائهة، مازالت تتلو بعض آيات القرآن الكريم، إلى أن هبط (إسلام) من غرفته ونظر لها مُتعجبا، وقال:

ـ ماذا بكِ يا أمي، لماذا ترتجفين هكذا؟!

نظرت له مفزوعة وصمتت، ظل يحدق لها مدهوشا، وتابع:

ـ أريد أن أسألك عن أمر مهم يا أمي.

نظرت له بغير اكتراث وأومأت برأسها ولم تتفوه البتة، فأكمل:

ـ من التي قُتلت في القصر، ومن الخادمة التي قتلتها؟

وهنا وثبت من مكانها بسرعة وراحت تتحرك بطريقة عشوائية في الردهة، تذكر اسم الله، حتى شعرت بالدوار وسقطت مغشيًّ عليها، فحدق لها مصدوما.

مكثت (كندا) في سريرها هذه الليلة، تفكر في كل ما حدث، ولم تستطع أن تنام حتى سطعت الشمس، نهضت من فراشها وفتحت النافذة وراحت تارة تنظر للسماء وتارة في حديقة القصر، ورأت (إسلام) يقف في نافذة غرفته، يلوح لها بيده، راحت تلوح له هي الأخرى بيدها دون أن تتفوه بأي كلمة، وهنا فُتح باب غرفتها، فالتفتت بسرعة، جدها يقترب منها متكئا على عكازه، أغلقت النافذة سريعا واقتربت منه، جلس على طرف سريرها وجلست بجواره ونظر لها، وقال حزينا:

ـ (كندا) لقد كبرتِ الآن يا صغيرتي، لذا حكيت لكِ كل ما حصل زمان قبل أن تعرفينه من أحدٍ غيري، تعالِ ننسى الماضي، المستقبل لكِ أنتِ وأخوكِ، أرجو ألا تتأثر حياتك ومستقبلكِ بما عرفتِنه.

صمتت للحظات ناظرة للأرض وكفيها على ركبتيها، ثم نظرت له وقالت:

ـ أريد أن أعرف شكل بابي و(طنط شمس) الله يرحمهم، لا أعرف شكلهم مطلقا، ولا يوجد لهما أية صورة في أي مكان.

فكر للحظات بصمت، ثم بوجه ممتقع تابع:

ـ للأسف أمك حرقت كل صورهما، ودنا منها وربّت على فخذها، وقال باسما:

ـ لا تغضبي يا حبيبتي، أنا مُحتفظ بصورة لـأبيكِ وصورة لـ(شمس) في درج المكتب في «الإسكندرية» عندما تعودين هناك، ادخلي المكتب وافتحي آخر درج، ستجدين لهما صورتين في ظرف أبيض أسفل كتاب كبير.

أومأت برأسها شاردة بالموافقة.

***

يا لها من ليلة في هذا المكان المُظلم لم تنتهي بعد، وكأنها

«ليلة في الجحيم» (إسلام) مازال يجلس مكانه داخل «المقبرة الملعونة» صابرًا، ينتظر مصيره، وفجأة ظهرت أمه تقترب من نهاية المقبرة عارية الجسد دون سترتها وشعرها يغطي ظهرها، وقد تحولت أظافر يديها لمخالب كمخالب الأسد، وراحت تقطع لحم جسدها بها وتقترب منه أكثر وأكثر إلى أن وقفت أمامه وأغرق دمها الأرض من حولها، وصرخت بقوة صرخة كادت أن تهدم المقبرة، وصاحت:

ـ هو من أجبرني، وأنا كنت عبد المأمور.

***

ليلة شتوية، وعاصفة قوية، كادت أن تقتلع الأشجار من جذورها، رياح، رعد، برق، وأمطار غزيرة أغرقت «بسنتواي» كاملة، وحُبس كل أهلها داخل منازلهم، يدعون ربهم أن تمر هذه الليلة بسلام، وكأن السماء أعلنت عن غضبها، يبدو أن شيء ما سيحدث، وقد عم الهدوء والسكون القصر (نُعمان باشا) بغرفته، ومع اقتراب الثانية بعد منتصف الليل، طرقت (فوزية) باب هذه الغرفة في الطابق العلوي من القصر، ثم فتحت الباب ودلفت منه بهدوء، سيدة أربعينية، تجلس على سريرها وسط الغرفة والذي يشبه سرير الملكات، تُرضع طفل صغير، عمره لا يتجاوز شهر، من ثديها وهي ترتدي منامتها الفاخرة من الحرير، بحدقتين متسعتين نظرت لـ(فوزية)

غاضبة، وصاحت مغتاظة:

ـ لماذا صعدتي هنا الآن؟!

صمتت (فوزية) للحظات، ونظرت للأرض منحنية، ثم أردفت بصوت خافت:

ـ (الباشا) أمرني أطمئن على حضرتك وعلى ابنك يا (شمس هانم).

زمجرت وردت منزعجة:

ـ أنا الحمد لله بخير، أخبريه أني لن أتراجع عما في رأسي.

اقتربت منها (فوزية) بتوجس، وهي تنظر للطفل على ذراعيها، وتابعت:

ـ أريد أن أرى البيه الصغير.

ـ تفضلي.

اقتربت (فوزية) وأخذت الطفل وراحت تقبله بنهم، وأردفت باسمة:

ـ شكله جميل مثل حضرتك يا هانم.

ثم تحركت به نحو الباب، وهنا نهضت (شمس) من مكانها واقتربت منها مسرعة، وقالت:

ـ إلى أين تذهبين بابني أيتها المجنونة المخبولة؟

ـ (الباشا) يريد أن يراه يا هانم.

اقتربت منها (شمس) بسرعة وتملكت من كل قوتها ولطمتها على وجهها، وتابعت:

ـ كلبة وفاجرة مثل (الباشا).

وضعت (فوزية) الطفل على مقعدٍ بجوارهما، ونظرت للأرض دون أن تنطق، فاقتربت (شمس) من ابنها لتحمله مرة أخرى، وفي تلك اللحظات أخرجت (فوزية) سكينًا صغيرا واقتربت منها وطعنتها من الخلف عدة طعنات متتالية، وقالت:

ـ أنا كلبة وفاجرة يا بنت الكلب.

استدارت (شمس) ونظرت لها وهي تترنح، تضم ابنها بين ذراعيها، وبصوتٍ واهن أردفت متلعثمة:

ـ قتلتِني يا فاجرة، يا ملعونة.

أطلقت إيماءة ساخرة، وحدقت لها وقالت باسمة:

ـ آسفة يا هانم، أوامر (الباشا).

سقطت (شمس) أرضًا وابنها بحضنها، سال دمها وأغرق

طفلها، وراحت تحدق له وتبكي، وهو يصرخ بقوة، يبدو أنه شعر بوجع أمه في تلك اللحظات، وكأن صراخه محاولة منه أن ينقذها مستنجدا بأحد، ولكن ما هي إلا لحظات وفارقت الحياة وهي تقبض بذراعيها عليه بقوة وهو مازال يصرخ، و(فوزية) تقف بجوارهما تبتسم ببرود، حتى سال الدم على الأرض وأغرق قدميها، اقتربت من الباب بسرعة وفتحته، دلف (عبده) مسرعًا، ظلا ينظران لـ(شمس) للحظات، ثم اقتربت (فوزية) منها وانتزعت الطفل من بين ذراعيها وهو يحتضن أمه متشبثا برقبتها الغارقة بالدم صارخا، وكأنه لا يريد أن يفارق جثتها، فحدقت (فوزية) لها غاضبة، وصاحت مغتاظة:

ـ حتى وأنتِ ميتة مُتعبة، لا تريدين أن تتركي الولد!

وابتعدت عنها خطوات، وبدأت تضرب الطفل على ظهره بيدها وهو على كتفها، نظر لها (عبده) غاضبا، وصاح:

ـ ماذا تفعلين يا امرأة، سيموت الولد في يديك.

ردت وهي مازالت تضربه وهو يصرخ بقوة:

ـ يا رب يموت، سيكون ولد ملعون مثل أمه، أنا فرحانة أني قتلتها، طالما كانت تتلذذ بإهانتي وإذلالي، ولو (الباشا) يأمرني أقتل ابنها، سأقتله في الحال.

دنا منها وصفعها بقوة، وتابع غاضبا:

ـ اتركي الولد يا عاهرة، أتريدين أن يدفننا (الباشا) هنا.

توقفت عن ضربه وهو مازال يصرخ، أحضر (عبده) ملاءة من أعلى السرير واقترب من الجثة وراح يلفها والدم يسيل منها إلى أن تمكن من لفها جيدا، ثم حملها على ظهره وهبط بها سلم القصر ونقط الدم تتساقط خلفه، ثم دنا من باب القصر وخرج منه سريعا وسار في ممر صغير بين أشجار الحديقة والأمطار مازالت تتساقط بغزارة فأغرقته وأغرقت الجثة واختلط الدم على الأرض بماء الأمطار والطين، (الباشا) يقف في نافذة غرفته يشاهده بصمت، إلى أن وصل الإسطبل ووضع الجثة بجواره، وراح يحفر بالفأس بجانب جداره ما يقرب من النصف ساعة، حتى حفر حفرة عميقة ودفنها، ووضع فوقها التراب الذي تحول لطين بسبب الأمطار، ثم أحضر صخرة كبيرة من خلف الإسطبل ووضعها فوق قبرها، ودلف للقصر مرة أخرى وقد اقترب آذان الفجر، ليجد (الباشا) يقف في البهو يبكي بحرقة وتسيل دموعه، وقال:

ـ لم أكن أنوي أن أفعل بها ذلك، لكنها أجبرتني على هذا.

نظر له (عبده) وزوجته التي تقف بجوارهما تحمل الطفل، وقالت متلعثمة:

ـ ماذا سنفعل بالطفل يا (باشا)؟

صمت وراح يتحرك يمينا ويسارا، ثم قال باكيًا محدقا للطفل:

ـ خذوه، ربوه عندكم وسأتكفل بكل مصاريفه، أنتم لم تنجبوا بعد.

وحدق لـ(فوزية) وتابع:

ـ أخفيه في البيت عندك حتى تعلمي أهل القرية أنك حُبْلي، والناس هنا كل شخص مشغول في أكل عيشه، لن ينتبه أحد أنك حملتِ أو ولدتِ.

نظرت (فوزية) لزوجها وصمتا للحظات، ثم ردا معا في نفس واحد:

ـ تحت أمرك يا (باشا).

أخذا الطفل وخرجا من القصر متجهين لمنزلهما والأمطار مازالت تتساقط مع صوت الرعد والبرق، ودخلا المنزل وأغلق (عبده) الباب خلفهما، وحدق لزوجته وهي تحمل الطفل وتقف في الردهة وقال:

ـ اختاري معي اسم له.

ـ (سليمان) على اسم أبيك، حتى لا يشك فينا أحد.

حدق للطفل باسما وتابع:

ـ (سليمان) على اسم أبي الله يرحمه، ابن الباشوات اتسمى على اسم أبي.

***

قصت كل هذا لـابنها داخل «المقبرة الملعونة» وهي مازالت تتحرك يمينا ويسارًا وتنهش بمخالبها في جسدها، حدق لها مصدوما في ضوء شعلته الخافت، وقال متلعثما مرتجفا:

ـ أهذا يعني أن (سليمان) ليس أخي؟!

أجابت وهي على نفس الحال:

ـ نعم ليس أخوك، إنه ابن (شمس هانم) وأنا قتلتها غصب عني بأمر من (الباشا) أراد أن يقتلها بيده وقال لي هذا يومها، لكن لم يستطع لأنه كان يحبها بشدة، ليتني ما سمعت كلامه ولم أقتلها، أنت لا تعلم ما حصل لي بسبب قتلها.

وصرخت وراحت تركض في نهاية المقبرة، وهنا شرع (إسلام) في البكاء وقال:

ـ لماذا قتلتِها دون أي ذنب يا أمي؟ وحتى (سليمان) لم يكن أخي في الأساس!

وصاح صارخا، وهو يقطع وجهه بأظافر يديه:

ـ أخرجوني من هنا، لا أريد أن أرى أحدا هنا مرة أخرى، ولا أريد أن أموت هنا.

وهنا ظهر الفتى من جديد في نهاية المقبرة بجسده المفتول العضلات، يرتدي فقط سترته، وبيده سوطا أسود اللون، وراح يقترب من فتى آخر، عاري الجسد تمامًا حتى مؤخرته عارية، وجهه نحو جدار المقبرة مقيد اليدين والقدمين، وأخذ يجلده بكل ما أوتي من قوة، والفتى المجلود يصرخ بأعلى صوته، تحرك (إسلام) من مكانه مسرعا نحوهما، وراح يدقق النظر لهما مدهوشا بصدمة، وصاح:

ـ لماذا تجلد (تيمور) هكذا يا (سليمان)؟!

استدار له بصموت ونظر له للحظات، ولم يرد مطلقا، وراح يكمل جلده، فاقترب منه (إسلام) في محاولة أن يبعده عنه، وهنا ظهر (نُعمان باشا) يرتدي أيضا سترته فقط، ولحم جسده يهتز حوله نظرا لبدانته، واقترب نحوهم الثلاثة من أقصى يمين المقبرة متكئا على عكازه، ووقف بجوارهم، ونظر لثلاثتهم؛ ثم حدق في ظهر المُجلد وقد سال دمه وأغرق الأرض حوله، وصمت هنيهة ثم نشج بقوة، ونظر

لـ(إسلام) وبصوت متحشرج غلبه البكاء قال:

ـ اتركه يأخذ حقه منه.

نظر له (إسلام) مدهوشا وقال متلعثما:

ـ وماذا فعل به يا باشا؟!

وهنا تحرك (نُعمان باشا) من مكانه متجها ليمين المقبرة مرة أخرى، وهو مازال يبكي وتوارى في الحال، التفت (إسلام) نحوه يبحث عنه ولكن لم يجد له أي أثر، استدار نحو الاثنين الأخرين مرة أخرى، فلم يجد لهما أي أثر أيضا، لقد اختفوا الثلاثة في لحظات، وهنا ركض بسرعة وجلس مكانه خلف باب المقبرة مرة أخرة بجوار شعلته ودمدم صارخا، وقال:

ـ أخرجوني من هنا.

***

مرت الأيام، يومًا تلو الآخر على (كندا) بعد أن قص عليها جدها كل ما حدث لـ(شمس) ووالديها، وهي مازالت في قصر «بسنتواي» لم تذهب لـ»الإسكندرية» بعد، معظم الوقت بغرفتها صامتة لا تتحدث مع أحد، و(إسلام) يذهب للكلية بصحبة (أحمد) كل صباح ويعود للقرية في المساء، وذات

يوم عصرًا بعد عودته، جلس مع (كندا) في حديقة القصر وراح يقنعها أن تذهب لـ«الإسكندرية» لتتابع دراستها في الكلية حتى لا تفوتها المحاضرات، نظرت له شاردة تائهة وقالت:

ـ يبدو أنني سأترك القرية وأعيش في «الإسكندرية» لكن ليس وحدي.

بترقب سألها:

ـ مع من؟

صمتت للحظات وراحت تنظر على مرمى بصرها في الحديقة، ثم أجابت بهدوء:

ـ معك يا (إسلام).

ـ كيف يا (كندا)؟!

ـ إن شاء الله أقنع جدي، أننا نتزوج ونعيش هناك بعيد عن هنا وبعيد عن كل ما حصل.

اعترى وجهه الدهشة، وأردف باسما:

ـ نتزوج! يبدو أنكِ تحلمين يا حبيبتي.

تنفست الصعداء وتنهدت بقوة وتابعت:

ـ المهم أنت موافق أم لا؟

ـ بالطبع موافق، لكن (الباشا) و(تيمور) مستحيل يوافقا.

صمتت للحظات، ثم تابعت باسمة:

ـ جهز نفسك، إن شاء الله يحصل قريب.

حدق لها باسمًا ساخرًا وصمت، لا يصدق أي كلمة من كلماتها، وغمغم:

ـ يبدو أن (كندا) فقدت عقلها؟

وفي مساء هذه الليلة، جلس (نُعمان باشا) في بهو القصر يشاهد التلفاز، ووقفت (فوزية) بجواره، وبصوت خافت قالت متمتمة:

ـ أرجو أن توافق على زواج (كندا هانم) و(إسلام) يا (باشا) إنه أنسب حل بعد معرفة (كندا هانم) بكل شيء عن الماضي، ومن الأفضل أن يبتعدوا عن هنا ويعيشوا في «الإسكندرية» مع بعض ويكملوا الكلية هناك.

نظر لها غاضبا، وراح يفكر ولم يتفوه البتة فغادرت واقتربت (كندا) وجلست بجواره وطلبت منه نفس ما طلبته (فوزية) منذ قليل، راح يحدق لها للحظات؛ ثم رد:

ـ وأنا موافق يا (كندا) ولكن المشكلة في (تيمور).

بصوت غلبه التعب والحزن تابعت:

ـ ليس لـ(تيمور) كلمة عليّ طالما حضرتك عايش يا جدي، وأتمنى إن حضرتك تكون تعلمت مما حصل لـ(طنط شمس وبابي ومامي) الله يرحمهم جميعا.

ترقرقت عينيه بالدموع، وبنبرة حزينة تابع:

ـ بالفعل لقد تعلمت الدرس يا صغيرتي، وما حصل زمان هو السبب الوحيد إني موافق على زواجك من (إسلام) الآن، لا أريد أن أكون سببًا في تعاسة وحزن أحد مرة أخرى.

حدقت له وأسارير وجهها منفرجة، وقالت:

ـ Thanks a lot, سأسافر غدا «الإسكندرية» إن شاء الله.

وفي اليوم الموالي، وبينما يقف (إسلام) و(أحمد) أمام المدرج قبل محاضرة التاسعة صباحا، نظرا على مرمى بصرهما من بعيد، (كندا) تقترب نحوهما، ترتدي فستانا أسود اللون فوق الركبة، وشعرها يتطاير خلفها، نظر (أحمد) لـ(إسلام) وقال ساخرا ضاحكا:

ـ أكيد هذه الضحكة بسبب رؤيتك لـ(كندا)؟

نظر له باسما ولم يرد، واقتربت منهما، وقالت باسمة:

_ Good morning

راح (أحمد) يحدق لها بتمعن وكأنه يريد النظر لوجهها أكثر، ورد:

ـ صباح الجمال على أجمل بنت في «إسكندرية والبحيرة» كلها.

حدق لها (إسلام) مُبتسمًا، وقال:

ـ حمد الله على السلامة يا (كندا) الكلية نورت.

وتحرك ثلاثتهما ودلفوا للمدرج.

ومع انتهاء اليوم الدراسي، خرجوا من الكلية (إسلام) و(أحمد) متجهان لمحطة القطار، و(كندا) استقلت سيارتها متجهة لقصر «كفر عبده»، وصلت القصر وقد بدأ يختلط الظلام مع النور وقت الغروب، فتح (الحارس) البوابة سريعًا ودلفت بسيارتها تنظر له مبتسمة، ثم ركنتها واقترب (الحارس) منها، وقال باسمًا:

ـ حمد الله على السلامة يا (كندا) يا ابنتي، القصر نور.

بنظرة حب وحنان نظرت له باسمة، وقالت بعد أن هبطت من سيارتها:

ـ (كندا) يا ابنتي، أجمل كلمة سمعتها في حياتي، كم كنت

أتمنى رؤية بابي قبل موته وأسمع منه هذه الكلمة، تخيل يا عمي، أنا حتى لا أعرف شكله ولا ملامحه!

ترقرقت عينيه بالدموع، وبنبرة حانية تابع:

ـ اعتبرني مثل أبيكِ يا (كندا).

وصمت هنيهة، وأكمل:

ـ أنا آسف يا ابنتي، شكلي نسيت نفسي.

اقتربت منه وحدقت في عينيه، وأردفت:

ـ أنا بالفعل أشعر أنك مثل بابي، وطيلة الوقت أريد النظر في وجهك.

ـ حقا إنه لشرف عظيم، ربنا يجبر بخاطرك.

وفي تلك اللحظات، اقتربت منهما (الدادة) مسرعة ونظرت لـ(كندا) وقالت باسمة:

ـ حمد الله على السلامة يا (كندا هانم) القصر نور.

نظرت لها غاضبة، وأردفت مغتاظة:

ـThanks

حملت (الدادة) حقيبتها من السيارة وراحت (كندا) تقترب من القصر و(الدادة) خلفها والحقيبة على ظهرها.

وفي مساء هذه الليلة، ومع اقتراب منتصف الليل، وقد عم الهدوء والسكون القصر تماما، غرقت (الدادة) في سبات عميق بغرفتها، وخلد (الحارس) للنوم بغرفته، و(كندا) في فراشها تفكر في كل ما عرفته في القرية أثناء أجازتها الأخيرة، إلى أن نهضت وتحركت مسرعة من سريرها، وقد ظهرت السعادة على وجهها، وبترقب قالت:

ـ الصور، كيف لم أرَ الصور منذ دخولي القصر حتى الآن؟!

وخرجت سريعا من غرفتها، وراحت تهبط السلم قفزًا كالعصفورة في خفتها، والطابق الأرضي مظلم تماما، دون مصباح خافت يعلو سقف البهو، باب القصر الداخلي مُغلق، والهدوء والسكون يسيطر على المكان، اقتربت بسرعة من باب المكتب وفتحته ودلفت منه ثم أغلقته خلفها، وضغطت على زر الإضاءة خلف الباب، لتنير غرفة المكتب بنور خافت راح يبعث الهدوء أكثر، وتحركت نحو مقعد جدها بجوار منضدة المكتب الكبيرة وانحنيت بجسدها وفتحت الدرج الأخير، وراحت تبحث عن هذا الظرف الأبيض أسفل كتاب كبير عن الأدب الإنجليزي، أحضرته ووضعته سريعا على سطح المنضدة، وتنهدت بقوة، وراحت تتنفس بعمق وكأنها تريد أكثر وأكثر من الأكسجين الآن، فتلك هي المرة الأولى التي سترى وتعرف شكل أبيها، والتي طالما انتظرت هذه

اللحظة، فتحت الظرف وأخرجت صورتين فوتوغرافية، وحدقت لهما بتمعن، وهنا شعرت بالدوار كادت أن تسقط مغشيً عليها...



(٢١)

مازال (إسلام) داخل «المقبرة الملعونة» وقد فقد الأمل في كل شيء وتمنى أن تنتهي هذه الليلة ولو بموته ليستريح من كل هذا الرعب والألم، رفع رأسه مجددا ورأى، هذا الفتى مفتول العضلات يجلس أمامه أرضا عاري الجسد دون سترته، وحدق له بهدوء وحب وكأنه أراد أن يطمئنه ويخبره بنظراته:

ـ لا تخف، أنا جانبك ومعك.

رمش (إسلام) عدة مرات حتى رآه جيدا وقال:

ـ (سليمان) الحمد لله أنك جئت، أنا خائف.

ـ لا تخف يا حبيبي، أنا طيلة عمري كنت في ظهرك.

أومأ برأسه، وتابع باسما:

ـ بالفعل هذه حقيقة، ولكن لماذا لا تساعدني أن أخرج من هنا؟!

نشج بقوة وأردف والدموع تتساقط من عينيه:

ـ ليتني كنت أستطيع.

هز (إسلام) رأسه بغير اكتراث، يبدو أنه فقد الأمل في

الخروج من المقبرة وأردف بترقب:

ـ لماذا كنت تجلد (تيمور) ولماذا قال لي (الباشا) اتركه يأخذ حقه؟!

صمت للحظات وكف عن البكاء، وبعينين متقدتين شرار تابع مغتاظا:

ـ حاولت أن آخذ جزءًا من حقي بعد ما فعله بي بسببك زمان.

ـ ما فعله بك بسببي أنا!

ـ نعم، بسببك أنت، ويومها أمك وأبيك تخلوا عني، ورفضا أن يدافعا عني وينقذوني منه.

حدق له (إسلام) بوجوم، وأردف بترقب:

ـ أمي وأبي! إنهما أمك وأبيك أيضا.

أطلق إيماءة ساخرا وتابع باسما:

ـ أنا ابن (شمس) أخت (الباشا) لست بأخيك.

ترقرقت عينيّ (إسلام) بالدموع وتابع حزينا:

ـ أنت أخي وحبيبي، أنت من كنت أرتاح بحضنه، لم أشعر يوما أنك لست أخي، أرجوك قُل لي ما حصل.

وهنا تنهد بقوة وراح يبكي بهدوء، وفرت الدموع أيضًا من عينيَّ (إسلام).

***

غروب يوم أن رفع (سليمان) يده على (تيمور) في حديقة القصر دفاعا عن (إسلام) أمر (تيمور) (فوزية) أن ترسل له يأتي للقصر، وأتى ودخل البهو، ونادى عاليا:

ـ أمي.

كانت (فوزية) تراقبه من خلف ستارة المطبخ ولم تجب البتة تنفيذا لأوامر (تيمور بيه) ظل ينادي متجها للمطبخ، وهنا هبط (تيمور) السلم، ونظر له باسما وقال:

ـ قف عندك، إلى أين أنت ذاهب يا حيوان يا صعلوك يا فلاح؟

تسمر مكانه ونظر له غاضبا بعزة نفس، ورد بغير اكتراث:

ـ لست بحيوان يا (تيمور بيه) ولو سمحت لا تشتمني حتى لا أرد عليك الشتائم.

قهقه عاليا وأردف ساخرا:

ـ وهل تستطيع أن ترد عليَّ يا كلب؟

صمت (سليمان) للحظات، ثم قال غاضبا:

ـ لقد تركتك اليوم لأجل (الباشا) فقط، لكن لو أكملت الشتائم هكذا، سأضربك بالفعل ولن يهمني أحد مهما كان.

وراح يقترب منه، وهنا حدق له (تيمور) غاضبا، وأمسك الطبنجة والتي كانت معلقة في سرواله من الخلف، ورفعها عليه وقال باسما:

ـ كم اتمنى قتلك منذ زمن، وحان الوقت لتموت يا كلب.

دنا (سليمان) منه دون خوف، و(تيمور) ينظر له مدهوشا من جرأته، وقبل أن يصل إليه، أطلق (تيمور) رصاصة في صدره، فحدق له وهو يترنح وأكمل خطواته نحوه، وصل إليه وقبض بيديه على عنقه في محاولة أن يخنقه ولكن ما هي إلا لحظات وابيضت عينيه وخرج الدم من فمه ورفع رأسه لـأعلى في محاولة أن يتنفس وسقط أرضا وصارت رأسه فوق قدم (تيمور) نظر له (تيمور) بتكبر وغطرسة وتابع ضاحكا:

ـ من يفكر رفع يده على (تيمور بيه) مصيره القتل يا كلب يا فلاح.

كل ذلك و(فوزية) تشاهد المشهد ولم تخرج من المطبخ بعد، إلى أن خرج (نُعمان باشا) من غرفته، وصاح بقوة:

ـ ما صوت الرصاص هذا؟!

وهنا خرجت (فوزية) بسرعة واقتربت منهم، ودلف أيضا (عبده) من باب القصر مسرعا وتجمعوا الأربعة حول (سليمان) وهو مستلقي أرضا، ينظر لهم وقد فرت الدموع من عينيه إلى وجنتيه، دنا (الباشا) من (تيمور) وراح يصفعه على وجهه صفعات متتالية، وصاح:

ـ لماذا فعلت هذا؟

ثم اقترب من (سليمان) وجلس أرضا بجواره وضمه لصدره، وبنبرة حانية قال:

ـ لا تخف يا حبيبي، لن تموت وستكون بخير، لا تستسلم، سأحضر لك أكبر دكتور في مصر حالا.

نظر (تيمور) لجده مُتعجبا من تصرفاته، وأكمل (الباشا) باكيا:

ـ أرجوك لا تمت وتتركني، أنت آخر أمل من رائحتها، أنت من تذكرني بها طوال الوقت، أراها في ملامحك وكأنها مازالت تعيش معنا، لا تمت من أجلي وأجلها.

دنا (عبدهُ) من (سليمان) وراح يحتضنه باكيا، وصاح:

ـ لماذا فعلت هكذا يا (تيمور بيه)؟

اقتربت منه زوجته بسرعة وربّتت على كتفه بقوة وأوقفته وسحبته بعيدا عنهم بخطوات دون أن تسيل دمعة واحدة من عينيها، وهمست في أذنه ببرود:

ـ الأمر لا يخصنا يا (عبده) هم أحرار معه.

وهنا راح (سليمان) ينظر حوله في كل مكان، وبصوت واهن مبحوح قال:

ـ أبي، أمي.

دنا منه (عبده) وهو مازال يبكي و(فوزية) مازالت تقف بعيدا عنه، وقال:

ـ أنا هنا جانبك يا حبيبي.

صاح (الباشا) بأعلى صوته:

ـ ليس أبيك وليست أمك، أنت ابن أختي (شمس).

حدق (تيمور) لجده بصدمة ولم يتفوه بأي كلمة، وما هي إلا لحظات ومات (سليمان) بين أحضان خاله (نُعمان باشا) بعد أن أغرق دمه ملابسه، فصاح صارخا:

ـ لا تتركني يا حبيبي.

كانت (كندا) بغرفتها، نائمة في فراشها كما تعودت أن تنام

كل يوم في هذا الوقت، واستيقظت على صوت الرصاص ولكنها وجدت باب غرفتها مُغلق بالمفتاح من الخارج، مر ما يقرب من الساعة وقد تم إخفاء الجثة في بدروم القصر بعد أن لفها (عبده) جيدا بملاءة، ونظفت (فوزية) المكان وصار البهو كما كان وكأن شيء لم يحدث، ذهب (تيمور) وفتح غرفة (كندا) نظرت له غاضبة وقالت:

ـ من أغلق غرفتي، ولماذا؟!

ضحك ساخرًا وأجاب:

ـ أنا، ولا تسألي عن السبب.

حدقت له بكره وسألته:

ـ وما صوت الرصاص هذا؟!

ـ كنت أتمرن على الطبنجة وخرجت طلقة منها.

وبعد منتصف الليل، وقد غرق الجميع في سبات عميق، حمل (عبده) الجثة ودفنها في نفس المكان الذي دفنت به (شمس) قبل ذلك، ووضع هذه الصخرة مكانها كما كانت، وبذلك يكون أسفل هذه الصخرة جثة (شمس) وجثة ابنها (سليمان). وفي اليوم الموالي، قاموا بالبحث عن (سليمان) في كل مكان وكأنه اختفى فجأة في ظروف غامضة.

ـ هذا كل ما حصل يا (إسلام).

هكذا قال الفتى، وهو مازال يبكي بحرقة داخل «المقبرة الملعونة» ثم تحرك من مكانه وركض في أقصى نهاية المقبرة صارخا، نظر له (إسلام) وقال باكيا:

ـ هذا يكفي، لن أستطيع أكثر من ذلك، أخرجوني من هنا، لا أريد أن أعرف أي شيء آخر، يا رب أخرجني من هنا أو موتني وتريحني من كل هذا.

***

ـ (الحارس) و(الدادة) مستحيل، أكيد أنا بحلم!

غمغمت (كندا) بعد أن رأت الصورتين، وظلت تحدق فيهما للحظات، لا تصدق البتة وراحت تتنفس بصعوبة وكأن روحها تُسحب، وبدأ العرق يتصبب من جسدها، تريد أن تصرخ وتستغيث ولكن لم تستطع، صوتها حُبس في حلقها، تحاول أن تبلع ريقها، اتسعت عينيها بشدة ورجعت للخلف وجلست على مقعد جدها، لا تستوعب الموقف، الدوار يسيطر على رأسها، إلى أن أفاقت قليلا وغمغمت بصمت:

ـ أين موبايلي؟ بغرفتي على الشاحن.

صمتت وهي مازالت تمسك الصورتين بيديها وتحدق لهما،

ثم بدأت تتحرك من مكانها بخطوات بطيئة وتقترب لباب المكتب تسير على أناملها خوفا أن يسمعها أحد، واربت الباب بهدوء، وراحت تنظر في البهو ناحية غرفة (الدادة) للحظات، وكأنها تترقب خروجها الآن، إلى أن تأكدت أن غرفتها مُغلقة، فخرجت وسارت ببطء شديدة تجاه السلم، ثم بدأت تصعد درجاته مرتجفة، تتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعها، واقتربت من غرفتها ودلفت بسرعة وأغلقت الباب خلفها بالمفتاح، جلست على طرف سريرها وتنفست الصعداء، ثم نهضت واقتربت من هاتفها المحمول، وطلبت هذا الرقم الذي رد في الحال، وبصوت خافت متلعثمة قالت:

ـ (إسلام) إنهم بالخارج وسيقتلونني، أنقذني أرجوك.

وفصل الخط، حاولت أن تطلبه مرة أخرى ولكن لم يجمع مطلقا، وفي تلك اللحظات سمعت صراخًا في الحديقة بجوار نافذة غرفتها، ودنا صوت للنافذة، ضحك وقهقه عاليا وصاح:

ـ هذا هو اليوم الذي طالما انتظرته منذ زمن يا (كندا).

وتوارى الصراخ والصوت، ظلت ترتعش وترتجف وتابعت مغمغمه:

ـ صوت (الدادة) (طنط شمس) تعيش معي كل هذا الوقت في صورة (الدادة) وبابي يعيش معي في صورة (الحارس)!

وسمعت همهمات وصوت تنفس مرتفع أمام باب غرفتها، فصعدت سريرها ودفنت رأسها تحت وسادتها وراحت تحدق بعينيها من أسفل الوسادة تجاه الباب والذي بدأ مقبضه يتحرك من الداخل، شرعت تتلو بعض آيات القرآن الكريم، إلى أن سمعت من يضحك خارج الباب وقال:

ـ افتحي يا (كندا).

تشجعت وردت بصوت متحشرج متلعثمة:

ـ لن افتح يا (دادة) لقد عرفت أنك (طنط شمس) التي قُتلت من سنوات، ماذا تريدين مني؟! أرجوكِ ابتعدي عني، حتى يطلع النهار وسأغادر القصر ولن أعود إليه مطلقا.

توارى الصوت خلف الباب، وهنا تحركت من سريرها واقتربت من النافذة وفتحتها بهدوء، ونظرت ناحية غرفة (الحارس) على البوابة، وصاحت بأعلى صوتها:

ـ أنقذني يا بابي، أرجوك أنقذني، (الدادة) ستقتلني.

لم يجب البتة، وهنا أطفئ مصباح غرفتها وحده/ لا تعلم من أطفأه رغم باب غرفتها مازال مُغلق، فالتفت ونظرت نحو الباب، وهنا فُتح الباب وحده ودلفت (الدادة) ورأتها (كندا) لـأول مرة بهذا الشكل، عارية الجسد تماما دون سترتها، تحولت أظافر يديها وقدميها لمخالب، شعرها خلف ظهرها

حتى خصرها، تحمل شعلة صغيرة من النار بيدها، وراحت تقترب منها بهدوء وهي تضحك ساخرة وقالت:

ـ هذا هو اليوم الذي طالما انتظرته منذ زمن يا (كندا).

صرخت بقوة وصاحت:

ـ أرجوكِ ابتعدي عني، ماذا تريدين مني؟

ظلت تقهقه عاليا وأردفت:

ـ سأفعل بكم مثل ما فعلتم بي وبابني.

وعندما ذكرت اسم ابنها بدأت تبكي بعد أن كانت تضحك، وتسمرت مكانها وراحت تنظر بعيدا عن (كندا) لتستغل (كندا) تلك اللحظات وخرجت من الباب وركضت وهبطت السلم سريعا، وصاحت صارخة:

ـ ساعدني يا بابي.

و(الدادة) تلاحقها، إلى أن وصلوا البهو، وسقطت (كندا) أرضا وتابعت باكية:

ـ أرجوكِ ابتعدي عني، لا أريد أن أموت.

نظرت لها (الدادة) غاضبة، وبدأت تلوح بشعلة النار بيدها وتضحك من جديد واقتربت منها أكثر وقربت شعلة النار من

وجهها، وتابعت ضاحكة:

ـ يجب أن تموتوا جميعا.

صمتت (كندا) واستسلمت لمصيرها، وفي تلك اللحظات فُتح باب القصر بقوة ودلف (الحارس) واقترب نحوهما بسرعة البرق وهو عاري الجسد تماما دون سترته وصاح عاليا:

ـ ابتعدي عنها يا ملعونة، وإلا أحرقتك الآن، لا تخافي يا (كندا) أنا هنا جانبك.

بحدقتين متسعتين نظرت له (الدادة) وراحت تخرج من عينيها شرارات من النار نحوه كادت أن تحرق وجهه وهي تصرخ، ثم رجعت خطوات للخلف بعيدا عن (كندا) فنظرت له (كندا) وراحت تستغيث به وقالت باكية:

ـ أنقذني يا عمي.

دنا منها دون أن يلمسها وراح يحدق النظر بعينيها، وتابع:

ـ أريد أن أسمع الكلمة الأخرى التي ناديتني بها منذ قليل.

حدقت له مرة أخرى بعد أن شعرت بالأمان قليلا وأردفت:

ـ بابي، أنت بابي؟!

تورد وجهه بالابتسامة وأردف:

ـ نعم، أنا بابي يا (كندا) وجئت هنا عندما عرفت أن هذه الملعونة تنوي الشر لكِ، جئت أراقبها طوال الوقت، لا تخافي لن تقترب منكِ مرة أخرى، سنغادر القصر أنا وهي، يجب أن نرحل، صار وجودنا هنا مستحيل.

دققت النظر له وهي مازالت ترتجف وبصوت خافت واهن تابعت:

ـ هل ما زلت على قيد الحياة يا بابي؟! أرجوك قُل لي أنك ما زلت عايش.

نظر لها باسما ولم يجب و(الدادة) تقف على بعد أمتار منهما دون أن تحرك ساكنا مجددا، وهنا ابتعد عنها وراح يقترب من باب القصر وصاح:

ـ مع السلامة يا (كندا).

خرج من الباب وخرجت خلفه (الدادة). ووقفت (كندا) من مكانها وركضت نحو الباب ونظرت في الحديقة فلم تجد أحدا منهما، راحت تركض في الحديقة كالمجنونة وصاحت:

ـ أين اختفيت يا بابي؟

حتى اقتربت من غرفة (الحارس) ودخلتها فلم تجد

أحدا بداخلها وظهرت كما هي يوم أن انتقلت للقصر في «الإسكندرية» لتعيش وحدها وكأن لم يسكنها أحدا البتة في الأيام السابقة، المقاعد مغطاة بالملاءات، وهناك تراب على السرير، أسرعت ودخلت للقصر، ثم دلفت لغرفة (الدادة) الحال كما هو بغرفة (الحارس). وهنا خرجت من القصر بسرعة تنادي بأعلى صوتها:

ـ بابي.

وفي صباح اليوم الموالي، وقبل طلوع الشمس، وصل (إسلام) لقصر «كفر عبده» ودخل من البوابة والتي وجدها مفتوحة وركض كالمجنون في الحديقة حتى دلف من باب القصر والذي وجده مفتوح أيضا، وراح ينادي بأعلى صوته داخل القصر:

ـ (كندا).

ظل ينادي ما يقرب من العشر دقائق ويبحث عنها في كل أنحاء القصر، الطابق الأرضي والعلوي، ولكن لم يجدها مطلقا، خرج من القصر وراح يبحث عنها في الحديقة، إلى أن وجدها على الحشائش بين الأشجار مغشيً عليها بيدها الصورتين، ترتدي بيجامة نومها والتي ظهرت مقطعة من بعض أجزائها، حدق لها مدهوشا وصاح عاليا:

ـ (كندا).

وأخذ يلمس وجهها بيده للحظات، حتى أفاقت ونظرت له وهي ترمش بعينيها واقتربت له باكية فضمها بين ذراعيه وعانقها بقوة وسالت دموعها على كتفه، راح يلمس على شعرها، وبنبرة حانية قال:

ـ اهدئي يا حبيبتي.

ابتعدت عنه بعد أن هدأت قليلا وراحت تنظر للصورتين، وقالت متلعثمة:

ـ بابي و(طنط شمس).

نظر لها وهو لا يفهم أي شيء وبدأ يحدق في الصورتين دون أن يتفوه؛ فكررت كلماتها وتابعت باكية:

ـ (الحارس) هو بابي، و(الدادة) هي (طنط شمس)!

هكذا قالت الفتاة داخل «المقبرة الملعونة» وهي تجلس وجها لوجه لـ(إسلام) عارية الجسد دون سترتها، ثم صرخت بقوة وتابعت باكية:

ـ كل شيء كان كذبا، حتى (الحارس) ليس هو و(الدادة) ليست هي.

وظلت تصرخ حتى قال (إسلام) بنبرة حزينة محدقا لها

بحب:

ـ لم أكن أريد من كل هذا العالم غيرك يا (كندا).

هزت رأسها ونظرت له من بين شعرها، وتابعت حزينة:

ـ أعلم جيدا أنك طيب، لكن كان هناك مواقف كثيرة كنت ضعيف فيها، لم تدافع عن حبنا، أنا دافعت عن هذا الحب بكل قوتي، أريدك أن تعرف أنني لم أكره شخصيتك أبدا، لقد أحببتك مثل ما كنت، وحتى عندما تكلمت مع جدي وأقنعته أن أتزوجك، قال لي، إنه شخص ضعيف ولن يستطع حمايتك من (تيمور).

وهنا ظهر (نُعمان باشا) ودنا نحوهما من أقصى نهاية المقبرة متكئا على عكازه عاري الجسد دون سترته، ووقف بجوار الفتاة وحدق لها وقال مغتاظا:

ـ الآن عرفتِ أن كلامي كان صحيح، وأنه لن يحميكِ.

صرخت بوجهه ونظرت له من بين شعرها والذي مازال يغطي وجهها، وتابعت:

ـ كان مغلوب على أمره، لكن أنت خدعتني، وافقت على زواجنا وعرفت (تيمور) بكل شيء، وكانت النتيجة أنه أتى من «لندن» وحصل ما حصل.

بكي بقوة- وأردف حزينا:

- لم أكن أعرف أنه سيحصل كل هذا.

وفي تلك اللحظات، ظهر (تيمور) عاري الجسد دون سترته، واقترب نحوهم من نهاية المقبرة ووقف بجوارهم، ونظر للفتاة وبدموع حمراء تتساقط أسفل قدميه تحرق مكانها قال باكيا:

- لم أقصد أن أفعل بكِ ما حصل.

نظرت له وهي تبكي دموع تشبه دموعه وردت:

- طيلة عمرك تكرهني، مع أني أحبك كثيرا، لماذا هذا الكره ولماذا فعلت بي هكذا؟ كنت اتركني أفرح وأعيش حياتي، لم أكن أريد أي شيء منك أو من جدي، كل ذلك من أجل المال، كنت خذ كل ما يملك جدي، لم أرد مالًا ولا العيش في القصور، لكن أنت نسخة من جدي، قتل أخته وابنها دون أن يشعر بأي ذنب من أجل المال والأطيان.

وهنا ظهرت (أم الشعور) عارية الجسد دون سترتها، واقتربت نحوهم ووقفت بجوارهم وحدقت لـ(نُعمان باشا) وقالت باسمة:

- كنت تعتقد أنك فلت مني في المقابر، أنا تركتك يومها

من يدي مع أني كنت أستطيع قتلك بسهولة، لأني كنت أعلم جيدا أني سأقتلك.

وراحت تنظر لـ(إسلام) وصمتت للحظات ثم تابعت حزينة:

ـ هل تعلم لماذا أنقذتك؟

نظر لها وهو مازال يشاهد كل هذا بصمت فتابعت:

ـ أنقذتك لأن ابني كان يحبك كثيرا، وأعلم جيدا أنك أنت أيضا كنت تحبه بجنون.

وهنا ظهر الفتى مفتول العضلات عاري الجسد أيضا دون سترته، واقترب نحوهم ووقف بجوارهم فاقتربت منه (أم الشعور) سريعا وضمته بين ذراعيها وراحت تبكي بقوة، وأردفت:

ـ ابني.

ونظر له (إسلام) وقال متمتما:

ـ (سليمان) وحشتني.

فنظر له ولم يرد بأي كلمة، استدارت (أم الشعور) ونظرت لـ(إسلام) وقالت:

ـ بعد ما فعلته أمك بي، كنت أنوي قتلك وأحرق قلبها

عليك لكن ابني منعني من ذلك.

واستدارت وراحت تنظر للفتى مرة أخرى، وهنا ظهرت (فوزية) عارية الجسد أيضا دون سترتها، واقتربت نحوهم باكية ونظرت لـ(أم الشعور) وقالت:

ـ لم أكن أريد فعل ذلك بكِ يا (شمس هانم) لكن (الباشا) أمرني، رغم أنه كان يحبك كثيرا.

نظرت (أم الشعور) لـ(نُعمان باشا) وتابعت باسمة:

ـ طيلة عمرك كذاب.

نشج (نُعمان باشا) بقوة وقال:

ـ سامحيني يا أختي.

وهنا ظهر (عبده) عاري الجسد أيضا دون سترته واقترب منهم، ووقف بجوارهم ونظر لـ(إسلام) وقال:

ـ سامحني يا ابني على كل ما حصل.

حدق له (إسلام) والدموع تسيل من عينيه ولم يرد البتة، ساد الصمت للحظات إلى أن ظهرت سيدة عارية الجسد أيضا دون سترتها تقترب نحوهم، ووقفت بجوار الفتاة وقالت حزينة:

ـ سامحيني يا ابنتي.

صرخت (الفتاة) في وجهها وصاحت:

ـ ابتعدي عني، أنا أكرهك بعد ما فعلتيه في بابي.

وظلت تصرخ بقوة وقالت:

ـ ابتعدوا عني كلكم، لا أريد شيئًا منكم، هذا يكفي لم أرد غير العيش في هدوء وحب، لم أجد منكم غير الكره والكذب والخداع والطمع والنفاق والدم.

وهنا ظهر (الحارس) عاري الجسد أيضا دون سترته، واقترب من الفتاة وقال:

ـ وحشتني يا (كندا).

أسرعت نحوه وضمها بين ذراعيه، حتى باتت بحضنه وتابعت باكية:

ـ وحشتني يا بابي، أنا سعيدة أني معك الآن.

ظل (إسلام) يشاهد كل هذا، ظهور واحدا تلو الآخر إلى أن تجمعوا جميعا صفا واحدا أمامه، راح يحدق لهم من اليمين لليسار وغمغم:

ـ (كندا، الحارس، تيمور وأمه، نُعمان باشا، أم الشعور،

سليمان، أبي، أمي) متى سيكون دوري؟! ثم صاح وهو مازال ينظر لهم غاضبا:

ـ كنت أتمنى أن نعيش جميعا في سلام، أمان، هدوء، لماذا كل هذا الطمع والكذب والنفاق والكره والخداع والقتل والدم في الحياة، لماذا لا يرضى كل شخص بنصيبه ويعيش الحياة بهدوء، لماذا نفعل في بعضنا كل هذا؟!

حدقت له (كندا) وهي مازالت تبكي، وأردفت:

ـ اسمها حياة، لا بد أن يكون فيها كل هذه العيوب، ليس بها راحة، سأنتظرك هنا يا (إسلام).

نظر لها والدموع تسيل من عينيه، وتابع باكيا:

ـ أنتِ تعيشين معي يا (كندا) لم تبتعدي عني أبدا ولم أبتعد عنكِ.

وفي تلك اللحظات ظهر نور فج المقبرة من نهايتها وراح يقترب نحوهم جميعا، فحدقوا النظر له (حامل المفاتيح) يشق هذا النور من جديد، بزيه المعتاد يحمل حزمة المفاتيح بيده، وراح يلوح بها كالعادة، التفتوا له جميعا والتفوا حوله، دون (إسلام) وشرعوا يحدقون له بترقب وكأنهم طالما ينتظرون ظهوره، نظر لهم باسمًا ولم يتفوه بأي كلمة، واقترب من العيون الثلاثة داخل «المقبرة الملعونة» وفتح

العين الشرقية ذات القفل الذهبي بمفتاح ذهبي من حزمة المفاتيح، وهنا أسرع كلا من (الحارس وزوجته، كندا، تيمور ونُعمان باشا) ودخلوها بسرعة البرق وأغلق (حامل المفاتيح) قفلها خلفهم، ثم فتح العين الغربية، ذات القفل الذهبي أيضا بنفس الطريقة، فأسرع كلا من (أم الشعور وسليمان) ودخلا بنفس الطريقة وأغلق خلفهما أيضا، ثم اقترب من العين الشمالية، ذات القفل الحديدي وفتحها بمفتاح حديدي، ودخل (عُبده وفوزية) وأغلق خلفهما. وبذلك دخلوا جميعا كل منهم مكانه المخصص له و(إسلام) مازال يجلس مكانه يشاهد كل هذا مُتعجبا، وقف (حامل المفاتيح) وسط المقبرة وراح يضحك وقال:

ـ ارقدوا جميعا بسلام، وكل واحد منكم «له ما له وعليه ما عليه» حتى نلتقي جميعا في اليوم الموعود.

وهنا صرخ (إسلام) عاليا وتذكر كل ما حدث من جديد.

***

هذه الليلة التي سبقت زفاف (إسلام) و(كندا) بعدة ليالٍ في قصر «بسنتواي»، بحضور جدها، جميعهم سُعداء في تجهيز القصر لحفل الزفاف يوم الخميس القادم، وفي غياب (تيمور)، جلس الجميع يستعدون لحفل الزفاف وهم في اطمئنان تامٍّ لغياب (تيمور) الذي طالما رفض هذا الزواج

بشدة؛ نظرًا لنظرتهُ الدونية لـ(إسلام) وأُسرته، فهو ينظر لهم دائمًا أنهم الخدم الذين يعملون في «الوسية»؛ التي سوف يملكها هو و(كندا) بعد رحيل جدهِ عن الحياة، ولكن تمسكت (كندا) بحبها رغم الفارق الكبير بينهما في كل شيء، أتى (تيمور) تلك الليلة من «لندن»، ووصل القصر في القرية بعد أن عرف بخبر الزواج، دخل القصر، وجدهم يجلسون في البهو، دنا منهم ونظر لجده، وقال غاضبا:

ـ عظيم إنك أرسلت لي في الوقت المُناسب يا جدي؛ قبل ما تحصل هذه الكارثة.

ابتسم جده، وأردف:

ـ حمد الله على سلامتك يا حبيبي، أختك تريد أن تتزوج هذا الصعلوك الفلاح ابن الصعلوك، ونسيت أن أهله طيلة عُمرهم يعملوا خدم عندنا في القصر.

نظرت (كندا) لجدها، وصدمت وانهمرت باكية، وقالت:

ـ لماذا فعلت هذا يا جدي، لماذا خدعتني؟! أنت قُلت لي إنك موافق على زواجنا.

نظر (تيمور) لجده وضحك بأعلى صوتهِ ساخرًا من (إسلام) وأسرته، وأردف:

ـ بالطبع مُستحيل هذا يحصل يا جدي، مُستحيل (كندا) تتزوج هذا الفلاح.

حدق له (إسلام) غاضبا، وقال:

ـ أنا أحب (كندا) وهي أيضا تحبني، ولن تستطيع أية قوة أن تفرق بيننا.

وهنا اقتربت (كندا) منه، وهي ما زالت تبكي بشدة، وأمسكت يده وتابعت:

ـ وأنا أيضا أحبك يا حبيبي، ومُستحيل أبعد عنك مهما حصل، سنتزوج ولا أريد أية شيء منهم، ولا أية شيء من الميراث، خذ كل ما يملكه جدي يا (تيمور) واتركني أتزوج (إسلام).

وهنا أخرج (تيمور) الطبنجة من جيبه، وبعيون متقدة بالشرار نظر لـ(إسلام) غاضبا وصاح:

ـ اخرج من هنا أنت وأهلك يا كلب، وإياك تدخلوا القصر مرة أخرى، أو أرى أبيك هذا الكلب الصعلوك في أرضنا.

ـ لست بكلب، ولا أبي كلب، ولا صعلوك، الكلب والصعلوك هو أنت، وإن كنت تعتقد إني طمعان في مال (كندا)، وأرضها؛ فهذا خطأك يا كلب يا صعلوك.

وفي تلك اللحظات، ضغط (تيمور) على زِناد الطبنجة وأطلق الرصاص على (إسلام)؛ ولكن اقتربت (كندا) مسرعة من (إسلام) وحضنته، واخترق الرصاص ظهرها؛ وهي في حضنه في مُحاولة أن تحميه من الرصاص، أسرع (نُعمان باشا) و(تيمور) نحوها وقالا معا:

ـ لماذا فعلتِ هذا يا (كندا)؟!

وما هي إلا لحظات معدودة وفارقت (كندا) الحياة، وهي في حضن (إسلام)؛ دون أن تتحدث بأيّة كلمة؛ إلا إنها راحت تقبض بيدها على يد (إسلام) بكل قوتها، وحدقت في عينيهِ، وماتت بين أحضان حبيبها التي طالما تمنت أن تتزوجه، وقف (تيمور) ومسك الطبنجة مرَّة أخرى؛ وصوبها تجاه (إسلام)، ولكن أسرع (عبدهُ) وأحضر المنجل الذي كان بجوارهِ، واقترب من (تيمور) بسرعة البرق وفصل به رقبته عن جسده، طارت رأسه وسقط جثة هامدة بجوار (كندا)، وفي تلك اللحظات، مسك (نُعمان باشا) الطبنجة من الأرض وقتل (عبدهُ)، ثُمَّ قتل (فوزية) ونظر لـ(إسلام) في محاولة لقتله، ولكن ظهرت (أم الشعور) من الخلف وضربته على رأسه بالبلطة، فوقف مُترنحا، واستدار تجاهها، وصوب الرصاص إلى رأسِها دون أن يركز في ملامحها لعدم اتزانه الآن، فسقطت بجوارهم، وما هي إلا لحظات، وسقط (نُعمان

باشا) قتيلًا على الأرض جُثة هامدة بجوارهم مُتأثرًا بضربة (أم الشعور).

وهنا سقط (إسلام) مُغشَى عليه في بركة الدم هذه، لِيَفِيق ويجد نفسه في غُرفة العناية المركزة في المستشفى الميري في «الإسكندرية» وبجوارهِ (أحمد)، فتح عينيه ورأى الطبيب يقف أمامه ينظر لهُ وقال باسما:

ـ حمد الله على السلامة يا (إسلام)، أخيرًا فوقت! لقد انتظرنا أن تفيق منذ أكثر من سنة!

حدق (إسلام) حوله، ولم يرد بأيّة كلمة؛ ونظر على يمينه، ليجد (أحمد) يجلس بجواره؛ ظل ينظر لهُ لدقائق صامتا، ثُمَّ قال:

ـ أين أنا الآن يا (أحمد)؟

دنا منه وقبل رأسِهِ وقال باسما:

ـ حمد الله على السلامة يا حبيبي، كل هذا في غيبوبة يا (إسلام)، لقد انتظرنا أن تفيق من هذه الغيبوبة منذ أكثر من سنة؛ الحمدُ لله إنك فوقت؛ لأن الدكاترة قالوا ممكن الغيبوبة تأخذ وقت أكثر من ذلك.

صمتَ قليلًا، ثُمَّ حدق لـ(أحمد) وبصوت خافت تابع:

ـ ماذا حصل يا (أحمد)؟ معقول كلهم ماتوا أمامي، وأنا لم أفعل شيء!

راح ينظر لهُ (أحمد) بحب وتابع:

ـ بالله عليك انسى كل ما حصل، حتى تسترد صحتك وهذا كله قدر ومكتوب؛ وليس بأيدينا أية شيء لنغيره.

ترقرقت عينيه بالدموع وحدق لـ(أحمد) وأردف حزينا:

ـ كيف أستطيع أن أعيش بدون (أمي، وأبي، وكندا) وكيف سأكمل حياتي؟ أتمنى أن أموت ولا إني أعيش بعد موتهم.

وانهمر في البكاء، فاقترب منه (أحمد) وراح يحتضنهُ بشدة وهو مازال مُستلقٍ على سريرهِ.

***

وبعد أن تذكر (إسلام) مشهد مقتل الجميع وهو مازال داخل «المقبرة الملعونة» وثب من مكانه واقترب من العين الشرقية، يحاول أن يفتحها، وصاح صارخا:

ـ لا تتركيني وحدي يا (كندا).

وهنا اقترب منه (حامل المفاتيح) ولطمه على وجهه بقوة؛ فسقط مغشيً عليه.

***

يا لها من «ليلة ملعونة» بعض ساعات مرت على (إسلام) وكأنها ألف سنة، وكانت حقا «ليلة في الجحيم» بتوقيت الموتى.

ومع قرب الفجر، وقد هدأت العاصفة هذه الليلة، توارى الرعد، والبرق والرياح والأمطار، ولكن ظلت السماء ملبدة عاتمة بالغيوم، كانت عاصفة عاتية خارج «المقبرة الملعونة» و«ليلة في الجحيم» داخلها بدأ قرآن الفجر يتلو في مسجد القرية، وهنا ظهر (حامل المفاتيح) يجلس أعلى النخلة بزيه المعتاد، يلوح بالمفاتيح بيده وراح ينظر لـ«المقبرة الملعونة» وقال:

ـ الفجر، هيا قبل آذان الفجر.

ثم قفز قفزة واحدة من أعلى النخلة، ليكون أمام باب «المقبرة الملعونة» في الحال، وفتح قفلها الحديدي بمفتاحها، والتقط (إسلام) بسرعة البرق بذراعه الأيمن من داخلها وهو مازال يقف على بابها، و(إسلام) مازال مغشيٍ عليه، ورماه في ممر صغير بين المقابر، لتُدفن رأسه في الطين والماء الذي خلفته الأمطار، وركض مسرعا بين المقابر، وهو يضحك ويقهقه بأعلى صوته والذي راح يتردد في سماء القرية وقال:

ـ إلى لقاء آخر يا صغيري.

وفي تلك اللحظات، أذن الفجر وراح المؤذن ينادي بصوته الجميل والذي يشبه صوت الكروان:

ـ «حي على الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، حي على الفلاح» وكأنه يبعث إشارة ورسالة مع فجر يوم جديد للفلاح.

ومع اقتراب ظهيرة هذا اليوم، أفاق (إسلام) من إغمائه، ليجد نفسه مُستلقي أرضا في الطين بين المقابر وملابسه التي حضر بها للمقابر ليلة البارحة، قد لطخت كاملة بالطين وشعر رأسه في الطين على الأرض، ومعطفه بجواره ملطخ بالطين أيضا، حدق لنفسه بصدمة مدهوشا، وقال:

ـ أين أنا؟! معقول أنا الآن خارج «المقبرة الملعونة»، لا أصدق نفسي، وكيف خرجت منها، ومن أخرجني؟! آخر ما أتذكره عندما لطمني هذا الراجل العملاق الغريب على وجهي.

ثم اعتدل جالسا، وركن ظهره على مقبرة صغيرة ونظر على مرمى بصره لـ«المقبرة الملعونة» بابها مُغلق وقفلها مُحكم الغلق وكأن شيء لم يكن، صمت وراح يفكر في كل ما حدث، كادت رأسه أن تنفجر.

ومع غروب هذا اليوم، هدأ الجو بعد هذه العاصفة القوية ليلة أمس، وتوارت الشمس وبدأ الليل يزحف بهدوء والظلام يغطي القرية بأكملها وعم السكون المكان، هناك من يدخل من بوابة المقابر الرئيسية يسير ببطء شديد، شاعرا بالخوف مُلتفتا حوله يمينا ويسارا، ونادى بأعلى صوته:

ـ (إسلام).

ـ أنا هنا يا (أحمد).

راح يبحث عن مصدر الصوت في كل مكان، إلى أن رأى رأس (إسلام) تظهر بين المقابر، اقترب نحوه مسرعا، ليجده بهذا الشكل الغريب، حدق له مصدوما، وقال:

ـ لقد بحثت عنك كثيرا يا (إسلام) عرفت أنك خرجت من المستشفى ليلة البارحة، وجئت لك القرية اليوم بعد العصر، وناديت عليك في منزلك أكثر من ساعة، لكنك لم ترد، قابلت أحد جيرانك، قال لي أنه رآك تمشي في طريق المقابر، لذا أتيت لك هنا مع أني أخاف أن أدخل المقابر وحدي.

وصمت للحظات، مازال ينظر له مُتعجبا و(إسلام) صامتا فأكمل:

ـ لكن من فعل بك هذا، ولماذا أتيت للمقابر، ولماذا تجلس

بين المقابر هكذا وعندما سمعت صوتي لم تقف من مكانك وتأتي إليّ؟!

حدق له شاردا تائها وصمت للحظات، ثم راح ينظر مرة أخرى لـ«المقبرة الملعونة»، فكرر عليه (أحمد) كل هذه الأسئلة مرة أخرى بعد أن جلس بجواره، وهنا تنفس (إسلام) الصعداء وتنهد بقوة، ورد متلعثما:

ـ بعد خروجي من المستشفى في «الإسكندرية» عُدت للقرية، وجدت رجلي تقودني دون أن أشعر بنفسي للمقابر، كنت حابب أزروهم جميعا، حتى لو بالليل، ولكن قابلني رجل عملاق وشكله غريب وأدخلني هذه المقبرة.

وأشار بسبابته لـ «المقبرة الملعونة» ثم تابع:

ـ وداخل هذه المقبرة، قضيت أسود ليلة في حياتي، حقا إنها «ليلة في الجحيم» حتى فوقت ووجدت نفسي ظهيرة اليوم في هذا المكان، لا أعرف من الذي أدخلني هذه المقبرة ومن الذي أخرجني منها!

بحدقتين متسعتين ووجه محتقن بالدم، نظر له (أحمد) مدهوشا، لاحظ (إسلام) في عينيه، أنه لا يصدقه، فنظر له بحزن، وبصوت مبحوح تابع متمتمًا:

ـ ألم تصدقني يا (أحمد)؟

دنا منه (أحمد) وضمه بين ذراعيه وهو مازال يجلس أرضًا وعانقه بشدة، فصار جسدهما كجسد واحد، وأردف:

ـ بالطبع أصدقك يا حبيبي في كل حرف وكلمة، ولكن لماذا أتيت المقابر ليلا؟! انسى ما حصل يا (إسلام) وأنت كنت في غيبوبة أكثر من سنة، ونحمد ربنا أنك فوقت منها.

نشج بقوة وسالت الدموع من عينيه على وجنتيه، وأردف:

ـ أنسى! هل تعتقد أني سأستطيع أن أنسى؟!

ضمه (أحمد) مرة أخري لصدره وتابع:

ـ كف عن الكلام في الماضي، وتعالَ نمشي من هنا.

ظل يبكي بين ذراعيه، وبصوت واهن تابع:

ـ لن أستطيع أن أمشي يا (أحمد) حاولت أن أقف وأمشي على رجلي لكني لم أستطع مطلقا، ولا أشعر برجلي.

ابتعد عنه (أحمد) وراح يتحسس قدميه بيديه وبترقب تابع:

ـ هل تشعر بيدي على قدميك؟

ـ نعم، لكني لم أستطع الوقوف ولا المشي.

نظر له (أحمد) وقال باسما:

ـ يبدو أنك تريد أن أحملك على ظهري مثل زمان، سأحملك يا صديقي.

وحمله (أحمد) على كتفه، ليجده قد تبول على نفسه وأغرق سرواله، فتلطخت ملابسه بالطين والبول من ملابس (إسلام) سار به بين المقابر نحو البوابة، وتابع مازحا ضاحكا:

ـ يبدو أن وزنك قد زاد في فترة الغيبوبة، أشعر أنك أثقل من زمان.

لم يرد عليه مجددا وراح ينظر مرة أخرى لـ«المقبرة الملعونة» ورأى...

ظهرت له من جديد، تجلس في ظلام الليل أعلى المقبرة، تبتسم بهدوء دون أن تحرك ساكنا، فراح يحدق لها باسما، إلى أن خرج به (أحمد) من بوابة المقابر وتوارت «المقبرة الملعونة» واختفت هي أيضا، راح (أحمد) يشق طريق المقابر الصغير بين الحقول إلى أن وصل أول القرية، وسار في شارعها الرئيسي هناك بعض الفلاحين عائدون من حقولهم الآن، ينظرون له وهو يحمل (إسلام) على كتفه هكذا وهنا ضحك (أحمد) وقال:

ـ الناس تنظر إلينا مُتعجبة أني أحملك على ظهري هكذا.

فلم يرد البتة وهنا سأله (أحمد):

ـ هل تسمعني يا (إسلام)؟

ـ نعم، أسمعك.

فسأله مرة أخري ضاحكا:

ـ إلى أين تريد أن تذهب الأن يا (إسلام)؟

صمت (إسلام) للحظات، وراح يغمغم ويحدث نفسه بهدوء؛ فكرر (أحمد) سؤاله مرة أخرى، وبصوت واهن مبحوح غلبه التعب والإرهاق أجاب متلعثما...

تمت بحمد الله